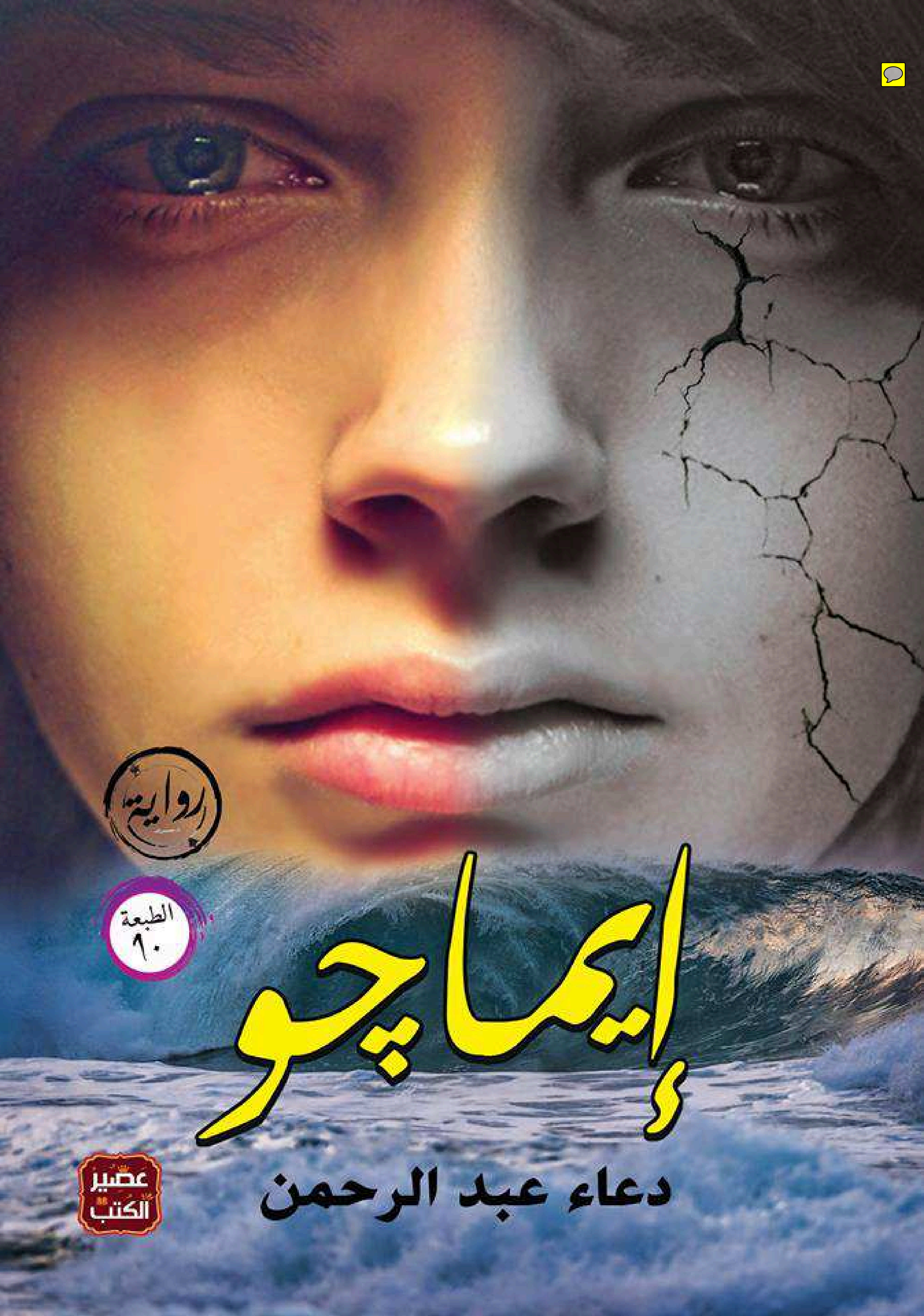

رواية
الطبعة
٩٠
إيماچو
دعاء عبد الرحمن
عصير الكتب

إيماچو

دعاء عبد الرحمن

تدقيق لغوي: د. إيمان الدواخلي

تصميم الغلاف: أسامة علّام

رقم الإيداع: 2014/22610

I.S.B.N:978-977-85156-1-9

عصير الكتب للنشر و التوزيع



المدير العام : محمد شوقي

مدير النشر : علي حمدي

لجنة فنية : د. إيمان الدواخلى / د. أحمد إبراهيم إسماعيل

د. أحمد السعيد مراد / أ. كمال اليماني

مدير التوزيع : عمر عباس

التجهيز الفني : آية سعد الدين

هاتف : 01150636428

E-mail : p.bookjuice@yahoo.com

الطبعة الأولى , 2014م

عصير الكتب للنشر و التوزيع

إيماچـو

دعاء عبد الرحمن

رواية



عصير الكتب للنشر و التوزيع

الآن يتساوى القوي والجبان

أول جملة قالها صامويل كولت

بعد اختراعه المسدس

إِهْدَاءْ

إِلَىَ قُبْلَةِ الصبَاحِ وَرِيحِ الْجَنَّة إِلَىَ نَبْعِ عَطَاءٍ غَابَ تَحْتَ الْثَرَى

إِلَىَ أُمِي الْغَالِيَّة - رَحِمَهَا الله -

إِلَىَ نَبْضِ قَلْبِي وَ وِشاحِ رُوُحي.. غُرْبَتِي وَ وَطَنِي إِلَىَ زَوْجِي الْحَبِيبْ

شُكرٌ وَ تَقْدِير

لِكُلِ مَنْ سَاعَدْنِي وَتبَنَّى قَلَمِي وَقَوَّمَهُ وَحَسَّنَهُ وَبَذَلَ وَقْتَهُ وَجُهْدَهُ لِتَخْرُجَ كَلِمَاتِي إِلَى الْنُور بِشَكْلٍ لَائِقٍ وَهُم كُثُر

وَأَخُصُ بِالْذِكْرِ

دَارْ"عَصِير الْكُتُبِ" وَالْقَائِمِينَ عَلَيهَا

الْكَاَتِب الرَائِع د. أَحْمَد السَعِيد مُرَاد



- 1 -

ارتفعت النداءات عبر مكبرات الصوت المركزية، لا تتوقف لحظة واحدة، في كل ممر من ممرات المشفى الكبير بالبحر الأحمر، باستدعاء جميع الأطقم الطبية وأطقم التمريض الموجودة في ذلك الوقت المتأخر من الليل. وكذلك انطلقت اتصالات الـ "سويتش" لاستدعاء كافة الأطباء العاملين من مساكنهم. إنها حالة طوارئ عاجلة وغير متوقعة؛باخرة كبيرة غرقت في عرض البحر، وزوارق الإنقاذ تكافح بشدة لانتشال الأعداد الكبيرة التي سقطت في المياه؛ وبسبب الإهمال وتأخرهم، ظلت الصراخات المستغيثة تشق الفضاء لساعات طويلة من الليل، الجميع يتخبط محاولًا إنقاذ نفسه من الهلاك، بينما بعضهم غمرتهم المياه ولم يظهر لهم أي أثر، جرفهم التيار أو علِقوا بالشعب المرجانية أو هلكوا بطريقة أخرى!.

هرولت الممرضات عبرالرواق الكبير الذي يفصل قاعة الاستقبال الأمامية عن الجزء الداخلي من المشفى المؤدي للمصعد، وهن يدفعن أمامهن الأسِرَّة والمقاعد المتحركة، التي امتلأت عن آخرها بحالات حرجة، منها من هو بين الحياة والموت، ومنها من أصيبت بصدمة عصبية شديدة، ومنها من فارقوا الحياة بالفعل.

تداخلت الأصوات، وعلت التشنجات الباكية، وبعد ليلة طويلة ملأتها الأحزان والآلام والخوف،حتى بزوغ أشعة شمس يوم جديد، ومعه بدأ السكون يحل قليلًا، إلا من بعض أناتِ الجرحى والمصابين، الذين ازدحمت بهم غرف المشفى، منهم من يتلقى إسعافات أولية، ومنهم من قضى ساعة أو ساعات في غرفة الجراحة، ومنهم من سكن مشرحة الموتى.

وعندما توسطت الشمس كبد السماء، عادت حالة الهرج مرة أخرى، بحضور أهالي الغرقى الذين يبحثون عن ذويهم في لهفة وقلق، لا يعلمون هل أحبتهم على قيد الحياة أم يرقدون الآن في قاع البحر، أم انزلقوا بداخل كهوف مظلمة في أعماق المياه الباردة.وكلما مالت الشمس إلى الغروب،ازدادت أعداد الباحثين، وارتفعت أصوات البكاء والعويل من حناجر الثكلى، وزادت حدة القلق والتوتر عندهم.

وقبيل الفجر بقليل، وفي نهاية تلك الملحمة بعد يوم شاق، دلفت إحدى الممرضات إلى الاستراحة الخاصة بهن، وقد سكنت الجدران ولم يسكن من خلفها.ارتمت فوق المقعد منهكة القوى مغمضة العينين قائلة بوهن:

- بقالي يومين واقفة على رجلي، خلاص مش قادرة.

رفعت ممرضة أخرى رأسها، التي كانت تستند بها إلى راحتها وقد دمعت عيناها وهي تقول:

- ماحدش فينا ارتاح من ساعة ما السفينة دي غرقت.. بس تعرفي، أهاليهم صعبانين عليا قوي خصوصًا اللي مش لاقيين ولادهم.

أومأت الممرضة الأولى برأسها بإنهاك شديد قائلة:

- معاكي حق، لسه دلوقتي كنت بدوّرعلى بنت مع أهلها وخطيبها وللأسف مالقينهاش، حالتهم صعبة قوي وخصوصًا خطيبها اللي لقى أبوه وأمه وأخوه الصغير في التلاجة، كان هيتجنن ياعيني.. حالته تصعب على الكافر، أهله كلهم راحو وكمان مش لاقي خطيبته ولا يعرف هي عايشة ولا ميتة ؟

اعتدلت الأخرى باهتمام وفضول قائلة:

- طب مافيش معاهم صورة ليها؟ يمكن اسمها ماتسجلش في الحالات اللي دخلت، والأوض مليانة، ده كل أوضة فيها خمس أو ست حالات

أومأت برأسها مؤكدة وهي تخرج صورة صغيرة وهي تقول:

- أخوها اداني صورتها لما سبتهم وطلعت أدور في قسم تاني

أمسكت الممرضة الأخرى بالصورة بفضول، ثم دققت بها النظر وتمتمت بتركيز:

- البنت دي تقريبًاخرجت الصبح مع أبوها، فاكراها من حالتها، كانت صعبة قوي ومش فاكره حاجة خالص

قطبت زميلتها حاجبيها وهي تقول بتفكير:

- ما يمكن واحده شبهها

حركت الأخرى رأسها بعدم تصديق قائلة:

- معقولة!! شبهها للدرجة دي!.. دي تبقى صدفة غريبة أوي

زفرت زميلتها بإرهاق وهي تغمض عينيها ملقية بجسدها فوق الفراش الصغير قائلة بضجر:

- بقولك إيه فاضل كام ساعة والنبطشية تبدأ سيبيني بقى أنام شوية، يخلق من الشبه أربعين!!

***

انطلقت بعنفوان وتحدٍ، بمقدمتها الضخمة المبتلة تشقه شقًا، وتطفو فوقه بخفة ورشاقة لا تتناسب مع ضخامتها، فهي المخضرمة في مجالها تختال بهيبتها وقدرتها وسرعتها. حاول أن يتحداها كما يفعل دائمًا، ولكن –كالعادة- لم يستطع ثنيها، أمام عزيمتها وتصميمها على المضي قدمًا في طريقها المنشود، واضطر في النهاية، رغم برودته وعتمته، إلى الاستسلام وإفساح الطريق أمامها. فازت عليه كما تفعل دومًا، وانطلقت سابحة في قوة ورزانة وهدوء، يتناسب مع اسمها الذي أُطلق عليها "السهم". ورغم سرعتها، إلا أنها رفقت بمن تحملهم فوق ظهرها يحتفلون على متنها.

تعالت أصواتهم وهم يرقصون بصخب، وصوت آلة الجيتار يدوي بألحانه العاشقة، وهو يعزف بأصابعه المتدربة مغمضًا عينيه في نشوة، متذوقًا كلماته التي كتبها وغناها لها وحدها، في يوم ميلادها والذي كان يتوافق في تاريخه مع ثاني أيام عيد الفطر. كانت تتمايل برأسها يمنة ويسرة، برقة ممزوجة بالخجل، وتُخلل أصابعها محاولة ترتيب خصلات شعرها الفاحم الطويل، الذي عبث النسيم بغرته القصيرة مداعبًا عينيها السوداوين، وهي تجلس بجواره بثوبها القرمزي الطويل مكشوف الذراعين، وقد تحلق حولهما الفتيات والشباب يصفقون ويتمايلون على وقع أنغامه،التي امتزجت بهدير أمواج النيل الهادئة، والذي انعكست على صفحته مصابيح السفينة

القوية، كاشفة أمامها تلك المراكب الشراعية الصغيرة التي تسبح بهدوء في الجوار، وقد وقف من فيها فضولًا يراقبون هذا الحفل الصاخب، الملون بأزياء مبهرجة تلمع خطوطها وتُحمل بين أطراف الأصابع ذيولها.

وبالقرب من الأسوار،اصطف رجال الأعمال المدعوون بشكل عشوائي بملابسهم الرسمية الملائمة لتلك المناسبات الليلية، وهم يتحدثون حول صفقاتهم وأعمالهم، وكل منهم يحمل كأسًا فارغًا أو ممتلأ بعضه، وينظر إلى شريكته الضاحكة بجواره مبتسمًا بين حين وآخر مجاملًا، وقد تسلل إلى سمع الجميع صوت "شادي" وهو ينهي أغنيته الحالمة بأبياتها الأخيرة، ناظرًا إلى محبوبته وخطيبته "حبيبة" مُرسلًا كلماته إلي عينيها مباشرة.

أنهى أغنيته مبتسمًا لها، بينما صفق من حولهما بحرارة وإعجاب، وقد تداخلت الأصوات، يبدي بعضها إعجابًا وتساؤلًا عن كلمات الأغنية هل هو من كتب كلماتها أم لحنها فقط وغناها.

حاول أن يسيطرعلى ابتسامته الواسعة التي تزيده وسامة وهو يجيبهم، معلقًا عينيه بالجالسة بجواره مضطربة، فهي رغم اعتيادها على تلك الحفلات الصاخبة، إلا أنها تخجل من كونها محط أنظار الجميع، وقد ازداد ارتباكها وهي تسمعه يقول:

- أنا كتبتها ولحنتها مخصوص علشان عيد ميلاد "حبيبة"

أنهى كلمته وهو يأخذ كفها برقة بين أصابعه، ويطبع عليه قبلة صغيرة، ناظرًا إليها متابعًا:

- كل سنة وانتِ طيبة يا حبيبتي.

فجأة، شعرت بيد تجذبها بقوة، فاستدارت بجسدها دفعة واحدة محاولةً تحرير مرفقها وهي ترفع رأسها.

ارتطمت عيناها بوجه أختها الكبرى "نشوى"، بقوامها المعتدل ورأسها المرفوع وأنفها الشامخ بتكبر، وثوبها الأسود الصارخ بأنوثتها، وعينيها الثاقبتين الخاليتين من المودة.وبمرح مبالغ فيه، دعت "نشوى" الجميع إلى مأدبة الحفل، فعلت الأصوات وتسابق الشباب والفتيات، بينما اكتفت "حبيبة" بإلقاء نظرة عدم رضا إلى أختها، التي انتزعتها بشكل لا يليق من بين أصدقائها، ثم لحقت بها بجوار "شادي"، مستكينة إلى منتصف القاعة بالسفينة،حيث تحلق معظم المدعويين حول الطاولة الكبيرة التي تتوسطها كعكة ضخمة، وأشارت "حبيبة" بيدها إلى أختها الصغرى "سلمى" ذات الستة عشر ربيعًا، لكي تأتي إلى جوارها، فقد كانت تقف –كعادتها- في الخلف بمفردها، ترتدي نظارتها الطبية الرقيقة، وثوبها الأبيض المنسدل، ليرسم لوحة فنية صغيرة عنوانها "مشروع طبيبة".

أُطفئت بعض المصابيح القوية الملونة، وتطاير الشرر حول الشموع النارية الصغيرة، والتي تصدر قرقعات مبهجة ممزوجة بموسيقى هادئة، تسللت بنعومة إلى آذانهم من خلال السماعات الصغيرة المنتشرة بحرفية في زوايا تلك السفن الضخمة.

هدأ الصخب، وبدأت الموسيقى الناعمة البطيئة في الانسياب، ووقفت "نشوى" وسط الساحة الراقصة تبحث بعينيها عن زوجها المنشغل دائما، إما بعمله أو بمضاحكة الفتيات. وما إن رأته،حتى أشارت له برأسها،فاقترب منها مبتسمًا، وتناول كفها بين يديه ولف يده الأخرى ليلامس ظهرها، وبدأ في مراقصتها كما يفعل الجميع.

ابتسمت له ابتسامة صفراء وقالت:

- هو أنا لازم أشاورلك علشان تيجي؟

تنحنح "راغب" وهو ينظر بخفة إلى يساره، ثم يعود برأسه إليها بابتسامة جليدية:

- آسف يا حبيبتي ماخدتش بالي إنك لوحدك.

نفضت غضبها منه وهي تشرئب بعنقها ناظرة إلى المرأة الأربعينية التي كانت تسير بصحبة والدها، ليتوقفا بجوار "حبيبة" وخطيبها "شادي"، وقبل أن تتساءل، لمح زوجها النظرة الفضولية المطلة من عينيها بضراوة، فقال مُعَرِّفًا:

- دي يا ستي أحد الأسباب الرئيسية اللي خلت عيد ميلاد أختك يتعمل في القاهرة.

تحولت بعينيها إليه بتساؤل أكبر، فأوما برأسه مؤكدًا لحديثه وهو يتابع بسخرية:

- المدام صاحبة شركة من أكبر شركات الإنتاج الفني هنا في القاهرة.

ثم غمز بعينيه بخبث قائلًا:

- ومتخصصة في اكتشاف المواهب الشابة.

رفعت حاجبيها بدهشة، وما لبثت قليلًا حتى انفرجت شفتاها عن ابتسامة صغيرة ماكرة، وهي تنظر إلى والدها الذي يقوم بتعريف "شادي" إلى المرأة،التي كانت تصافحه بل وتفحصه، ومن الواضح أنه يتحدث عنه بحماس زائد.

الآن فقط زالت دهشتها التى تملكتها منذ أن قرر والدها إقامة حفل ميلاد "حبيبة"في القاهرة وفي هذه السفينة،فهي تعلم طبيعة

والدها جيدًا،لا ينفق قرشًا زائدًا إلا إذا أيقن أنه سيعود إليه آلافا مضاعفة. تيقنت من ذلك عندما رأته يبرم إحدى صفقاته.

رفعت له القبعة في تلك اللحظة،فهي تتمنى أن يتخلص من هذا المتطفل،الذي دخل عائلتهم بناء على رغبة محبوبته وحدها، فلم يكن يوما يليق بتلك العائلة العريقة.

وضعت السيدة "بثينة" أطراف أصابعها على كتف "شادي" وهي تنظر إلى "حبيبة" بابتسامة باردة وقالت بتساؤل:

- تسمحي يا آنسة "حبيبة" آخد خطيبك شوية؟

ابتسمت "حبيبة" متوترة، وهي ترى "شادي" ينقل بصره بينهما بنظرات مرتعشة، من فرط سعادته واندهاشه من وجود شخصية مشهورة مثل السيدة "بثينة"، المعروفة بتبني الوجوه الشابة، من خلال شركة إنتاجها الكبيرة، وحديثها معه بحماس عن موهبته وصوته الذي استمعت إليه منذ قليل ولفت انتباهها.

قررت "حبيبة" أن تمنحه الفرصة التي يطلبها منها بعينيه ونظراته الزائغة، وابتسمت وهي تومئ برأسها موافقة، وانسحبت من دائرة الرقص متجهة إلى والدها مباشرة، ووقفت بجواره وهي تهمس إليه:

- لو سمحت يا بابا عاوزاك في حاجه مهمة.

التفت الرجل الذي كان يقف بصحبة والدها إليها، ثم أطلق صفيرًا منغمًا وهو يتفحصها بعينيه عن كثب موجهًا حديثه لوالدها:

- ماقلتش يعني يا "سليم" باشا إن عندك بنات حلوين أوي كده؟

ابتسم "سليم" بزهو وهو يعرف ابنته إلى الرجل قائلًا:

- "حبيبة" بنتي، كلية آداب.

ابتسمت "حبيبة" ابتسامة مغتصبة،انفرج جزء من ثغرها بصعوبة لها، وهي تومئ مجاملة للرجل،الذي عرف نفسه على الفور بفخر:

- طبعًا عارفاني، ماحدش في مصر كلها مبيشوفش الأفلام اللي بانتجها؟

أومأت مرة أخرى وهي تقول باقتضاب:

- أهلا يا فندم.

مد يده على الفور إليها وهو يقول بثقة:

- تسمحي تشرفيني وتوافقي ترقصي معايا ؟

وضع والدها كفه على ظهرها، وهو يربت عليه وينظر لها نظرة تعرفها في تلك المواقف،التي تكرهها ولكنها لا تستطيع الرفض.

استجابت ليده الممدودة إليها، ووضعت راحتها بداخلها بسكون، فأخذ يدها بحركة مسرحية وقبلها، ثم أخذها إلى ساحة الرقص الصغيرة، وبدأ في مراقصتها، وشرع في الحديث عن نفسه وأعماله وقتًا لا بأس به، وهي مشتتة الفكر تنظر إلى "شادي"،الغارق في الحديث الهامس والابتسامات الصغيرة مع رفيقته الأربعينية، التي بادلتها نظرات باردة وهي تقول موجهة حديثها إلى "شادي":

- خطيبتك شكلها بتغير عليك أوي يا فنان.

ألقى "شادي" نظرة إلى "حبيبة" الشاردة، ثم عاد بنظراته إليها وقال نافيًا:

- لا أبدا دي "حبيبة" سبور ومتفتحة.

عادت "حبيبة" من خضم أفكارها إلى أرض الواقع، عندما شعرت بضغطة صغيرة على خصرها، ورفيقها يقول بنبرة لم تعجبها:

- تعرفي يا"حبيبة" عليكي بروفايل يجنن، الشاشة هتحب وشك أوي.

ابتلعت ريقها بصعوبة وهي تقول بتوتر:

- لا أنا ماليش في حكاية التمثيل دي خالص.

رفع حاجبيه بدهشة وهو يقول متفحصًا لها:

- ليه، ده انتِ فيكي كل المواصفات؟!

نظرت في اتجاه آخر وقد تغير وجهها، محاولة البحث عن مخرج يجعلها تستأذنه بلباقة وتنصرف بدون مشاكل، وهي تتذكر كلمات والدتها الموبخة لها دائمًا " لما حد يتطاول ويضايقك اتصرفي بلباقة وذكاء وبلاش شغل الفلاحين بتاعك ده.. أنا مش عارفةانتِ ليه مش ذكية زي"نشوى".!

توقفت الموسيقى،لتهديها الحل السحري لانسحابها بهدوء بدون أضرار، وهي تنسلخ من بين ذراعيه مبتعدة وتخطو خطوات واسعة سريعة،وكعب حذائها العالي يطرق الأرض طرقات صغيرة، اختلطت بمقطوعة الموسيقى التي أعلنت عن بدء حالة جديدة من الصخب. وجدت نفسها أمام الدَرج المؤدي إلى الطابق السفلي من السفينة، فهبطت سريعًا وهي تكاد تسمع دقات قلبها مختلطة بصوت أنفاسها اللاهثة.

كان الجزء الأسفل مظلما بعض الشيء،وهدير المياه، إثر اختراق السفينة لها، يعلن عن نفسه بوضوح أكثر، وأعمدة الإنارة على أحد الكبارى تعكس ضوءها الخافت على تلك البقعة التى تقف فيها.

استندت إلى أحد الأسوار الخفيضة بمرفقيها وهي تنظر إلى المياه بعقل شارد.. لماذا اقترح والدها السفر إلى القاهرة وإقامة الحفل على سفينة في نيلها؟قطعًا لم يفعل ذلك من أجلها،إنما هي صفقاته التي لا تنتهي.

شعرت بحنين إلى مدينتها عروس المتوسط الأسكندرية، برمالها وشطآنها وحصبائها وأمواج بحرها، مما جعلها تتمسك بحافة السور المنخفض، وقد وجدت ابتسامة طفولية مشاغبة طريقها أخيرًا إلى شفتيها، وهي تحاول الجلوس عليه وتجاهد تلك الرهبة الخفية التي تسللت إلى قلبها مع اندفاع الهواء إلى رئتيها، وهي تشاهد المراكب الصغيرة السابحة بجوار السفينة العائمة بهدوء،وتلمح طفلا صغيرا يقف على مقدمة أحد تلك المراكب بثقة، ويشير لها بكلتَي يديه.

أشارت إليه بابتسامة واسعة وحماس كبير.. كانت تنشد الابتعاد والهدوء ولكن المفاجآت لم تترك لها الفرصة الكافية.جاءتها صرخة باسمها من الخلف، جعلتها تجفل وتضطرب و.. تنزلق..

ها هي تواجه هذا الوحش الهادر وحدها للمرة الثانية، بعد أن اصطدم رأسها بحافة السور، وهي تحاول التمسك به.لم تستطع إلا أن تلمسه أناملها، كما حدث منذ سنوات، وكأنه شريط سينمائي لايوجد به سوى هذا المشهد فقط، مكررًا نفسه أمام عينيها،التي دارت معه في حلقة مفرغة.وارتطم جسدها بالمياه الباردة التى غمرته سريعًا، لتبتلعه ظلمتها الحالكة في ثوانٍ معدودة.

- 2 -

غلف الظلام عقلها، وأحاط أوصالها ببرودته، وتداخلت الأصوات والأضواء، حتى شعرت بالصمم المفاجئ. لم تفلح حركاتها العشوائية وهي تضرب المياه بيديها ورجليها، وجثم ثقل مياه النيل وظلمته فوق رئتيها، وانقطع الأمل في الحياة..أهي النهاية؟ لابد وأنها كذلك!

لاح شعاع ضوء أبيض آتٍ من بعيد،شيء ما يسبح نحوها بقوة، بل بجنون، يشق المياه شقًا.. غير معقول، ها قد بدأ كيانه في الظهور.. رجل قوي البنية، يسبح نحوها بسرعة غير اعتيادية، يصوب بصره نحوها وهو يتجه إليها، وكأنها هدف له لا رجعة فيه.. ها قد ظهر جليا..

مهلًا! إنه يغرق هوالآخر، ويضرب المياه مثلها.. ولكن كيف؟!

كيف اقتربا إلى هذا الحد، وبتلك السرعة؟..رأى كل منهما نجاته في الآخر، واتفقا دون حديث، فدفعها للسطح وجذبته معها!

كيف استطاعت أن تراه، وهل تراه حقا؟! لقد اكتشفت أنها كانت مغمضة العينين،فهل انتقلت إلى العالم الآخر؟

رويدًا رويدًا، بدأ الظلام ينقشع ويلملم خيوطه ويطلق سراح عقلها، والوعي يحل محله ببطء.

لاح الشعاع الأبيض مرة أخرى، ولكن هذه المرة كان واضحًا وجليًا، يضرب مقلتيها بضوئه المبهر، والأصوات تتداخل ثانية، ولكنها استطاعت أن تميزها،واستطاع جسدها أن يشعر بالفراش المريح الذي تستلقي فوقه.

ثقيلة جفونها وهي تقاوم لتفتحهما بضعف، مقطبة الجبين، ورأتهم حولها، تتباين تعبيرات وجوههم ما بين الـ.. ماذا؟!

إنهم جميعًا ساخطون.. والدها، والدتها، وأختيها. كانت أول من تكلم منهم أختها الصغرى"سلمى":

- معقول يا"حبيبة"ما لاحظتيش ان السور مش مخصص ان حد يقعد عليه؟ بس عموما حمدالله على السلامة.

تحركت رأسها ببطء، عندما سمعت صيحة والدها من الجهة الأخرى يقول بغضب:

- انتِ هتفضلي متهورة كده لحد إمتى وطايشة؟شغلي كله اتعطل بسبب تهورك ده.

ثم اخترق أذنيها صوت والدتها بجواره وهي تقول بتأفف:

- دي أختك الصغيرة ماتعملش اللي بتعمليه ده. خليتي منظرنا وحش أوي.

أنهت جملتها وهي تلتفت إلى "نشوى"،التي قالت بضحكة ساخرة:

- وقعتي في الميه علشان ندهت عليكي؟، إيه،سمعتِ صوت عفريت ولا إيه!

استطاعت أن تحرك شفتيها بصعوبة، وسألت بصوت خافت ضعيف:

- فين شادي؟

حركت "نشوى" عينيها بمكر وهي تقول:

- بره في الاستراحة مع مدام "بثينة". أصلها صممت تيجي معانا المستشفى بنفسها

أغمضت "حبيبة" عينيها، وهي تستجدي الدوار أن يلفها مرة أخرى. ولكن طرقات خافتة على الباب قطعت عليها أمنيتها، وأتاها وقع أقدام تقترب منها، ثم شعرت به يجلس بجوارها ويتلمس كفها وهو يقول بعطف:

- حمدالله على السلامة يا "حبيبة".

فتحت عينيها، وانزلقت أول عبرة من مقلتها رغمًا عنها، لتغوص خلف أذنها، ومنها إلى ظلام خصلاتها المبعثرة على الوسادة، وقبضت على أصابعه كأنها تقبض على عبارته الرقيقة التي كانت تنتظرها وترجوها من عائلتها أولا. أغمضت عينيها بقوة، وهي تبلل شفتيها الظمآنة بلسانها، ولكنها تذكرت شيئًا ما لمع بذاكرتها فجأة، ففتحت عينيها وتساءلت بفضول:

- الشاب اللي طلعني من المية فين؟

تبادل الجميع نظرات الدهشة، بينما أجاب "شادي" بابتسامة صغيرة:

- شاب إيه يا"حبيبة" ده المراكبي العجوز اللي كنتِ بتشاوري لابنه الصغير قبل ما تقعي في المية هو اللي أنقذك.

ثم تابع وهو يربت على كفها بين يديه:

- الحمد لله أنه كان قريب منك ولحقك، ده انتِ اتكتبلك عُمر جديد.

قطبت جبينها وهي ترى لحظة سقوطها تمر أمام عينيها. بالفعل كان هناك رجل عجوز خلف الصبي الذي كان يلوح لها؛ ولكن ليس هو منقذها. لقد كان شابًا قويًا، تتذكره وتتذكر ملامحه.. لازالت تشعر بقبضته وهي تدفعها للأعلى.

شعرت بصداع قاتل وألم رهيب بجبهتها، فضغطت عليها بقوة ربما تُسكت هذا الدق المتواصل،بينماوالدها يتحدث في الهاتف إلى سائقه الخاص:

- جهز العربية حالًا هنرجع إسكندرية،كفاية عطلة بقى.

***

عادت إلى الإسكندرية، حيث منزلها وغرفتها المنعزلة التي تحبها وتلجأ إليها معظم أوقاتها التي تقضيها في المنزل.. تأوي إلى جدرانها، وتجلس خلف مكتبها الصغير، وتُخرج مفكرتها التي تدون فوق سطورها ما يمر بها من أحداث، تندهش لها أحيانًا ولا تجد لها تفسيرًا.

سطرت بأيدٍ مضطربة تلك الثواني التي قضتها تحت سطح النيل.. وكلما كتبت عبارة، وضعت خلفها علامة استفهام كبيرة. لم تستطع أن تفرق بين الحقيقة والوهم، رغم تذكرها لكل التفاصيل. لكن الفاصل الزمني انعدم تمامًا في تلك الثواني، وفي النهاية لجأ عقلها إلى إجابة منطقية، ربما تخرجه مما يعانيه من تخبط. ربما

سقطت في غيبوبة بمجرد سقوطها في المياه، ورأت خلالها ما رأت، واعتقدت أنه حدث بالفعل!

***

انتهت العطلة سريعًا، واستعادت روحها المرحة، وتنفست بعمق وراحة وهي تخطو خطوات سريعة داخل الجامعة، باتجاه صديقاتها وتلوح لهن برقة وابتسامة شغوفة، وتؤرجح حقيبتها التي تقبض عليها بيدها الأخرى.اقتربت، وهي تستمع إلى نغم الجيتار يخرج من بينهن، فاتسعت ابتسامتها وقد أيقنت أن "شادي" ينتظرها ويعد لها حفلة استقبال صغيرة، بالاتفاق مع صديقاتها.

صافحت الجميع بحماس ونعومة، وما إن وصلت إلى كفه، حتى قبض عليها وقبَّل أصابعها مُرحبًا بعودتها سالمة، وأجلسها بجواره، وأخذ يغني لها -كما يفعل دائمًا - وصديقاتها يتابعن بابتسامات متفاوتة..ابتسامة حالمة، وثانية سعيدة، وثالثة يملؤها الحقد!

بعد قليل،انفض الجمع وغادرت الفتيات، بينما بقيت هي بصحبته كما ألح عليها. اعتدلت في جلستها،واستدارت إليه بجسدها كله وعينين مشرقتين وقالت بتساؤل:

- ها، عملت إيه مع مدام"بثينة"؟

اضطرب قليلًا، فلم يفهم مغزى سؤالها، وقال بارتباك:

- قصدك إيه يعني؟

رفعت حاجبيها بدهشة، وإن ظلت محتفظة بإشراقتها وابتسامتها الصغيرة، وهي تقول:

- اقتنعت يعني بموهبتك وناوية تنتجلك ؟

حرك رأسه وهو ينظر إلى عينيها بحيرة كبيرة ويقول بشرود:

- لسه مش عارف.

أراحت ذقنها إلى قبضتها، واستندت إليها متابعةً حديثها باهتمام:

- يعنى ايه، اقتنعت بصوتك ولا لاء؟

لاحظت أنه يهرب بعينيه منها وينظر في اتجاهات أخرى وهو يقول بضيق:

- مش عارف يا "حبيبة".. الحكاية مش سهلة؛ عقود ومستقبل وفلوس..

ثم تابع وهو ينظر إليها معاتبًا:

- انتِ عارفة الناس دي كل اللي يهمها فلوسها هتروح فين ولمين؟

زمت شفتيها بقوة وهي تطرق برأسها وتقول بأسف:

- معلش يا "شادي"، هو بابا كده، ومش معاك إنت لوحدك، ده حتى إحنا بناته.

وجدت عدم الاقتناع مازال يحتل عينيه، فحاولت أن تضيف بعض المرح إلى حديثها وهي تقول مؤكدة:

- دي حتى "سلمى" أختي لما قالت إنها نفسها تدخل كلية صيدلة ويبقى عندها صيدلية باسمها كلمها وحش أوي والبنت جالها إحباط.

عقد ذراعيه فوق صدره بتحدٍ وهو يقول:

- و "راغب" جوز أختك، مش برضه بيشتغل معاه في فلوسه ؟

مالت برأسها يمينًا وهي تنظر إليه مشفقة وتقول:

- "راغب" أصلا كان عنده شركة مستقلة، ولما بابا كان داخل صفقة كبيرة طلب يشاركه فيها، وبعد ما اتجوز"نشوى" صفَّى شركته وحط فلوسه كلها في شركة بابا ومن ساعتها وهما بيشتغلوا مع بعض.

ألقى برأسِهِ للخلف، وأغمض عينيه في سكون وقد آثر الصمت. مرت أحلامه وأمنياته كالبرق، وأخذت تدور بعقله تارة وبقلبه تارة، وهو يتذكر أيامه الخوالي منذ سنوات، عندما كان يعزف بآلتهِ الوترية في هذا الحفل مرة وعلى هذا الشاطئ مرة، لعل أحدًا يكتشفه ويقدمه للوسط الغنائي ويتبنى موهبته؛ ولكن كل محاولاته باءت بالفشل، وفي كل مرة كان يعود أدراجه إلى الشاطئ خائبًا حافي القدمين، يقذف بهما الرمال هنا وهناك بسخط، مصطحبًا "جيتاره" الذي أصبح جزءً لا ينفصل عنه.

حتى جاء ذاك اليوم الذي دُعي فيه إلى الغناء في حفلة بالجامعة، وهناك رآها..انصرفت كل عواطفه تجاهها، ربما لأنها المرة الأولى التي يرى فتاة تجمع بين مستوى اجتماعي رفيع وبساطة شديدة في التعامل؛ ليس من باب التواضع وإنما هي طبيعتها الشخصية. وخلال أيام قليلة كان قد تعرف إليها، عن طريق إحدى صديقاتها المقربات، واندمج ببساطة بين مجموعة أصدقائها في الجامعة، وبين يوم وليلة أصبح "فنان الشلة" وأصبح من بينهن معجبات يحاولن الوصول إليه، ولكنه اختارها هي ليغني لها وحدها، ويزج باسمها في كلمات أشعاره بين الحين والآخر.اختارها بعقلِهِ

وقلبهِ سويًا، لتكون حبيبته وزوجته، وفي نفس الوقت يحتضنه والدها ويضع قدميه على أول طريق النجاح الذي يبغيه.

استطاع أن يقترب ويحقق نصف حلمه، ولكن النصف الآخر تحطم وتبعثر بقوة أمامه، حينما رفض والدها وأنهى حواره معه بعبارته التي نقشت بسكين في صدر أحلامه "اعتمد على نفسك واحمد ربنا إني وافقت عليك أساسًا".

والآن، ها قد بدأ الحلم يزحف من جديد إلى النور؛ ولكن لكل نجاح تضحياته وثمنه الذي يجب أن يُسدد أولًا!الآن، وجب عليه أن يختار: إما هي وإما أحلامه،التي ستتجسد أمامه أخيرًا بعد أن كانت مجرد أمنيات. فهل ننثر القلوب المحطمة لنُعَبِّد بها طرقنا المتهالكة!

توالت الأيام، وتراجعت الاتصالات الهاتفية بينهما، وانعدمت المقابلات.في كل مرة كان يعتذر بانشغاله..وأكثر من مرة تفكر وتبحث عن سبب إصراره على الابتعاد. ماذا فعلت؟ ولماذا كان حزينًا هكذا وهو يخبرها بموافقة شركة الإنتاج على بداية العمل معه وتحديد ميعاد توقيع أول عقد بينهما؟ أيكون حزينًا لفراقها؟ فلقد أخبرها أنه مضطر إلى ترك الاسكندرية والانتقال إلى القاهرة، ليكون بجوار عمله، ولأن نقطة بداية الانتشار الحقيقية هي القاهرة. كانت عيناه تقطرا ألمًا،وصافحها وكأنه يودعها إلى الأبد.

كان العام الدراسي قد شارف على الانتهاء، ولم يتبق سوى أسابيع قليلة على بداية اختبارات السنة النهائية لها في الجامعة،حين بدأت تشعر بتوتر غير طبيعي بمنزلها. الانفعال والعصبية والتوتر أصبحوا عنوان المنزل، فانزوت أكثر وزادت حيرتها.. هناك شيء ما يحدث!!

- 3 -

ثمة تعثُر ما يلوح في الأفق. ما يموج حولها ينطق بهذا. بدا الوجوم على والدتها، وبدت أكثر شرودًا وأقل مرحًا.. لم تعد تذهب إلى النادي الرياضي للمشي كل صباح.. لم تعد تحدث صديقاتها في الهاتف كثيرًا..امتنعت عن إقامة الحفلات بمنزلهم.أما والدها، فلم يعد يتكلم.. بات يصرخ ويهدر، كلما دخل غرفة مكتبه الخاصة. أختها "نشوى" منذ أن وضعت طفلها الأول وهي غائبة عن المشهد برمته،بينما زوجها "راغب" تراه كثيرًا في الآونة الأخيرة.

كانت قد انتهت من ارتداء ملابسها، ووقفت أمام مرآتها وهي تضع اللمسات الأخيرة قبل أن تغادر، وفي نفس الوقت تتحدث إلى إحدى صديقاتها في هاتفها النقال.لمحت في المرآة باب غرفتها يُفتح، وهي تضع عطرها المفضل في عجلة من أمرها.

ابتسمت بمرح وهي ترى "نشوى" تخطو داخل غرفتها حاملة طفلها الصغير، والذي لم يبلغ شهره الثاني بعد، بين يديها، فتوجهت إليها على الفور، وأخذت الطفل بنعومة فوق ذراعيها، وهي تداعبه بسبابتها بخفة، تلامس شفته السفلى الصغيرة، وتصدر أصواتًا مضحكة تلاطفه بها، منسجمة تمامًا معه. إلا أنها تذكرت موعدها مع صديقتها، والذي نسيته منذ لحظات عندما رأت هاتين العينين

البريئتين اللتين تتفتحان بالكاد، فأعادته إلى أختها وهي تتكلم بسرعة قائلة:

- معلش يا "نشوى" مضطرة أسيب القمر ده وأنزل، اتأخرت أوي على معادي.

وقبل أن تتحرك من مكانها، أوقفتها "نشوى" بردٍ أجبرها على التصلب مكانها، وكأنها تحجرت فجأة:

- يابرودك يا شيخة، ولا على بالك كل اللي احنا فيه !

التفتت "حبيبة" إليها برأسها متعجبة وهي تقول:

- في إيه يا "نشوى"، بتكلميني كده ليه؟

استدارت "نشوى" بجسدها كله، واتخذت موضعًا متحفزًا وهي تقول بشراسة:

- طبعًا.. مانتِ نايمة في العسل وماتعرفيش إن بابا خسر في آخر صفقة دخلها وبقينا كلنا مهددين بالإفلاس ؟!

حاولت "حبيبة" أن تستوعب تلك الكلمات،التي أُلقيت في وجهها دفعة واحدة، وهي تُكرر آخر كلمة طرقت سمعها بشدة:

- إفلاس!

طرقت " أمل" الخادمة الباب في تلك اللحظة، وهي تدلف بجزء من جسدها إلى الداخل قائلة بأدب:

- مدام"نشوى"،"فريدة" هانم عاوزه حضرتك بره.

احتقن وجه"نشوى"، ناهرة إياها بقوة:

- قلتلك مليون مره اسمي"نشوى" هانم، فاهمة؟!

أطرقت الخادمة برأسها في ذعر، وقد تشابكت حروف اعتذراها واختلطت بارتباك وخوف، حتى شعرت براحة يد "حبيبة" الدافئة توضع على كتفها قائلة:

- معلش يا" أمل" روحي انتِ دلوقتي.

لملمت "أمل" شتات نفسها وهي تتراجع للخلف، وخرجت متجهة إلى البهو، بينما انسحبت "حبيبة" خلفها من الغرفة في صمت، متوجهة إلى والدتها مباشرة بخطوات سريعة، و"نشوى" تلاحقها بخطوات أسرع وعينين يتطاير منهما الشرر والطفل يهتز بين يديها بشدة من فرط تحركاتها العصبية.

اقتربت "حبيبة" من والدتها،وانحنت لتضع قبلة صغيرة على وجنتها قبل مغادرتها، ولكن كلمات "نشوى" أوقفتها للمرة الثانية، ولكن هذه المرة لم تكن حادة فقط، بل كانت ذابحة:

- طب ماتنسيش بقى يا أم قلب حنين تكلمي حبيب القلب وتباركيله على الجواز

ظلت منحنية لثوان، وكأن الزمن قد توقف بها في تلك اللحظة.

لم تفق منها إلا عندما سألت والدتها"نشوى":

- جواز مين يا"نشوى"؟

خطت "نشوى" بهدوء تجاه أحد المقاعد الوثيرة،التي تتوسط حجرة المعيشة، وجلست مستقيمة الظهر، ثم قالت وهي تلتفت بينهما برأسها ببطء، وتزم شفتيها:

- "شادي" و"بثينة" هانم. كل المجلات الفنية ناشرة خبر جوازهم بالصور.

تجمدت ملامح "حبيبة" للحظات، إلى أن زحفت ابتسامة صغيرة إلى أحد جانبي ثغرها وهي تقول بعدم تصديق:

- مستحيل طبعًا !

عادت والدتها إلى استرخائها مرة أخرى، وهي تنفخ بقوة معقبة:

- أحسن، بلا قرف.

أنهت عبارتها وهي تلتفت إلى "حبيبة"، التي تركتهما وغادرت على الفور بصمت، ثم عادت مرة أخرى إلى "نشوى" بعينين قلقتين، فقالت "نشوى":

- دي أصلها متدلعة سيبك منها، خلينا في اللي إحنا فيه.مافيش جديد في كارثة الديون دي؟

أخذتها قدماها إلى حيث يعيش مع عمته المسنة، في ذلك المنزل القديم. تصارع بداخلها مشاعر التصديق، مقاومةً كل الأدلة التي تؤكد حديث أختها، وما لاحظته من تغيير كبير في تصرفاته في الآونة الأخيرة.

وبعد دقائق من عمر الزمن، وجدت نفسها تجلس في شرفة فسيحة، تطل على أحد الشوارع الجانبية بصحبة عمته،تفصل بينهما طاولة صغيرة، موضوعة عليها أدوات القهوة، وفنجانين قد امتلئا إلى المنتصف تقريبا، وتقص عليها ما سمعته متسائلة عن مدى صدقه. ولكنها لم تجد سوى نظرات حائرة بداخل عينين غائرتين تحيطهما أجفان متجعدة بفعل الزمن، وكلمات منفعلة مزجت بين الدهشة والضيق، قالتها عمته وهي تهندم وشاحها الأسود فوق كتفيها:

- لا يابنتي إوعي تصدقي الكلام ده، هو بيكلمني كل كام يوم يطمن عليا لو كان إتجوز كان قال لي.

لم تر أي أثر للاقتناع على وجه "حبيبة"،فمازال جبينها مقطب والحزن يلمع بعينها، فاستطردت قائلة:

- انتِ لسة مصدقة الكلام الفارغ ده؟

أشاحت "حبيبة" بوجهها وهي تجيب بخفوت:

- لو الكلام ده غلط، ليه مش بيرد على تليفوناتي المدة دي كلها؟

حاولت عمته أن تقطع الشك باليقين، فتناولت هاتفها النقال ومدت ذراعها به لها وهي تقول بثقة:

- طب أنا هاكلمه قدامك وأخليه يقول لك إن الكلام ده كله كدب، بس طلعيلي انتِ اسمه من هنا علشان التليفون ده خطه صغير أوي وأنا نظري بقى على قدي.

أخذت "حبيبة" الهاتف بتردد، وضغطت أزراره تبحث عن اسمه حتى وجدته. ألقت نظرة سريعة على الرقم أسفل الاسم، ورفعت حاجبيها بصدمة بالغة وهي تُتمتم:

- ياااه.. وكمان غير رقمه!

لم تسمع عمته تلك الهمهمات، فلقد كانت منشغلة بانتظار إجابة الرنين بحماس كبير، وأخيرًا أتاها صوت أنثوي يجيب بشكل روتيني، فقالت المرأة على الفور:

- إديني يا بنتي "شادي" ابن أخويا، قوليله عمتك.

أجابت السكرتيرة ببرود:

- آسفه يا فندم عنده تسجيل. حضرتك ممكن تكلميه بعد الساعه عشرة يكون خلص.

انفعلت المرأة أكثر وقالت بعصبية:

- تسجيل إيه وبتاع إيه، باقولك قوليله عمتك عاوزاك.

وقبل أن تنهي عبارتها، وجدت "حبيبة" تسحب منها الهاتف وتضعه على أذنها وتقول:

- طب من فضلك إديني عنوان الاستديو علشان عاوزينه في أمر ضروري.

دونت العنوان، وأغلقت الهاتف ووضعته على الطاولة أمام المرأة، وهي تتناول حقيبتها بحركة سريعة وتتحرك للخارج بصمت أنبأ العجوز أنها عازمة على السفر الآن، فقالت بجزع:

- رايحة فين يا "حبيبة"؟ هتسافري القاهرة لوحدك يا بنتي؟! ده المغرب قرب.

ولكنها لم تستمع إلى حرف مما قيل.

كانت هي الأخرى تسعى إلى قطع الشك باليقين، ولم تكن تكفيها محادثةً عبر الهاتف. كانت تريد المواجهة لتتأكد بنفسها، فربما يكذب عليها عبر الهاتف، ولكنه لن يستطيع الكذب وهي تنظر إليه مباشرة.

دون تفكير، خطت داخل محطة القطار، وحجزت مقعدًا في أول قطار متوجه إلى القاهرة، وجلست تنتظر. لم تشعر بالوقت، ولم تفكر في شيء سوى مواجهته، لتسأله سؤالًا واحدًا وهي تنظر إليه: لماذا؟

ها هو القطار يمضي بها إلى مدينة غريبة عنها، لم تسع إليها وحدها مطلقًا. ها هي الآن تجلس وحدها بداخل قطار يسرع بها، يسافر بها وحدها.. نعم كان هناك ركَّاب كثُر، ولكنها لم تر سوى الأعمدة المتلاحقة، والتي بدت تسابق القطار وتحاول تخطيه، ولكنها تفشل دومًا.

تنظر عبر النافذة التي تغبر زجاجها بأنفاسها الحارة إلى جانب الطريق الذي يلتهمه القطار سريعًا، وهي تستند برأسها إليه. وما إن أسدل الليل أستاره، وبدأت أعمدة الطريق تنير بقوة، حتى بدأ شريط الذكريات يتلاحق هو الآخر، كتلاحق تلك الأعمدة.

تذكرت حفلة الجامعة التي رأته فيها وأُعجبت بصوته الدافئ وإتقانه أداء الأغنيات القديمة التي تعشقها.. وفي يوم وليلة، كان قد تقرب منها وتعرف إليها أكثر وأكثر واندمج مع كل مجموعة تجلس إليها. كان يوجه أحاديثه وكلمات أغنياته واهتمامه إليها هي وحدها بشكل خاص، حتى لفت انتباه الجميع، وبدأت الفتيات تتحدثن بهمس إنه مُعجب ولهان. تذكرت اضطرابها وانصرافها من أمامه على الفور عندما صارحها بمشاعره، وظلت لأيام بعدها تسأل نفسها: هل أنا أيضا معجبة به، أم أنا فقط معجبة بصوته وطريقة أدائه لألحاني المفضلة؟

طاردتها همسات الفتيات من حولها، تلك الهمسات التي جعلتها تشعر أنها مُميزة لأنه اختارها هي من بين الجميع. لقد كانت تحتاج إلى هذا الشعور بشدة، الشعور بالاهتمام والتميز الذي تفتقده داخل عائلتها الصغيرة، فتركت لمشاعرها العنان معه، واستسلمت لرياح الحب القادمة من شماله إلى جنوبها المتجمد

دائما ببرودة المصلحة والحسابات الخاصة والصفقات الرابحة والحفلات الصاخبة.

بدأ رصيف وصول القطار إلى محطته المنشودة في الظهور، وعاد كل شيء يسير ببطء وعلى مهل. زحف القطار حتى توقف تمامًا واستقر، واستعد الجميع للمغادرة، كل إلى طريقه. وانسلخت هي من بين الجميع تشق طريقها، وهي تحمل الورقة التي دونت بها العنوان، وتنظر يمنة ويسرة تبحث عن وسيلة تُقلها إليه، حتى وجدت سيارة أجرة تنتظر بجوار الرصيف الخارجي للمحطة. أومأ السائق برأسه يؤكد لها أنه يعرف الطريق جيدًا، ورغم أنه على مسافة ليست بالقصيرة، إلا أنه سيقلها إليه أسرع من الريح.

وبدأت رحلة أخرى داخل المدينة المزدحمة والسيارات المتشابكة، حتى هدأ كل شيء رويدًا رويدًا، وانطلقت سيارة الأجرة أسرع مما كانت عليه بكثير، وبدأت بعض كثبان الرمال المنخفضة على جانبي الطريق في الظهور.

لم تكن تعي ما حولها، ولا أين هي ذاهبة. كانت شاردة، حتى توقف السائق بجوار مبنى كبيرحديث، تحيط الأضواء بالطابق الأسفل منه، وتقف أمامه بعض السيارات ذات الطرز الحديثة.التفتت مضطربة إلى السائق،الذي أنبأها بالوصول.

ترجلت من السيارة تتلفت باحثة عنه أو عن أيشيء يدل على وجوده،فرأته وهو يخرج من الاستوديو مُحيطًا كتفي "بثينة" بذراعه. معقول!.. هل هذا هو"شادي"؟!.. لقد تغيرت هيئته، حتى كادت أن تتغير ملامح وجهه!لكنه محتفظٌ بتلك الابتسامة الكبيرة التي تغزو وجهه بالكامل، كلما خطا خطوة جادة في طريق حلم عمره. إنه يكاد يطير فوق الأرض من فرط سعادته، وقد انتهى منذ قليل من

تسجيل آخر أغنية في أول شريط غنائي باسمه، سوف يُطرح في الأسواق بعد أيام قليلة، ليستعد بعدها لتصوير أول "فيديوكليب" في حياته الفنية.

وبرغم أنها لم تصدر جلبة لتلفت انتباهه، إلا أنه استطاع أن يميزها من بعيد. لم يكن من الصعب أن تلفت انتباهه الأُنثى الوحيدة التي تقف بعيدًاعن دائرة ضوئه والمجال اللامع المحيط به.ارتبك وقد التقت عيونهما، ولم يعرف ماذا يفعل، حتى شعر بقبضة "بثينة" تحيط بمرفقه وهي تقول بغضب:

- إيه اللي جابها هنا دي؟

يبدو أنه لم يكن الوحيد الذي لفت وجود "حبيبة" انتباهه فعينيّ "بثينة" رصدتها في الحال، وحددت موقعها، البعيد لدرجة القُرب الشديد. تلعثمت الكلمات على شفتيه، وتعثرت حروفه، وقبل أن يعثر على الكلمة المناسبة، شدت قبضتها على مرفقه مرة أخرى وهي تستطرد بانفعال:

- اتفضل روح انهي الحكاية دي بقى ومش عاوزة أشوف وشها تاني.

تقدم منها خطوات رتيبة، محاولًا إضفاء بعض الهيبة على قدومه، حتى يقطع عليها طريق الشجار أو التوبيخ. وما إن وقف أمامها، حتى انصهرت هالة البرود التي أحاط نفسه بها، ودمعت عيناه وهو ينظر إلى عينيها الدامعتين، وأطرق برأسه في خجل، ولم يسعه إلا الجلوس بمقعد الاعتراف وهو يتحدث باكيًاعن خطاياه، في دقائق معدودة لم يكن يمتلك غيرها..

- أنا آسف، سامحيني، أنا كنت أناني واخترت نفسي وفضلت حلمي عليكِ. عارف إنك صعب تسامحيني، بس على الأقل حاولي تلتمسي لي ولو عذر واحد.

لم تستطع أن تنتظر أكثر من هذا، وهي تراه يعزف لحن الندم على أوتار كلماته البائسة. قاطعته بحسم متسائلة:

- ليه؟

سقطت عبرة سريعة، مسحها سريعًا وهو يلتفت خلفه خوفًا وارتباكًا، ينظر إلى "بثينة" ثم يعود إليها بجسده كله قائلًا في عجلة:

- كان نفسي أحقق حلمي وماكنش قدامي طريق تاني و...

قاطعته مرة أخرى ولكن بحزم هذه المرة قائلة:

- ليه ماصارحتنيش؟ ليه ماتكلمتش بصراحة وقلت إنك مش قادر تكمل معايا؟ مش يمكن كنت وفرت على نفسك وعليا كل ده!

رفع عينيه إليها، مصدومًا من ثباتها وقوتها في الحديث، فبرغم عبراتها النازفة. إلا أن عباراتها صلدة قوية. كيف تقف هكذا، تلومه على عدم صراحته معها، ولا تلومه على تركه لها؟ هل نزل من نظرها حتى خرج من قلبها بهذه السرعة، أم لم يكن بقلبها من الأساس؟ خُيل إليه أنها اختفت وتبخرت من أمامه، بعد أن ألقت فوق رأسه كلمتها الأخيرة:

- ربنا يوفقك.

تيقن أنها انصرفت،عندما سمع صوت "بثينة" يلفحه من الخلف بسخرية:

- خلاص يا فنان ودعت حبيبة القلب؟

ابتلع ريقه بقوة وهو يتمتم محاولًا إخفاء دموعه:

- أنا كنت بقول...

جذبته باتجاه سيارتها مقاطعةً إياه، وهي تعانق أصابعه بين أصابعها برقة:

- مش مهم يا حبيبي كنت بتقول لها إيه، المهم إن حكايتك معاها خلصت خلاص.

حاول أن ينظر خلفه مرة أخرى، ولكنه لم يجرؤ على فعل هذا. فتح لها باب السيارة الخلفي، ورآها تجلس بأريحية تامة وهامة مرفوعة وابتسامة منحوتة،فأغلق الباب بهدوء، واستغل فرصة دورانه خلف السيارة،فألقى نظرة خاطفة لم تمكنه من تتبع أي أثر لها، وكأن الهواء قد حملها لينقلها إلى الإسكندرية مرة أخرى. فتح الباب الآخر، واستقل السيارة بابتسامة باهتة.

لم يستطع أن يمنع عقله من التفكير بها، ولا قلبه من الدعاء لها، فهي لم تكن مصدرًا لشقائه في يوم من الأيام،بل على العكس تمامًا،هو من دخل حياتها فجأة، وهو من انسلخ منها بلا وداع.

***

ها قد عاد عقلها إليها،ولكن ليفاجئها أنها تقف على طريق شبه خاوٍ، قلما ترى مصابيح سيارة تمر سريعًا عليه.الظلام يلف المكان،الذي هو صحراء لم يتم إعمارها وتنميتها بشكل كامل.أخذ عقلها يدور وهي تجاهد لمنع دموعها من الهطول، وتمسحها بعنف وقوة وهي تفكر كيف ستعود أدراجها في تلك الساعة من الليل، وبأي وسيلة، في هذا المكان الذي انقطعت منه الوسائل.

ها هو الليل وقد اقترب من منتصفه، ولكن حتى الآن لم يُعلن هاتفها عن أياتصال قلق من أهلها، ولا حتى رسالة تدعوها للاتصال بهم، وكأنهم لا يشعرون بغيابها ولا يتساءلون أين هي الآن وماذا تفعل ومع من؟!

ابتسمت حزينةًساخرةً من تساؤلاتها.. منذ متى وهم يقلقون بشأني أو يتساءلون أين أكون؟ منذ متى وأحد منهم يشعر بحضوري قبل غيابي؟!.. وها هو الشخص الوحيد الذي كان يهتم بي قد رحل هو الآخر، غير مبالٍ بما خلفه وراءه.

كان الألم شديدًا، ولكن صعوبة موقفها في تلك اللحظة كانت أشد، واحتل التفكير في كيفية عودتها وعيها بالكامل، ولم تترك رهبة المكان وصفير الرياح حولها مكانا بقلبها للحزن. خطت خطوات بطيئة وهي تلوح لإحدى السيارات القادمة، ربما رآها أحدهم ورأف بحالها وأقلها إلى طريق تستطيع أن تتخذه مسلكًا إلى محطة القطار.

صفير الرياح يلفها بشدة، ويثير خصلات شعرها ليبعثرها بقوة فوق جبينها وعلى كتفيها، وبرودة شديدة تدك أوصالها، وأصوات نباح قادمة من بعيد، تجبرها على احتضان جسدها بذراعيها بترقب وخوف، وهي تتلفت باحثة عن أي ملجأ لها.

وأخيرًا، بدت بارقة أمل في إحدى السيارات تقترب منها ببطء شديد، فابتلعت ريقها وهي تستعد لاستمالة عطف سائقها ليأخذها من هذا المكان الموحش. وما إن توقفت السيارة،حتى انحنت لتحدث سائقها وآخر يجلس بجواره،لم تُلق بالًا له ولا لنظراته المتفحصة لها وقالت باضطراب:

- لو سمحت ممكن توصلني لأي مكان فيه مواصلات؟ أنا أصلي مش من هنا، ممكن؟

تبادل صاحب السيارة نظرات مع الجالس بجواره، والذي قال على الفور بحماس وهو يفتح الباب ويخرج منه، ثم يفتح الباب الخلفي ويشير إليها قائلا بترحاب:

- آه طبعا يا حلوه إتفضلي إحنا تحت أمرك.

ابتسمت شاكرة وهي تجلس في المقعد الخلفي، ولكنها فوجئت به يدور حول السيارة، وبدلًا من أن يجلس بجوار السائق مجددًا، جلس بجوارها في الخلف.احتضنت حقيبتها إلى صدرها، وهي تضع يدها على مقبض الباب وتستعد لفتحه قائلة بخوف:

- في إيه؟

قبض على يدها، وسحبها إليه وهو يكممها باليد الأخرى ويشل حركتها تماما، فلم تستطع الصراخ أو المقاومة وهو يقول بعبث:

- إهدي كده يا حلوة خلينا نقضي وقت حلو مع بعض.

تشنجت عضلاتها، وشعرت أن قلبها سيتوقف في تلك اللحظة، وهي ترى السائق ينحرف عن الطريق ويدخل بهم في الصحراء مثيرًا خلف إطارات سيارته بعض الرمال،التي كانت تقف عليها ببراءة منذ لحظات،لا تعلم ما هو مُخبأ لها بعد لحظات!.

دقائق رهيبة مرت بها داخل السيارة بين يدي خاطفيها، وسيارتهما تقاوم الرمال محاولة السير بأقصى ما تستطيع، صرخاتها المكتومة فى راحة يد مهاجمها الجالس بجوارها، دموعها المنهمرة، مقاومتها الفاشلة،ثم توقفت السيارة وفُتحت أبوابها، وفُتح معها باب

الجحيم. شعرت بجسدها يُسحل خارج السيارة، ويُلقى به بين كثبان الرمال.. سقطت، ولا تعلم كيف نهضت من جديد، وبدأت بالركض.

لحقا بها سريعًا،وكبلها أحدهما للآخر، وصراخها يعلو وهي تتشنج وتقاوم باستماتة. وفجأة، لاحت من بعيد مصابيح قوية لسيارة قادمة، يصحبها صوت طلقات نارية، فدفعها أحد الرجلين بقوة، فارتطم رأسها بأحد الصخور البارزة من الأرض، وتداخلت الأصوات، ثم صمت كل شيء من حولها فجأة..

سكون، رؤية مشوشة لشخص يقترب منها وينزل على ركبتيه وينظر إليها عن قرب متفقدًا إياها، عاقدًا جبينه قلقًا ثم دهشة.. تحركت شفتاه بكلمات لم تسمعها، إذ دخلت في غيبوبة جديدة، غاصت فيها حتى الأعماق.

- 4 -

ها هو الضوء الأبيض قد عاد من جديد، ليضرب ناظريها.. ها هو جسدها يشعر مرة أخرى بالفراش الوثير الذي يسكن فوقه.. لماذا تكرهها تلك المدينة إلى هذا الحد؟ لماذا كلما عصفت بها الرياح إليها، آذتها وقذفت بها.. مرة في أعماق نيلها، ومرة أخرى بين أنياب ذئابها؟أرخت جفونها التي فشلت في فتحها، وحاولت أن تتحسس الضمادة التي تحيط برأسها وهي تشعر بهبوط يلفها.

وفجأة،انفرجا جفناها وفُتحت عينيها وهي تشهق بلوعة ورعب، وانتفضت تحاول الجلوس،وقد طرقت صور متقطعة للسويعات القليلة الماضية ذاكرتها بجنون.

- اوعي تعملي زي الأفلام وتقولي إنك فقدتِ الذاكرة.

التفتت إلى محدثها وهي تضيق عينيها ناظرة إليه، محاولة تبين ملامحه أكثر وأكثر، حتى اتضحت تمامًا أمامها. فركت عينيها، ثم حدقت في وجهه الباسم بدهشة بالغة.

عاينته سريعًا بنظرات مضطربة.. يا إلهي! إنه هو.. ملامحه الجذابة، بنيانه القوي.. هو نفسه مُنقذ المياه، هو مُنقذ الصحراء! ولكن كيف؟!، لقد كانت تعتقد أن ما رأته وهي تغرق مجرد وهم؛ فكيف يصبح الوهم حقيقة ويعود من جديد لينتشلها مرة أخرى؟ هل يتجسد الوهم إلى هذا الحد؟!

يبتسم، ويتحدث، وتسمعه بأذنيها..

- انتِ يا شاطرة.. هتفضلي تبحلقي فيا كده كتير.

جاهدت لتخرج صوتها بصعوبة، وكأنه عالق داخل حلقها، وقالت بارتياب:

- هو أنت بجد؟

نهض واقفًا بحركة مسرحية، وهو يلوح بذراعيه صائحًا بسخرية:

- أنا قلت بالكتير هتعملي فيها فاقدة الذاكرة لكن ماكنتش عامل في حسابي إنك هتطلعي هبلة.

فُتح الباب ودلف الطبيب بمعطفه الأبيض، واقترب من سريرها بخطوات رصينة وهو يقول مبتسمًا:

- حمدلله على السلامة يا آنسة.

وقبل أن تُجيبه، أردف مطمئنًا:

- ماتقلقيش؛ الحمد لله كابتن "حسام" أنقذك في الوقت المناسب.

نظرت إليه، فوجدته يعقد ذراعيه فوق صدره ويزم شفتيه، ثم يقول بغرور زائف:

- لالا مافيش داعي تشكريني ده واجب عليا.

رفعت حاجبيها ببلاهة، ثم عادت بناظريها إلى الطبيب،الذي تابع حديثه جادًا:

- إحنا أخدنا رقم والدك من تليفونك واتصلنا بيه.ارتاحي لحد ما يوصل.

ثم التفت إلى "حسام" وأشار إليه بسبابته محذرًا:

- أنا هامُر على كام حالة وأرجعلك تاني.. مش عاوز أي إزعاج للآنسة.

أومأ "حسام" برأسه:

- رغم إنك ظالمني بس حاضر يا "علي" مش هاعمل إزعاج.

يبدو أنهما صديقان، ويبدو أنه مشاغب من الدرجة الأولى. بمجرد أن خرج الطبيب من الغرفة، جلس على طرف الفراش في مواجهتها قائلا بشك وبنظرات ثاقبة:

- إيه اللي خلاكي تركبي معاهم العربية؟

نظرت إليه بغضب.. لأي شيء يلمِّح؟ لقد تجاوز كثيرًا،ولن تسمح له بالحديث معها بتلك الطريقة عقدت جبينها وانفرجت شفتاها.. ثم وجدت نفسها تقول بخفوت:

- أنا كنت عاوزه أروح المحطة علشان أرجع إسكندرية، وماكنتش لاقيه مواصلات خالص.

استند بظهره إلى الخلف وهو يقول معقبًا:

- كان معايا حق لما قلت عليكي هبلة.

حدقت به مرة أخرى، غير مصدقة الطريقة التي يتحدث بها إليها دون سابق معرفة. لم يبال بنظراتها المحدقة، واستطرد متسائلًا:

- وإيه بقى اللي جابك القاهرة لوحدك كده؟

انتفضت بغضب وهي تصيح:

- وانت مالك انت.. تعرفني منين علشان تقعد تحقق معايا؟

شعرت بصداع عنيف يهاجمها على إثر صياحها، فرفعت كفيها لتمسك برأسها بقوة، ولكن الألم قد ازداد حدة.سمعته يقول:

- طب أنا هاسيبك ترتاحي.

نهض واستدار ليخرج، وعندما اقترب من الباب استوقفته وهي تسأل بخفوت متألمة:

- هو أنت أنقذتني إزاي؟

استدار إليها بابتسامة غامضة، زادته جاذبية،وقال:

- صدفة!

ثم أردف وهو يفتح الباب بهدوء، ويمرر أصابعه فوق خصلات شعره المتمردة:

- أنا مش هامشي. أنا بره لحد ما والدك يجي.

اختفى خلف الباب المغلق بهدوء، فأغمضت عينيها بقوة وهي تستلقي ببطء وتزفر بقوة متمتمة بدهشة:

- مستحيل!

إنه حقيقي، ليس وهمًا.. ولكن مهلًا، هذا ليس وقته الآن؛ فهي تنتظر عاصفة الغضب التي ستأتي محملة بكل ماهو خانق، بصحبة والدها.كيف ستبرر أفعالها غير المسئولة أمامه، والتي كادت تودي بها إلى الهلاك؟

خفق قلبها قلقًا، وهي تستمع إلى دقات ساعة الحائط المعلقة أمامها، وكأن كل دقة فيها تنذرها بقدومه وبقرب العقاب. وأخيرًا، استسلمت للنوم العميق، بعد فشلها في إبقاء عينيها مفتوحتين.

ارتكن بظهره إلى الجدار، واستند برأسه إليه،يضغط جبينه بقوة من فرط الإرهاق والإجهاد الذي يشعر بهما، وهو يجيب صديقه الطبيب بحسم:

- يا"علي" مش هامشي غير لما أبوها يجي، ريح نفسك.

رفع"علي" حاجبيه، وارتسمت على شفتيه ابتسامة ماكرة معقبًا:

- يبقى زي ما أنا توقعت.. دي واحدة بقى من حريمك يا دنجوان.

التفت إليه بضجر قائلا:

- بلاش كلام فاضي، هو البعيد مابيعرفش يميز كمان؟

حك"علي" ذقنه بحيرة وهو يقول:

- أمال إيه بس.. تعرفها طيب؟

لم يستطع أن يمنع تلك الابتسامة الجذلة،التي ارتسمت رغمًا عنه فوق شفتيه وهو يتمتم:

- مش بالظبط.

زفر"علي" بقوة وهو يستعد للمغادرة:

- باقولك إيه..الحكاية مش ناقصة فوازير، أنا النبطشية بتاعتي خلصت والنهار طلع. هتيجي معايا ولا هتفضل هنا؟

ألقى "حسام" نظرة خلف كتفي"علي"، وهو يشير بعينيه إلى أحدهم خلفه ويقول بهدوء:

- تقريبًا اللي جاي ده أبوها !

لم يكن من الصعب تمييز رجل غاضب آتٍ من بعيد، يتلفت حوله وينظر إلى أرقام الغرف على الجانبين.وضع يده على كتف صديقه قائلًا:

- اسمع يا "علي" زي ما قلنا تحت في الاستعلامات، البنت جات هنا نتيجة حادثة سرقة؛ ماشي ؟

التفت إليه متعجبًا، وكاد أن يصيح، إلا أن "حسام" أشار إليه أن يخفض صوته، فقال:

- آه بس ده أبوها يا "حسام".

نظر له بحزم وقد دنا منهما الرجل الغاضب، ووقف وهو يوجه كلامه للطبيب متسائلًا بانفعال:

- أنا والد "حبيبة سليم"، حضرتك دكتور "علي" اللي كلمتني، مش كده؟

حاول "علي" أن يبدو واثقًا من حديثه وهو يقول:

- أيوه يا فندم أنا.

أومأ والدها برأسه بحركات عصبية وهو يعقد حاجبيه قائلا:

- ممكن أعرف إيه اللي حصل لها بالظبط؟

عدل علي من وضع نظارته الطبية، كمحاولة لبث الثقة في نفسه وهو يقول:

- الآنسةاتعرضت لحادثة سرقة وكابتن "حسام" أنقذها وجابها هنا المستشفى.

التفت والدها إلى "حسام"،الذي مد يده على الفور مصافحًا ومعرفًا بنفسه:

-"حسام الصياد" مُدرب لياقة بدنية.

تفحصه والدها لثوان وهو يصافحه، ثم قال بضيق:

- عملت محضر ولا حاجة يا أستاذ"حسام"؟

ارتفعت حواجبهما بدهشة بالغة؛ فلقد توقعا أن يسأل عن تفاصيل الحادث وما حدث لابنته وحالتها الصحّية الآن. قرأ ما يجول بخاطرهما في نظراتهما المتعجبة، فتنحنح وقال متحرجًا:

- أنارجل أعمال وسمعتي هي رأس مالي، والصحافة ما هتصدق علشان تكبر الموضوع.

نظرا إلى بعضهما البعض في صمت، فتابع على الفور موجهًا حديثه للطبيب:

- ينفع آخدها دلوقتي يا دكتور ؟

وقبل أن يجيب اندفع"حسام" مقاطعًا:

- الدكتور كان بيقول إنها المفروض تعمل أشعة النهارده علشان نتطمن.

نظر له "علي" بضجر واضح،وتركهما "سليم" ودلف سريعًا إلى الداخل. تكلم"علي" بغضب، ولكن بصوت خفيض قائلا:

- انت بتستهبل يا"حسام"؟ هتتدخل في شغلي كمان ؟

زفر"حسام" بقوة وهو يعود إلى حالته الأولى مستندًا إلى حائطه مغمض العينين، يجيش صدره بالكثير من المشاعر والتساؤلات.لكنه

لم يستطع أن يتجاهل تلك المعركة التي تدور في الداخل من طرف واحد!

أبعد قبضته عن مقبض الباب، يحاول أن يمنع نفسه من الدخول. ولكن صوت بكائها كان قويًا يجذبه إليها، كأنه يطلب منه الحماية ويدعوه للدخول بإلحاح. بكت بقوة وهي تجلس فوق فراشها وتضع كفيها فوق وجهها بؤسًا وألمًا، تُخفي عينيها المنكسرتين وهي تستمع إلى إهانات والدها المتتالية كرماح تخترق صدرها..

- جايه تجري وراه بعد ما سابك وفسخ الخطوبة ورماكِ؟انتِ إيه ما عندكيش دم؟ ما عندكيش إحساس؟.. عارفة لو كانت الحادثة دي وصلت للصحافة كان هيحصل إيه؟.. عاوزه تفضحينا يا "حبيبة"؟

ودت لو صرخت لتخرج ما يعتمل في صدرها.. لم تأتِ لتسترجعه، وإنما لتواجهه وتتأكد من الخبر بنفسها، وتعرف لماذا لم يواجهها وينفصلا باحترام ورُقي.

نعم أخطأتْ، ولكنها عوقبت وبشدة.تكفي لحظات الرعب التي مرت بها في الصحراء بين يدي خاطفيها. تحتاج إلى الاحتضان والشعور بالأمان بين ذراعي والدها، لا إلى كلمات مميتة تخنقها وتجرحها وتنزع عنها كرامتها، لتبقيها في العراء تُسحق عظامها بداخل رحى الحياة، بلا مأوى حقيقي تلتجئ إليه وتحتمي فيه.

- هنرجع إسكندرية دلوقتي، ومن هنا ورايح مافيش خروج من البيت إلا لما تعرفي تحافظي على اسم عيلتك.. إحنا مش ناقصين بلاوي كفاية الخسارة اللي نازلة ترف على دماغنا.

شعر بمن يضع يديه على كتفيه من الخلف مهدئًا:

- اهدا شوية يا فندم الدكتور، بيقول الانفعال خطر عليها دلوقتي.

تركها، والتفت إلى "حسام"،الذي كان يقف خلفه،ويقف "علي" بجواره كتلميذ مطيع تلقى تعليمات فورية من أستاذه وحان وقت إلقائها، فقال:

- كده خطر عليها يا فندم، إحنا لسه ماالتطمناش على المخ. وبعدين المستشفى هنا تفهمت الأمر ووافقوا إن مافيش محاضر تتعمل علشان حالتها كويسة، لكن لو حصل مضاعفات ممكن يغيروا رأيهم.

زفر والدها بقوة وهو يبتعد عنها، ثم أخرج هاتفه وتحدث إلى والدتها منفعلا وهو يقص عليها ما حدث، ثم مد يده إليها بالهاتف دون أن ينظر إليها. وضعت الهاتف على أذنها بارتجاف، فسألت والدتها عن حالها باقتضاب، ثم أردفت وهي تنهي المحادثة:

- لينا كلام تاني لما ترجعي.

تنحى والدها جانبًا بعد أن تناول الهاتف، ليستكمل حديثه إلى والدتها مرة أخرى.كانت ترتجف كالعصفور المبلل بماء المطر، فاقترب"حسام" منها وقال بخفوت:

- والدك عارف إنها حادثة سرقة.

التفتت إليه بعينيها المغطاة بالدمع.. كانت تود أن تشكره ولكنه قطع عليها الطريق وتابع بخفوت وهو ينظر إليها بإشفاق:

- ماتخافيش كل حاجة هتبقى كويسة.. خليكي أقوى من كده.

أطرقت برأسها أرضًا وهي تبحث عن كلمات تشكره بها، ولكن حروفها تعثرت كعادتها وخذلتها، فأطبقت شفتيها بقوة، وتركت لدمعها العنان لعله يخبره بدلًا عنها.

***

في طريق العودة إلى الإسكندرية كانت مخذولة، تكفكف دمعها وهي تستمع إلى سيل الكلمات الحارقة التي تسيل من فم والدها بلا توقف، حتى أنقذها هاتفه من شذره المتطاير، وانشغل بمحدثه طويلًا وتركها تستند إلى ظهر مقعدها في السيارة بجواره وتلتفت إلى الطريق وكثبان رماله المتلاحقة.

أغلقت عينيها حزنًا، وللعجب، وجدت ابتسامة صغيرة ترتسم على شفتيها وتغزوها رغمًا عنها، عندما تذكرت آخرعبارة همس بها بهدوء بالقرب منها، قبل أن ترحل بصحبة والدها: "معلش بقى تليفوني كان ضايع فاضطريت أرن عليه من موبايلك. لو لقيتي رقم غريب في سجل المكالمات عندك إعرفي إنه رقمي".

زحفت أصابعها بعفوية داخل حقيبتها الموضوعة على قدميها، وتلمست بداخلها كرة كريستالية صغيرة، وتذكرته وهو يعلقها بسلسلة مفاتيحها الخاصة دون أن ينتظر إذنًا منها قائلًا "مش عاوزك تشكريني عاوزك تقبلي الهدية البسيطة دي". وعندما نظرت إليها بتردد في قبضته، وهو يمد يده بها، وضعها بداخل راحتها وتابع: "دي تذكار بسيط يفكرك بيا..أقولك.. اعتبريها مراية كل ما تحبي تشوفي حبيبة من جوة بصي فيها". حاولت أن تتذكر الاسم الغريب الذي أطلقه على هديته تلك، ولكنه تبخر من رأسها تمامًا.

يبدو أن صديقه الطبيب كان محقًا..إنه مشاغب، بل ومزعج. ولكن خلفه سرًا ما، وإن لم يكن لديها حاجه ملحة في معرفته الآن؛ فليبق السر سرًا .

- 5 -

أمام ضراوة صفعات الدنيا، لا نتألم كثيرًا من صفعات كفوف المقربين، إنما هي فقط تجعلنا نرتد إلى الخلف مبتعدين، في الوقت الذي نتمنى فيه الاقتراب منهم أكثر، نتمنى لو نرتمي في أحضانهم، تحتوينا صدورهم وقلوبهم وهمساتهم الداعمة. لذلك، لم تؤلمها الصفعة التي هوت ببعض الضعف مرتطمة بوجنتها، بل ما آلمها حقًا أنها لم تجد متسعًا لها في حضن والدتها. ترقرق الدمع بعينيها وهي ترى خيوط الغضب منسدلة من عيني أمها، وهي تجذب حقيبتها المعلقة بيدها بقوة، وتفتحها لتتناول هاتفها المحمول وتشد عليه قبضتها صائحة بغضب:

- لا دخول ولا خروج ولا حتى تليفونك هيفضل معاكي.. أنا عمري ما كنت أتصور إن بنتي أنا.. بنت "فريدة" هانم، تروح تجري ورا صعلوك زي ده.. اتفضلي على أوضتك مش عاوزه أشوف وشك.

أخفت وجهها خلف راحتيها، وهي تسرع نحو غرفتها بخطوات تقترب إلى الركض، لا تعلم هل تخفي دمعها أم تتأكد أنها قد صُفعت بالفعل. آوت إلى غرفتها وأسرعت إلى فراشها.. أغمضت عينيها وهي تبلل شفتيها بحرقة وألم، تشعر بأنها تغلق عينيها على أشواك تنغزها بين جفنيها بلا توقف، وآلام عظامها تنخر مفاصلها بقوة طالبة بعض الراحة والسكينة بعد كل ما مرت به. ولم لا؟ قد

يكون النوم أفضل سُبل الهرب المريحة لذلك القلب المنهك والجسد المتهالك،الذي كاد أن ينتهك .

***

كادت أن تصبح في عزلة تامة، لولا أن أسرعت بها الأيام واقتربت مواعيد اختبارات الجامعة، فبدأت تتواصل مع إحدى صديقاتها المقربات عن طريق الهاتف الأرضي،وانغمست بين دفَّات كُتبها، خائضة في مضمارها، واضعة كرة الكريستال أمامها دومًا، تنظر إليها بابتسامة من حين لآخر، فتنعكس صورتها فوقها، متناسية ما حدث لها في تلك المدينة القاهرة لها، وما تبعها بعد ذلك في الإسكندرية ممن حولها، في محاولة لأن تطوي ذكرياتها طيًا غير مزعج، لا يترك خلفه آثارًا واضحة على شخصيتها،التي تميل إلى البساطة والتصالح مع الذات ومع من حولها. ولقد ساعدتها ذاكرتها سريعة النسيان على ذلك، معلقة سلسلة مفاتيحها دومًا بسبابتها، لتجعلها متدلية بداخل راحتها،التي كلما لامست هديته الصغيرة تقبض عليها كمن يتحسس سلاحه كلما شعُر بالخطر.

في نهاية آخر أيام الاختبارات، وقفت بصحبة صديقتها وقد استندت إلى سيارتها الحمراء وقالت بسعادة:

- مش مصدقة إننا خلصنا امتحانات.

رفعت "حبيبة" نظارتها الشمسية وهي تلتفت إليها مصححةً:

- قصدك خلصنا الكلية خلاص.

فرقعت صديقتها بإصبعيها وهي تقول بمرح:

- وبالمناسبة الحلوة دي هافسحك فسحة النهارده عمرك ما حلمتي بيها.

أنهت عبارتها وهي تفتح حقيبتها مستطردة:

- هي فلوس أبوكي دي مش هتخلي عندها دم وتجيبلك عربية؟ يالا اركبي على ما أشوف مين بيتصل.

مطت"حبيبة" شفتيها بعدم رضا، وهي تلوح بيدها بضجر قائلة:

- قلتلك قبل كده مليون مره مابحبش السواقة.. أعصابي خفيفة. وبعدين مالها يعني التاكسيات؟

أشارت إلى"حبيبة" وهي تقول بدهشة:

- إستني دي مامتك. هو انتِ موبايلك مش معاكي برضه!

زاغت نظراتهالا تعلم بماذا تجيب،فصمتت وهي تستمع إلى صديقتها تحدث والدتها لثوان، ثم تناولت الهاتف من يدها ووضعته على أذنها بارتباك قائلة:

- أيوة يا ماما..

صمتت قليلًا تستمع إلى كلام والدتها، وما بين حاجبيها يضيق أكثر فأكثر،ثم قالت بخفوت حائرة:

- فجأة كدة.. طب ليه؟

لم تجبها والدتها إجابة شافية، فأومات برأسها بدهشة واضطراب وهي تقول:

- حاضر يا ماما ربع ساعة وهاكون عندك.

أنهت الحديث مع والدتها، ومدت يدها بالهاتف إلى صديقتها وهي تنازع الحيرة والدهشة قائلة ببطء:

- ماما عاوزاني حالًا يا" ندى".

مطت" ندى" شفتيها قائلة:

- ليه في حاجة؟

نظرت لها نظرة طويلة حائرة، ثم قالت غير مصدقة:

- فجأة كدة قرروا إننا نسيب إسكندرية!

***

عادت إلى منزلها لتجمع أشياءها، وهي لا تعلم ماذا تفعل. فبرغم أن تلك الغرفة شاهدة على ذكريات أليمة، إلا أنها تعني الكثير لها، ففيها عاشت أحلامها بمستقبلها، وهذا المكتب الصغير الذي كانت تجلس خلفه تدون الأحداث الغريبة التي تمر بها، والمشاعر غير المفهومة التي تشعر بها أحيانًا. كانت تود لو تحمل معها تلك الغرفة الوردية بكل تفاصيلها إلى القاهرة، فكل زاوية فيها شاهدة على أيامها. ولكن منذ متى وأحد يستجيب لطلباتها أو يشعر بما تحتاجه؟

تذكرت حديثها الواهي مع صديقتها " ندى" منذ قليل عن السيارة. إنه نفس المبرر الذي تقوله للجميع عندما يسألونها لماذا لا تمتلك واحدة، وهي من هي.بالفعل ليس لديها قوة أعصاب تؤهلها للقيادة، ولكن ليس هذا هو السبب الوحيد.

وقفت في منتصف الغرفة حائرة، تنظر إلى الدُمى المتراكمة فوق فراشها. إنها جميعًا مفضلة لديها، فلكل دُمية منهم ذكرى جميلة مع

إحدى صديقاتها في مناسبات مختلفة. حاولت كبح جماح رغبتها في جمع المزيد منها، فأوامر والدتها كانت محددة وواضحة، والتوتر والعصبية هما السائدان بين أرجاء المنزل.

لم تتبين الكثير عن الأسباب لهذه النقلة الكبيرة غير المتوقعة على الإطلاق؛ ولكنها علمت أهم سببًا رئيسيًا لما يحدث.. إنها تلك الأزمة المالية التي عصفت بأركان عمل أبيها وهزت سمعته كرجل أعمال بارز، وبدأت الديون تلاحقه يومًا بعد الآخر، هو وزوج ابنته وشريكه في كل شيء، مما اضطره إلى اللجوء إلى مكان آخر يستطيع فيه أن يتوازن من جديد ويرمم تلك الصدوع، كما نصحه الكثير من أصدقائه في القاهرة، بل وعرضوا عليه فتح آفاق جديدة له هناك بجوارهم. ولحسن الحظ،فهو يمتلك هناك بيتًا جيدًا في مكان راقٍ، جمع عائلته بالكامل ورحل إليه.

عادت إلى القاهرة للمرة الثالثة، وقلبها يرجف. ياترى ماذا تخبئين لي هذه المرة أيتها الظالمة؟ تركت مدينتي وذكرياتي وأحب الأماكن إلى قلبي وأتيتك وأنتِ التي شاهدت فيكِ ما شاهدت، وكرهت فيكِ ما كرهت.

إنها نفس الأعمدة المتلاحقة، نفس الصحراء وكثبان الرمال المتطايرة.. إنه نفس الطريق الذي سقيته من قبل بدموعي ذهابًا، وعدتُ منه بنصف قلب ونصف عقل، وحلم تجسد أمامي وأصبح حقيقة؛ فإلى أين تأخذينني هذه المرة؟!.

مرت السيارة بمطب صناعي، فارتجت قليلًا في جلستها ودارت الكريستالة دورة كاملة في طريقها إلى مغادرة راحتها، فقبضت عليها على الفوروضمت يدها إلى صدرها، فهمست تسألها "سلمى" التي كانت تجلس بجوارها:

- مالك يا "حبيبة"؟

حركت رأسها مطمئنةً إياها وهي تقول بهمس شارد:

- مافيش.

ربما تكون قد أحبت هذا المنزل الجديد عليها، وربما كانت ستحبه أكثر لو لم يكن يقبع في تلك المدينة التي لا تنام. المنزل مكون من ثلاثة طوابق، تحيطه حديقة من ثلاث جهات، جهز الطابق الأول للشركة الجديدة التي سيعيد من خلالها والدها أمجاده وثروته، والثاني لـ"نشوى" و"راغب"، أما الطابق الثالث فستقطن فيه مع والدتها ووالدها وأختها الصغرى "سلمى"،التي حصلت على التقدير التي كانت تتمناه وتحلم به في المرحلة الثانوية،فلم يكن يشغلها كثيرًا أمر انتقالهم إلى القاهرة، بل كل ما يشغلها هو كلية "صيدلة" وفقط، فلقد حققت حلمها بالالتحاق بها، ولا يعنيها بعد ذلك أي شيء.

***

" الرقم الذي طلبته ربما يكون مغلقًا أو غير متاح"

زفر بقوة، وهو يطرق بأصابعه في ضيق شديد على سطح الطاولة،التي يستند إليها بمرفقيه. كانت تلك إحدى محاولاته الفاشلة في الاتصال بها طوال الشهور الماضية، لا يعلم هل قررت أن تغلق هاتفها أو استبدلت شريحتها بأخرى. لماذا حرمته من التواصل معها، هل ظنت به سوءًا أم قررت هجر الرجال جميعًا؟ لو كان بيده، لما انتظر كل هذه المدة بعيدًا عنها، إلا أنه اضطر إلى السفر لاستكمال مشروعه الخاص، مصطحبًا معه طيفًا يمر به كلما

شرد بعيدًا،وصورة لها كان قد رسمها بيده منذ عام تقريبًا.. منذ أول لقاء لهما، تحت سطح الماء!

أرسل تنهيدة حارة وهو يضع الهاتف فوق الطاولة متمتمًا بحيرة:

- برضه مغلق!

شعر بمن وضع يده على كتفه من الخلف ممازحًا:

- هو مين ده اللي مغلق؟

التفت "حسام" إلى مُحدثه بضجر واضح قائلًا:

- مالكش دعوة يا عم "خالد".

اقتربت منهما برزانة ووقار، وجذبت أحد المقاعد حول الطاولة لتجلس ببطء وهي تقول باستنكار شديد:

- كل اللي يسألك تقول له مالكش دعوة حتى " خالد " كمان.. لا ده انت حالتك بقت صعبة أوي يا "حسام".

جلس "خالد" وهو يقول بشغف:

- إيه ده.. ده الموضوع بجد بقى.. يعني عمتو ليها حق تشتكيلي منك!

نظر "حسام" إليه وعقب مستنكرًا:

- بقى في راجل يقول عمتو، سبت إيه للبنات؟

ضحك "خالد" بجذل وقال وهو يلوح بيديه:

- انت فاكرني شوارعي زيك ولا إيه يا فان دام؟

زفر للمرة الثانية وهو يضرب راحته بقبضته الأخرى، موجهًا حديثه إلى والدته:

- عاجبك كده؟مالقتيش غير الهايف ده وتشتكيني ليه؟

أسندت ذقنها إلى قبضتها وهي تنظر إليه متفحصة:

- أعمل لك إيه حالك مش عاجبني من ساعة ما رجعت من السفر وبدأت مشروع الجيم بتاعك..وبعدين ده ابن خالك وصاحبك هو أنا اشتكيتك لحد غريب؟

تناول"خالد" الهاتف من أمام"حسام"، وأخذ يبحث فيه بفضول وهو يقول:

- ولا اشتكيتك ليا ولا حاجة يا وَحش.. عمتو بس شايفاك بالك مشغول وعاوزه تطمن عليك مش أكتر.

جذب "حسام" الهاتف، وتناول سلسلة مفاتيحه، ونهض وهو يلقي عبارته الأخيرة قبل أن يغادر:

- ولا بالي مشغول ولا حاجة،اتطمنوا.. أنا رايح الجيم.

استوقفه"خالد" قائلًا بضيق:

- كمان ناسي معادنا النهارده؟

عقد "حسام" بين حاجبيه محاولًا التذكر، فزفر "خالد" وقال حانقًا:

- هو أنا مش قلتلك إني معجب بواحدة وحددت معاد مع أهلها علشان أتقدملها؟

ابتسم"حسام" ساخرًا وقال:

- وأنا هافتكر مين ولا مين ما أنت كل يوم تطلعلنا في الموال ده مع كل واحدة شوية وفي الآخر بتفركش.

تدخلت والدته في الحديث قائلة بثقة:

- لا المرة دي شكله مصمم بجد.

هز رأسه يمنة ويسرة متعجبًا، وقال وهو يقطع الممر إلى باب الشقة:

- يا ماما هو انتِ مابتحرميش؟ كل مره يضحك عليكي كده وبعدين ترجعي تقولي مش هادخل له في حاجه تاني وبرضه بتدخلي، مافيش فايدة.

خرج وتركهما، وقبل أن يغلق الباب خلفه وجد "خالد" يتمسك بمقبض الباب من الداخل ليبقه مفتوحا، واشرأب برأسه للخارج وهو يغمز بإحدى عينيه بمكر:

- مين دي اللي شغلت "حسام الصياد" بجلالة قدره للدرجة دي؟

ابتسم "حسام" ابتسامة واسعة، قطعها سريعًا وهو يدفع رأس "خالد" للداخل قائلا:

- يا أخي ده إنت غتيت أوي.

أغلق الباب، وانطلق وقد عزم على قطع تلك المسافات اللعينة التي تفصل مدينتيهما عن بعضهما البعض، بينما عاد "خالد" في الداخل حيث كانت تنتظره عمته بحيرة بالغة. وما إن اقترب منها حتى نهضت قائلة:

- مش قلتلك يا"خالد" حاله عجيب اليومين دول؟

جلس "خالد" مرة أخرى، وتناول ثمرة تفاح من على الطاولة وقضم قطعة منها وهو يقول ببساطة:

- بكره هاعرفلك ماله بالظبط يا عمتو، مش هيقدر يخبي عني كتير ما انتِ عارفة أنا كاتم أسراره اتطمني.. المهم بس ياله استعدي معادنا مع الناس قرب.

رفعت حاجبيها باستنكار وهي تنظر إليه وهو يأكل، ثم قالت معترضة:

- أنا مش قلت قبل كده التفاح يتقطع بالسكينة.. بتاكل كده ليه؟

ضحك بشدة، بينما توجهت هي إلى الداخل قائلة بتقزز:

- أنت و"حسام" هتجيبولي الضغط.

لم يستطع أن يتوقف عن الضحك، بعد أن رأى التقزز على وجهها، ثم انتقل إلى غرفة المعيشة وجلس يشاهد التلفاز،وما هي إلا لحظات ووجدها تخرج منفعلة بشدة، ممسكة بهاتفها وتصيح بغضب:

- شايف عمايله يا " خالد " باعتلي رسالة، حاولت أتصل بيه بعدها لقيته قفل تليفونه.

اعتدل "خالد" باهتمام وقال متسائلًا:

- رسالة إيه؟

- بيقول مسافر إسكندرية يومين!

***

قضى نحو أسبوعين بالإسكندرية، في رحلة تقصي وجمع معلومات بشكل متواصل، حتى استطاع أن يجمع ما كان كافيًا جدًا لإسعاده، فلقد جاء ينوي حرق تلك المسافات التي تفصلهما، ولكنه تفاجأ بأنها هي من سبقته وانتقلت إلى القاهرة منذ أسابيع قليلة، واستقرت بها. لقد ذابت المسافات تلقائيا إذن، ولم يبق إلا القليل الذي سيذيبه بطريقته الخاصة!

قطع الطريق مرة أخرى عائدًا من حيث جاء، يجاهد عقله في محاولة غير جادة للسيطرة على مشاعره وتقييد أفكاره الهاربة إليها، تاركة المساحة الكافية لفؤاده أن يبعثه أينما شاء، ويعيده متى أراد، مما جعله يعبث ببعض الاسطوانات المدمجة أمامه، واختار المسجل عليها بعض الأشعار المسموعة لنزار قباني، وبصوته فقط.

ابتسامة منتشية تحمل الكثير من النشوة واللهفة لاحت فوق شفتيه وهو يستمع إلى الكلمات،التي تنطق بما يجيش بصدره، وظل يتمتم خلفه مرددًا:

أشكوكِ للسماء..

كيف استطعتِ أن تختصري جميع ما في الأرض من نساء

أنا عنكِ ما أخبرتهم.. لكنهم لمحوكِ تغتسلين في أحداقي

أنا عنكِ ما كلمتهم.. لكنهم قرأوكِ في حبري وفي أوراقي

للحب رائحةٌ.. وليس بوسعها ألَّا تفوح مزارع الدُّراقِ

رغم توقف الأسطوانة،لم تتوقف شفتاه عن الابتسام معظم الطريق، حتى قطع ابتسامته ارتفاع رنين هاتفه. نظر للهاتف وشاشته المضيئة باسم"خالد" وأجابه بسعادة واضحة:

-"خالود" عامل إيه؟

التفت "خالد" إلى عمته بجواره في السيارة متعجبًا، ثم قال مازحًا:

- معلش يا فندم تقريبًا الرقم غلط. أصل اللي كنا عاوزين نكلمه واحد كئيب كده أعوذ بالله منه.

ضحك "حسام" ضحكات رنانة،سمعتها والدته الجالسة بجوار "خالد"، فابتسمت رغمًا عنها، بينما أردف"خالد" متسائلًا:

- أنت فين يابني؟ أخيرًا حنيت عليا ورديت؟

تنفس بقوة يملأ رئتيه بالهواء العابث بوجهه وبخصلاته، ثم قال:

- أنا راجع القاهرة انتم فين دلوقتي؟

ابتسم"خالد" بمرح:

- يادوب لسه واصلين تحت بيت خطيبتي، وقلنا نكلمك قبل ما نطلع.

رفع"حسام" حاجبيه وأجاب بدهشة بالغة:

- يا راجل! لحقت تبقى خطيبتك؟

مرر"خالد" أصابعه بين خصلات شعره وقال بغرور:

- طبعا يابني هو أنا حد يقدر يقول لي لاء؟

ثم تابع بقلق:

- المشكلة بس إنها لسه ماوافقتش، رغم إن أهلها موافقين جدا وقلت أروح النهارده أقعد معاها وأحاول أقنعها.

قال"حسام" ساخرًا:

- يعني العروسة لسه ماوافقتش وتقول خطيبتي! طب روح العب بعيد بقى.

عقد"خالد" حاجبيه، وقال وهو يترجل من السيارة ويدور حولها، ليفتح الباب لعمته وهو يقول بثقة:

- هتوافق.. هي هتروح مني فين. المهم بقى شد حيلك عاوزين نتجوز في يوم واحد، ولا السفرية دي راحت عليك أونطة؟

قال"حسام" بتفكير:

- لاا!.. أونطة إيه، خلاص كلها خطوة واحدة وهتسمع أخبار حلوة أوي.

جذبته عمته من ذراعه إلى الداخل، وأخذت الهاتف من يده ووضعته على أذنها وهي تقول على عجلة من أمرها:

- حمد لله على سلامتك يا حبيبي. لما تروح البيت ابقى طمنا انك وصلت.هاقفل دلوقتي، طالعين عند الناس.

أغلق الهاتف وواصل الطريق إلى منزله، صعد الدرج الكبير المؤدي إلى بوابة العقار من الخارج، وهو يبتسم لكل من يقابله، ابتداءً من حُراس العقار، مرورًا بالخادمة التي كادت أن تصطدم به على السُلم،الذي كان يسابق درجاته صعودًا، فهو –كعادته - لا يستقل المصعد إلا قليلًا، إلى أن استقر به المقام بداخل شقته. ألقى التحية على خادمتهم المنشغلة بأعمالها، ثم توجه إلى غرفته، فتح الخزانة الخاصة به، وأخرج صورتها المرسومة بيده، وجعل ينظر إلى

الصورة ويبتسم، تتراءى له فرحة مرتقبة، ثم تذكر كلمات والدته وهي توصيه بالاتصال بهما فور وصوله.

أضاءت شاشة الهاتف الخاص بـ"خالد" باسم "حسام" وصورته الشخصية، وقد كان موضوعًا على الطاولة الصغيرة أمامهما، وهو جالس على مقربة من فتاته، التي لم تتفوه بكلمة سوى بأنها غير مستعدة الآن للزواج أو الارتباط، ثم صمتت وكأنها تخبره رفضها بشكل لائق بهذا الصمت. التقط "خالد" الهاتف الذي تعلق نظرها به، وأجاب وهو ينظر إليها معتذرًا، تحدث إليه بكلمات مختصرة، ثم عاد إليها ملتفًا بجسده كله وهو يقول:

- آسف على المقاطعة.. كنا بنقول إيه؟

ابتلعت ريقها بصعوبة،ولم يلحظ هو اصفرار وجهها شحوبًا، بعد أن التقطت عيناها الصورة والاسم اللذين أضاءت بهما شاشة هاتفه، وقالت بارتباك:

- لا أبدًا مافيش حاجة.. كنت كمل كلام عادي مع صاحبك.

وجدها فرصة سانحة ليخرجها عن صمتها، وقال ببساطة:

- لاده راجل مبسوط بقى وبيحب، وماكنش هيبطل رغي.

صمتت مرة أخرى ولم تجبه، فقال وهو يحاول أن يختلق أي حديث بينهما:

- أهو صاحبى ده مأجل معاد جوازه بسببنا. يرضيكي يعني كده؟

رفعت رأسها إليه مقاومة غصة اختنق بها حلقها متسائلة:

- هو هيتجوز قريب؟

أجاب على الفور:

- آه طبعا.. بيحب وغرقان لشوشته بس مش عاوز يحدد معاد جوازه إلا لما إحنا نحدد الأول.

نهضت واقفة شاحبة الوجه مضطربة، فانفلتت مدلة عشقها من سبابتها وسقطت فوق الأرض الرخامية.انحنت نحوها على الفور ملتقطة إياها، واعتدلت وهي تضعها في راحتها،مقطبة جبينها وهي تنظر إلى ذاك الشرخ الصغير،الذي رسم خطا لليسار قليلًا. كان "خالد" قد نهض بدوره وهو ينظر إلى الكريستالة بيدها، ملاحظًا احمرار عينيها الذي ينبئ عن دموع قادمة في الطريق، فقال محاولًا التخفيف عنها:

- ولا يهمك، بكره يكون عندك أحسن منها.

صمتت وعيناها مثبتتان براحتها، فحاول أن يضفي بعض المرح،ويعود إلى حديثهما السابق، فتابع بإصرار:

- أنا مش عارف انتِ مترددة ليه، إديني فرصة وأوعدك إنك مش هتندمي يا"حبيبة"!

- 6 -

طرقات منغمة على باب غرفته من الخارج، جعلته يبتسم ويهتف بسأم مصطنع:

- ادخل يا رخم.

فُتح الباب، ودلف "خالد" إلى الداخل برأسه فقط مداعبًا:

- سالخير.

تبسم "حسام" ضاحكًا وهو يعتدل فوق فراشه جالسًا، ويشير إليه بالدخول قائلًا:

- سالنور يا لذيذ.. تعال.

أغلق "خالد" الباب خلفه، وصاح مرحًا وهو يفتح ذراعيه عن آخرهما:

- وأخيرًا العاشق الولهان هيعترف.

عاد بظهره إلى الوراء، واستلقى بهدوء وأمسك وسادته،التي يحب أن يضعها دائما فوق رأسه أثناء نومه، وقال محذرًا:

- لو ماتكلمتش على طول هاسيبك وأنام.

اقترب "خالد" وجلس بجواره بطرف الفراش، وهو يحرك رأسه متعجبًا:

- من إمتى بتخبي عليا يا "حسام" .. قال وأنا اللي جاي أفرحك.

اعتدل مرة أخرى جالسًا وقال وهو يشير بسبابته متسائلًا:

- اوعى تقول العروسة وافقت عليك؟

هندم "خالد" ملابسه بغرور وهو يقول:

- طبعا وافقت هي كانت تقدر ترفض؟ هو أنا شوية في البلد ولا إيه؟

ثم ضرب جبينه بحماس مردفًا:

- أيوووه يا جدع.

رفع "حسام" حاجبية معقبًا في سرعة:

- إيه ده؟ هي العروسة إسكندرانية برضه؟

التفت إليه "خالد" بجسده كله دفعة واحدة صائحًا:

- وقعت بلسانك يا وحش.. معنى كده إن اللي مطيرة النوم من عينك إسكندرانية، صح؟

شرد بذهنه في الفراغ المقابل له، وتمتم بابتسامة احتلت شفتيه عنوة:

- مطيرة النوم بس، دي مجنناني.

أمسك "خالد" بوجه "حسام"، وأداره إليه بحركة سريعة، وسعى إلى استجوابه على الفور قبل أن يتراجع:

- قول لي بسرعة عرفتها إزاي وفين وناوي معاها على إيه؟

أزاح "حسام" يده متأففًا قائلًا:

- كل اللي أقدر أقوله دلوقتي إنها سابت إسكندرية وجات هنا القاهرة.. أخدت عنوانها بالعافية من صاحبتها هناك، ومش هاقولك حاجة تانية إلا لما أقابلها الأول

ثم استدرج متسائلا:

- ها حددت معاد الخطوبة ولا لسه؟

زفر "خالد" بقوة وهو يعيد ذراعيه إلى الخلف ويستند إليهما، وقد ارتسمت الحيرة على وجهه وعلت قسماته قائلًا:

- أبوها مصمم على كتب كتاب مش خطوبة.

التفت إلى "حسام" عندما انتهى من عبارته، فوجده يحثه في متابعة الحديث فقال:

- عارف لما اتصلت به علشان أحدد معاه معاد أول مرة.. إداني معاد بعد يومين. ولما روحت قابلته لقيته عمل عليا تحريات وعرف عني كل حاجة..

عيلتي مين؟ شغلي إيه..؟ كل حاجة عني. وأول ما فاتحته في موضوع بنته وافق على طول ومن غير تردد، لا وكمان بعدها بقى هو اللي بيضغط عليها علشان توافق

ثم التفت إليه مرة أخرى:

- أبوها مادي أوي يا "حسام" بس أمك بقى مرتاحة لها لدرجة غريبة.

بتر عبارته واعتدل كأنه لُدغ في التو، ونظر إلى الباب فتنهد وعاد برأسه إلى "حسام" متابعًا بهمس:

- قصدي مامتك مرتاحة لها جدا ومتحمسة وبتقول لي مالكش دعوة بأهلها المهم هي.

أنهى عبارته وألقى بجسده إلى الفراش مسترخيًا مغمض العينين. واتسعت ابتسامة "حسام" وهو ينظر إلى حركات "خالد" متفحصًا. لن يكبر أبدًا، سيظل "خالد" هو "خالد" متهورا، تصرفاته صبيانية، مهما مضت به السنين.

لا يزال يخشى إغضاب عمته، ويحاول تنفيذ تعليماتها، حتى وإن لم تتوافق مع طبيعة شخصيته، من فرط حبه لها ولعنايتها به منذ أن كان في التاسعة عشر من عمره، في بيتها وبجوار ابنها، بعد غرق السفينة السياحية،التي راح ضحيتها والداه، وأخوه الأصغر، وأخت "حسام" الصغرى، "حنين"، والتي كانت تصغر "خالد" بثلاثة أعوام. "حنين"،التي اقتلعت من بين مثيلاتها من الزهرات المتفتحات اليافعات وفارقت الحياة، وفارقته! أخذت معها قلبه، وكاد أن يفقد عقله بعد علمه بما حدث للجميع، في تلك السفينة التي استقرت بمن كانوا على متنها في قاع البحر، وكانت ضمن من لم يعثروا على جثامينهم في القاع، رغم البحث المتواصل. لم تكن لخالد ابنة عمته فقط، بل كانت حلم الطفولة والصبا، وحجر الأساس الذي انهار،فتهاوت معه حياته وتطلعاته، بل وإيمانه أيضا؛ فحاول الانتحار. وبعدإنقاذه، حدثته عمته بأن المنتحر لا يدخل الجنة أبدًا، فعدل عن الفكرة، وظل يوميًا يتأمل السماء الصافية ويتخيل "حنين" ترتع بين طبقاتها فرحة سعيدة، بثوبها الأبيض كبياض الثلج، تنتظره ببستان جنتها. ولم لا، وهي من كانت ملاك العائلة،وقبل الحادث

بستة أشهر فقط، أسدلت على شعرها وجسدها ما يخفي معالمه، وواظبت على الصلاة، ولم تُرَ بعد ذلك إلا ومصحفها بيدها أو بحقيبتها الصغيرة، وابتسامتها الصافية ترسم أجمل نقاء روحي بعينيها المشرقتين. تخيلها تنظر إليه نظرة عتاب طويلة، لمحاولته قتل نفسه، فيحرمهما اللقاء الأبدي، فعدل عن الفكرة نهائيًا، واحتفظ بحياته. ولكنه مع الوقت، بدأ يفقد الكثير في المقابل.

لم يشأ "حسام" أن يخرجه من تلك الحالة التي تنتابه على فترات متباعدة؛ فهو يعرف تلك النظرة جيدًا.

إنه الآن سابح مع ذكرياته.. هو الآن يذكر "حنين"، أخته الصغرى وملاكه البريء،وشقه الضائع بين الأمواج. حُرم حتى من دفن جثتها، بل حتى من إلقاء النظرة الأخيرة عليها قبل وداعها. روحه التي فارقته، ولم تعد إلا في تلك اللحظة الوهمية التي رأى فيها "حبيبة" تحت سطح الماء لأول مرة!

تشبهها كثيرًا.. ملامحها، صوتها، لغتها الجسدية، وبراءتها وربما سذاجتها أيضًا. لذلك منحها هدية تشبهها أيضًا، شفافةً لامعةً وسهلة التصدع.

أجفلاحينما دوت طرقات سريعة على باب الغرفة،انتشلتهما من بحر الذكريات.. من حنينهما! زفر "خالد" زفرة طويلة، بينما أجاب "حسام":

- ادخل.

أطلت الخادمة بجزء من جسدها وهي تقول بأدب:

- كابتن "حسام"، أستاذ "طارق" على التليفون.

أومأ برأسه، فخرجت في التو وأغلقت الباب خلفها بهدوء. اعتدل جالسًاورفع سماعة الهاتف الملحق بغرفته. لم يلتفت "طارق" إلى بحة الحزن بصوت صديقه،وتكلم مندفعًا كعادته قائلًا:

- انت فين يا "حسام" دايخ عليك بقالي كام يوم وماحدش عارفلك طريق وحضرتك قافل تليفونك وبتتفسح في اسكندرية ولا على بالك.

أغمض عينيه وزفر بقوة، فقد تملك منه الضيق أكثر وهو يجيبه:

- ما تهدا عليا شوية يا "طارق" في إيه مالك داخل زي القطر كده ليه؟

عاد إليه صياح "طارق" حانقًا:

- لا ولا حاجة.. بسيطة خالص.. كل الحكاية إن افتتاح الجيم بعد يومين وفيه أجهزة حضرتك لسة ماركبتهاش، والناس بيتصلوا يسألوا على تفاصيل أنا مش عارفها، والدنيا تضرب تقلب.. ها كده كويس ولا أقول كمان.. ده كان يوم منيل يوم ما فكرت أشاركك يا أخي.

ابتسم "حسام" رغمًا عنه، فهو عادة لا يخرج من إحدى حالات حزنه إلا بمشاكسة ما.قال بسخرية:

- إنت هتعمل فيها شريكي ولا إيه؟ ما كانوش 10% دول وواخدهم عافية كمان بعد ما قعدت تتحايل عليا؟

زمجر "طارق" مصطنعًا الغضب وقال:

- اسمع يابني إنت، أنا مستنيك في الجيم حالا تنط في الهدوم وتبقى عندي في ظرف دقايق... أنا محتاس يا "حسام".

وضع السماعة وقد وعده أن يكون أمامه بعد دقائق قليلة، وبالفعل لم تمر سوى عشر دقائق وكان في السيارة متجهًا إليه، وبداخله حروب ومنازعات يجيش بها صدره. لقد نسي أمر مشروعه كليًا منذ أن سافر للبحث عنها، والآن هو في ورطة حقيقة..الافتتاح بعد يومين، ولا يزال أمامه الكثير لإنجازه، وبعد الافتتاح سوف ينشغل أكثر، فحتى الآن لا يوجد مدرب معتمد غيره، والجميع يريد التدرب تحت يده. الجدول مزدحم بشدة، وفي نفس الوقت يريد أن يحاول الوصول إليها ليبدأ معها مشروعه الكبير والمصيري. هل من الممكن أن يؤجل اللقاء أيامًا ليست بالكثيرة، حتى يهدأ دوران الأرض من حوله قليلًا، فيذهب إليها وهو في فسحة من وقته، خالي الذهن؟، إنها أغلى عنده من أن يمنحها بعض عقله وبعض ساعاته.

***

وقف أمام"طارق" عاقدًا ذراعيه فوق صدره بابتسامة مرحة عالقة بين شفتيه. "طارق"،الذي كان متقمصًا دور المرشد،أخذ يشرح كل شيء عن المكان بحماس شديد، كتدريب له على حفظ جميع أسماء الأجهزة التي ذكرها له"حسام" سابقًا، وكيف يعمل كل جهاز منها، و"حسام" مستمتع بدور الضيف الثقيل الذي يسأل عن كل شيء وأيشيء، ويؤديه بإتقان. واسترسل"طارق" في الحديث يقول:

- الدور اللي تحت زي ما شُفنا كان للأجهزة والتمرينات، أما الدور ده بقى ساونا وتدليك، وطبعا الرجالة ليهم أيام ومواعيد محددة غير مواعيد الستات!

عض"حسام" شفتة السفلى ساخرًا متصنعًا الضيق وهو يقول:

- يا خسارة

قال "طارق" بجدية لا تتناسب مع المزاح الذي سبقها منذ لحظات:

- الدور ده بقى هيبقى للناس الهاي كلاس مش أي حد.. عاوزين بقى نسميه اسم يليق بيه.

ابتسم "حسام"، ثم تنفس بعمق وقال بعينين حالمتين:

- هيبقى اسمه "رُكن حبيبة".

عقد "طارق" حاجبيه وقال متسائلًا:

- رُكن حبيبة؟!.. إشمعنى؟

أجابة "حسام" وهو يتركه منصرفًا:

- وأنت مالك يا رخم؟

***

عشرة أيام فاصلة، تغيرت بعدها الحياة من النقيض إلى النقيض. في لحظة ما، وكأن الكون قد سكن مرهفًا آذانه لتلك الضربات القاسية التي أوجعت فؤاده.. وكأن البحر قد تجمد فجأة، لتحجر تلكما العينين.. وكأنه خشي أن يتحرك بأمواجه، فيثيرغضب تلك العروق النافرة المحتقنة، فيتلقى لكمة تُخرس هديره إلى الأبد.

كان الجميع يتحرك حوله مباركًا عقد القران، وهو مازال مذهولًا يضغط أضراسه، حتى كاد أن يهشمها دون وعي.. يقبض راحته بقوة وغضب، حتى هربت الدماء منهما، خشية أن يمزق أوردتها تحت جلده. إنها هي "حبيبة"!

تجلس إلى جوار"خالد"، تعلو شفتيها ابتسامة مرتعشة، لازالت عيناها تبرقان تكادان أن تُمطرا، وتكاد أظافرها أن تتآكل وتنسلخ

من فرط عبثها القوي بها توترًا. لا تجد مسلكًا لريقها بداخل حلقها، وهي تنظر إليه نظرات مبهمة متسائلة، أو ربما حائرة.اقتربت والدته وجذبته من ذراعه، ناهرة إياه برفق وبصوت منخفض:

- اتأخرت كده ليه يا "حسام".. المأذون كتب الكتاب من بدري؟

نظر إليها وقد تركت عيناه العروس الحائرة، معلنًا لها تركها إلى الأبد، وأجاب وهو ينظر إلى الفراغ:

- دايما باجي متأخر يا ماما.

جذبته مرة أخرى، وسارت به باتجاه العروسين،وهو بجوارها كطفل ضاع من عائلته وفقد الطريق فجأة، وأظلم كل شيء من حوله، فلا يكاد يسمع، ولا يكاد يبصر، وبالجهد ينطق كلماته. تمتمت وهي تسير بجواره:

- يالا علشان تسلم على العروسة وتبارك لـ"خالد" .

كانت المرة الأولى التي يحتضن فيها"خالد" ببرود. المرة الأولى التي يشعر فيها أنه يريد أن يهشم وجهه، بل يحرق كل شيء حوله.

كان "خالد" يتحدث بحماس وهو ينظر له وكأنه شخص آخر. وكأن "خالد" قد انقسم إلى رجلين، أحدهما صديق عمره الذي لا يتورع عن أن يفتديه بحياته، والآخر رجل بغيض اختطف منه محبوبته لا يستحق سوى القتل.

عندما بسط كفه لمصافحتها، شعر بيدها تحرقه وهي تزحف في كفه ببطء ووجل. ضغط كفها بقوة آلمتها، وعتاب قتلها، وثارت لأجله خواطرها الراكدة.

يا إلهي! كيف أستطيع أن أرى الكلمات مرتسمة بأحداقه بوضوح هكذا؟! لماذا يعاتبني؟ لماذا ينعتني بالخائنة؟ بل أنت من ترك وتخلى، أنت من يحب أخرى، كما قيل لي.لاشيء على الإطلاق يدعوك لتلك النظرة الغاضبة،وكتابة تلك الكلمات القاتلة في عينيك. أرجوك ابتعد الآن، ولا تفسد عليّ يومي، كما أفسدت عليّ أحلامي.

لم تكن وحدها التي استطاعت أن تقرأ ما بعينيه. بل فوجئ هو الآخر بأنه يستطيع أيضًا. هي تدعي أنه لا يوجد بيننا ما يستدعي غضبي، بل ولا تعرف لماذا أنا غاضب، وتأمرني بالابتعاد.

تركها وابتعد سريعًا نحو باب القاعة، كدوامة تسرع باتجاه زورق، تريد أن تبتلعه. هدرت أمواجه بعنف، وزأرت وحوش غاباته وهو يفك ربطة عنقه بغضب وانفعال، خارجًا من القاعة. ولكن نداءً واحدًا فقط لم ولن يستطع يوما أن يتجاهله.

أقبلت والدته بابتسامة عريضة متسائلة بسعادة:

- رايح فين يا "حسام" عاوزاك في حاجة مهمة قوي.

أشاح بوجهه يخفي ما تلبس به من غضب وهو يقول:

- خارج أشم شوية هوا بره.

أدارته إلى جهة اليمين، وأشارت إشارة خفية إلى إحدى الطاولات غير البعيدة وهي تقول باهتمام مغلف بالفرحة:

- شايف البنت اللي زي القمر اللي قاعدة هناك دي؟

لم ينظر، لقد كان يحاول بذل أقصى ما في وسعه للسيطرة على انفعالاته بشتى الطرق، ولكن رغما عنه قال بعصبية:

- مالها يا ماما؟

فهمت والدته عصبيته بشكل آخر، وقالت بحزم:

- اسمع بقى يا "حسام" أنا كل ما أجيبلك عروسه تعمل لي فيها الشويتين دول؟ خلاص بقى كفاية، "خالد" اللي أصغر منك أهو اتجوز مش فاضل غيرك، والمرة دي هتوافق يعني هتوافق.

نظر إليها بملامح خاوية وجبين منعقد، فتابعت بنفس الحسم:

- البنت ممتازة يا "حسام"، أبوها لوا سابق في الجيش ومربيها على النظام والجدية، والنادي مابتروحوش إلا مع والدتها، وزي ما إنت شايف كده لبسها محتشم. وبعدين شخصيتها قوية والكل بيشكر فيها بصراحة، وأنا متأكدة إن أخلاقها هتعجبك..ها قلت إيه؟

عندما تندفع السهام إلى قلوبنا بلا رحمة، بأيدي من نحب، نفتح لها صدورنا بابتسامة رضا، ولا نحاول أن نتفاداها. فالموت هنا لن يكون بسبب النصل، سيتغلغل السهم في القلب، ليجده قد مات بالفعل قبل أن يصل إليه، وفقد قدرته على النبض، وسيبصر النصل لوحة رُسمت على الشغاف بدماء سوداء لحروف كلمة.. خيانة.

نظر إلى والدته نظرة استغاثة، يرجوها بها أن تكف عن الحديث، فهو الآن في لحظة ضياع كاملة، ربما يظلم بسببها إنسانة أخرى لا ذنب لها فيما حدث له. ظلت تتحدث وتضغط، وظل يستمع ويضيع أكثر كلما التفت إلى "خالد" وعروسه، الخائنة بلا خيانة، الحائرة بلا سبب. حتى كاد أن ينفجر، حين تنهدت والدته بشفقة وقالت بحنان:

- ماتخبيش عليا لو في واحدة تانية قول، أنا مش همانع.

ابتسم بمرارة، وحرك رأسه نفيًا، فاستطردت قائلة:

- يبقى تقول موافق وسيب الباقي عليا.

وبعد صمت طويل، اعتصر قلبه ألمًا. تطايرت فيه أحلامه من أمامه كأوراق الشجر في مهب الريح. نطق بحروف مبعثرة وعينين محتقنتين بالدم المندفع إليهما، محدقًا فيها قائلًا:

- موافق.

- 7 -

لم يستطع الذهاب إلى المنزل في تلك الليلة. كانت بداخله طاقة قصوى تدعوه لتحطيم كل ما يقابله. توجه إلى صالة الألعاب خاصته،اعتلى الدرج قفزًا، ونزع ملابسه بعنف، ثم جلس إلى أحد الأجهزة وأخذ يجذب الأثقال الحديدية بعنف،ويدفعها بشراسة، وصدره يعلو ويهبط بجنون، وصوت تصادم الحديد يدوي في الأرجاء. وأخيرًا، نفدت قواه تمامًا، فترك جسده يهوي إلى الأرض منهكًا بشدة. أغمض عينيه وهو يلهث بقوة، حتى استقر أخيرًا وهدأت أنفاسه، ثم راح في سُبات عميق رغمًا عنه.

أما هناك، أسفل منزلها، أوقف "خالد" سيارته، واعتدل ليصبح في مواجهتها وهو يقول معاتبًا:

- على فكره أنا زعلان منك.. من ساعة ما الفرح خلص وخرجنا سوا لحد دلوقتي مااتكلمتيش خالص.

قالت بارتباك:

- معلش، محتاجة وقت علشان أتعود عليك أكتر وأعرف أتكلم معاك.

سحب كفها وقربه من شفتيه، وقبله برقة وهو يراقب ملامح وجهها المضطرب قائلًا:

- أنا هاخليكي تاخدي عليا أسرع مما تتخيلي.

بيدها الأخرى أمسكت مقبض الباب وفتحته، وهي تسحب يدها الساكنة في راحته قائلة باضطراب:

- طيب أنا هاطلع بقى، أصلي مرهقة أوي وعاوزة أنام.

وقبل أن يعترض أو يتقدم أكثر، كانت قد ترجلت من السيارة، فلحق بها وسار بجوارها، حتى عبرا حديقة المنزل الصغيرة، ودلفا من البوابة الداخلية، فتقدمت هي وضغطت أزرار المصعد بتوتر شديد، متحاشية النظر إليه. حتى استقر المصعد أمامهما، وقبل أن تستقله، أحاط خصرها بذراعه، في محاولة أخيرة لتوديعها، ولكنها أبعدته برفق معتذرة، وهربت داخل المصعد، واضعة كلتا يديها على صدرها، في محاولة ضعيفة لتهدئة أنفاسها المتلاحقة.

بمجرد أن دلفت إلى المنزل، واجهت ابتسامة "أمل" العريضة، والتي تقول بحماس وفرحة حقيقية:

- ألف مبروك يا آنسة "حبيبة".

ربتت "حبيبة" على كتفها بابتسامة مرهقة قائلة:

- الله يبارك فيكِ يا "أمل" .

ثم تلفتت بعينيها في المكان متسائلةً:

- بابا وماما ناموا ولا إيه؟

أومأت "أمل" برأسها وهي تقول:

- أيوة "فريدة" هانم و"سليم" بيه ناموا، والآنسة "سلمى" في أوضتها.

ابتسمت بوهن، وهي تتركها متجهة إلى غرفتها. أغلقتها خلفها، وألقت بجسدها فوق فراشها.

أغمضت عينيها، بعد محاولة فاشلة للنهوض مرة أخرى لاستبدال ملابسها، وشعرت برعشة خفيفة تسري في أوصالها، عندما تذكرت محاولة "خالد" تقبيلها في الأسفل، وتذكرت عينيه الغاضبتين، عندما دفعته برفق. زفرت بقوة، لعلها تُطفئ تلك الشعلة المتقدة بصدرها، الساخطة على كل شيء، والتي تلهب عقلها وتلسع بألسنتها قلبها.

لماذا رضختُ لعائلتي، ووافقتُ على عقد قراني بهذه السرعة؟ لماذا أنا دائما طوع بنان الجميع، يتلاعبون بي كيف شاؤوا، يضعونني حيث أرادوا؟ لماذا لم أرفض من البداية؟ إلى متى سأظل مترددة وجبانة، لا أكادُ أحسمُ أمرًا،لا أعرفُ للمواجهة طريقًا؟

***

أمسك بمقبض باب غرفته، وقبل أن يديره، سمعها تناديه بغضب يعرف نبرته جيدًا في صوتها، فاستدار ببطء وهو يحمل سترته بإهمال خلف كتفه، وبوجه عابس أجاب:

- صباح الخير يا ماما.

قالت وهي تفرك كفيها بضيق:

- يابرودك يا أخي.. بقى أنا طول الليل عماله أتصل بيك وإنت ولا إنت هنا، لما حرقتلي أعصابي، وجاي تقول لي صباح الخير يا ماما؟

أغمض عينيه، وهو يزفر بقوة ويشيح بوجهه محاولًا إيقاف بعض الغليان الذي يسري بداخله والسيطرة على أعصابه، وهو يقول منفعلًا:

- هو أنا عيل صغير هتقلقي عليه؟

نظرت إليه بدهشة غير مستوعبة الطريقة التي يحدثها بها لأول مرة.اقتربت منه، ودفعته في ذراعه بقوة لا تتناسب مع رقتها، هاتفة في وجهه:

- اتكلم كويس يا ولد.. مش كفاية اختفيت من فرح "خالد" ومشيت وسبتنا من غير ما تقول لنا رايح فين.. مابقاش عندك أي إحساس بالمسئولية خالص للدرجة دي يا "حسام" ؟

دفع باب غرفته بعنف، ودلف للداخل وهو يصيح:

- هو في إيه بالظبط؟.. كل حاجه "خالد"، معندكيش غير "خالد".. لازم الكون كله يلف حواليه ويلبيله طلباته يا مدام "نور"؟

حدقت فيه مشدوهة مما ترى وتسمع.. إنه ليس في حالته الطبيعية أبدًا.. ربما يكون مخمورًا أو مخدرًا! سمعت وقع أقدام تقترب، ثم أطل وجه "خالد" الناعس عليهما، بشعره الأشعث،يقول وهو يفرك إحدى عينيه من أثر النوم:

- أنا سامع حد بيجيب سيرتي.. بتتخانقوا ليه عالصبح؟

لم يجد ردًا من كليهما، فتقدم بضع خطوات للداخل، ثم وجه سبابته باتجاه "حسام" وهو يقول معاتبا:

- كده برضه تسيبني وتمشي يوم فرحي.. قصرت رقبتي يا أخى قدام مراتي.

لم يعلم "خالد" أنه في كل كلمة ينطقها يضغط بقسوة على جرح مازال مفتوحا ينزف؛ لذلك انتفض متفاجئًاعندما وجده يصيح وهو يضرب سترته بشراسة فوق حافة فراشه قائلًا:

- أنا مش الكلب بتاعك علشان تفضل رابطني بسلسلة جانبك.. ولا أنت افتكرتني الجارد بتاعك بصحيح؟

أنهى عبارته وهو يستدير ويوجه حديثه لوالدته قائلا:

- لو سمحتِ يا ماما أنا جاي تعبان وعاوز أنام.

تبادلت أمه نظرات الحيرة مع "خالد"،الذي صمت تماما، فهو يعرف صديقه عندما يغضب،وهو الآن غاضب، وبشدة. أشار إليها برأسه وهو يضع راحته على كتفها يحثها على الخروج معه قائلًا:

- تعالي يا عمتو دلوقتي من فضلك سيبيه يرتاح شويه.

أغلق "خالد" الباب خلفهما، وسار بها حتى غرفة المعيشة. أجلسها وهو يتفحص وجهها محاولًا الاطمئنان عليها، ثم جلس بقربها متسائلًا:

- إيه الحكاية يا عمتو؟

التفتت إليه غير مصدقة ما حدث وقالت بعينين حائرتين:

- والله يابني منا عارفة ماله..أول مرة يكلمني كده!

ثم فكرت قليلا، وقبل أن تتكلم تراجعت عما يدور بخاطرها..

- لا مش معقول!

نظر إليها مستفهمًا، فقالت متسائلة:

- تفتكر يكون سهر ليلة امبارح مع حد بيشرب ولا بياخد مخدرات وشرب معاهم؟

هز "خالد" رأسه نافيًا بقوة وهو يجيبها دون تردد:

- لالا طبعا يا عمتو،"حسام" راجل رياضي وبيحافظ على نفسه جدا؛ إذا كنت أنا نفسي مابيرضاش ياخد من..

بتر عبارته، عندما انتبه إلى عينيها المتسعتين عن آخرهما بذهول فقال موضحًاعلى الفور:

- لا يا عمتو ماتفهمنيش غلط أنا أقصد السجاير العاديه مابيرضاش ياخدها.

زفرت بقوة لتخرج كمية الانفعالات الكثيرة بداخل صدرها، ثم تمتمت:

- ربنا يهديه ويهديك.

تنفس الصعداء، وابتلع ريقة بصعوبة، فلقد كاد أن يُهلك نفسه بنفسهِ.أراد أن يدير دفة الحوار باتجاه آخر، فقال:

- باقول لك إيه يا عمتو إيه رأيك أعزم"حبيبة" تتغدا معانا هنا يوم الجمعة؟

ضحكت ساخرة وقالت:

- قصدك تفطر معانا؟

قطب حاجبيه بدون فهم فتابعت:

- يوم الجمعه رمضان يا"خالد".

رفع حاجبيه مندهشًا وهو يعبث بشعره قائلًا:

- والله.. بسرعة كده؟.. ولا حد قال لي!

***

لم يستطع أن يهرب إلى النوم، فكلما هرب إليه فر منه إلى غير رجعة. تأكل الغيرة قلبه، وتُعطي ما تبقى منه للندم، ليلوكه. في النهاية، حسم أمره، وخرج من غرفته يبحث عن والدته، التي - كعادتها في هذه الساعة - وجدها تجلس في الشرفة الكبيرة بجوار حوض الزهور، ذلك الحوض البني المُعطر بزهوره، رفيقها كلما حزنت أو طالت حيرتها في أمر ما، وكأنها تستجلب روح صاحبه،الذي أتى به هدية لها،قبل أن يفارق الحياة بأيام. مازال يسمع صوت والده وهو يقول لها مبتسمًا بحب"كل ما تحسي إنك محتاجاني تعالي اقعدي هنا".

لمعت عيناه لذكرى والده.. لقد كان يتمنى أن يكون هو وزوجته مثل أبيه وأمه، متحابين إلى تلك الدرجة من القرب والحميمية.

كثيرًا ما كان يُعرب عن أحلامه تلك أمامهمابطريقة مشاكسة، مما يجعل والدته تنهض وهي تقول متأففة "الله يكون في عونها"، فيضحك والده ثم يضع راحته على قلبه ويقول مداعبًا "بالعكس.. ابنك ده يوم ما يحب هيتبهدل على الآخر مايغركيش عضلاته ده من بره بس".

ابتسم عندما وصل لتلك المحطة من الذكريات، فأوقف قطارها عند هذا الحد وتقدم ببطء لينتشلها هي الأخرى من ماضيها. جلس على الأرض أسفل قدميها، وتناول كفيها بين راحتيه، وقبلهما معتذرًا وهو يقول:

- أنا آسف يا ماما أرجوكِ اعذريني.

خفضت رأسها إليه في صمت، وقرأت الندم وقد نحت حروفه بين جنبات ملامحه، ثم تنفست بعمق وقالت بهدوء:

- أسفك مقبول يا "حسام". عارف ليه؟.. لأني عارفة إن في حاجة كبيرة مخرجاك عن وعيك ومش هاضغط عليك تقولي إيه هي. لكن عارف لو طريقتك دي اتكررت معايا تاني هاعمل فيك إيه؟

قال على الفور:

- اعملي فيا اللي انتِ عاوزاه.. أقولك.. اضربيني بالشوز!

رغمًا عنها ضحكت لمداعبته وهي تكرر:

- بالشوز!

مط شفتيه واصطنع الحيرة وهو يقول مقلدًا صوت أبيه مداعبًا:

- مانا خفت أقول لك بالجزمة تزعلي يا "نون" وتقوليلي إيه الألفاظ دي؟

علت ضحكاتها الرقيقة أكثر، وهي تلتفت برأسها إلى إحدى الزهرات فتستنشقها بقوة وتقول مبتسمة بحب:

- لو ماعملتش كده وانت بتصالحني ماتبقاش ابن "مصطفى الصياد"؟

ابتسم برضا كبير وسعادة أكبر، فلقد جعلها تضحك أخيرًا، بعد أن كان سببًا في غضبها.قبل كفيها مرة أخرى وهو يقول:

- يعني خلاص راضي عني يا جميل؟

أمسكته من كتفيه وأجلسته على المقعد المقابل لها وهي تقول بتهمل:

- بشرط؟

أومأ برأسه مبتسمًا وقال بحماس:

- إنت تؤمر يا قمر.

قالت على الفور:

- إنت قلت لي امبارح إنك موافق تخطب "هدى".

رفع حاجبيه مستفهمًا، فقالت بانفعال:

- البنت اللي شاورتلك عليها في الفرح يا "حسام".. لحقت تنسى؟!.. ده أنا الصبح كلمت مامتها وحددت معاها معاد بكرة على أساس إنك ادتني كلمة امبارح.. ولاعاوز تصغرني مع الناس؟

مرر أصابعه بين شعره الغزير باضطراب وهو يقول بخفوت:

- آه افتكرت.

لم يكن أمامه مفر من الموافقة، فلقد وضعته بين المطرقة والسندان.وربما أراد أن يكبح جماح قلبه، ويجبره على نسيانها على طريقة وداوني بالتي كانت هي الداءُ!

****

"بهايم.. أنا مشغل عندي شوية بهايم"

نطق "سليم" والد "حبيبة" تلك العبارة، وهو يهوي إلى مقعده في شركته الصغيرة، ويضرب سطح مكتبه بغيظ شديد، مما جعل "راغب" يسأل مستفهمًا وهو يجلس على المقعد قبالته:

- في إيه بس يا باشا.. احكيلي وكل حاجة لها حل.

رفع "سليم" رأسه وقد احتقنت عيناه بشدة، وقال وهو يلوح بذراعيه منفعلًا:

- لما"خالد" اتصل بيا وطلب مني معاد وعرفت أنه جاي يطلب إيد "حبيبة" بعثت اسأل واتطقس عنه وعن وضعه المالي.. شوية البهايم اللي مشغلهم قدمولي تقرير بيقولوا فيه إنه رجل أعمال وحيد أمه بعد أبوه وأخته ما ماتوا، وهو اللي ماسك كل الحسابات والفلوس، وهو اللي بيدير الشركة الكبيرة وكل حاجة في إيده، يعني كل الفلوس دي هتروحله بعد ما أمه كمان تموت، ده غير فلوسه هو اللي بيشغلها في السوق.

عقد"راغب" حاجبيه بعدم فهم وهو يقول:

- مش فاهم يا باشا اعذرني.

زفر"سليم" وقال حانقًا:

- البهوات كتبولي تقرير عن واحد تاني يا "راغب".. عن ابن عمته.

مال "راغب" برأسه يمينًا، وهو ينظر إليه غير مصدق، وقال متسائلًا:

- يعنى إيه؟.."خالد" وضعه المالي إيه دلوقتي؟

عاد"سليم" بظهره يستند إلى ظهر مقعده، وأغمض عينيه قائلًا:

- كان عنده سنتر كبير رأس ماله مش بطال، ورثه من أبوه. وبعد كام سنة، صرف معظم فلوسه على الحريم والصرمحة، ودلوقتي مابقاش عنده غير شقة ومحلين في مول قريب من هنا.

ضرب" راغب" جبهته بقوة وهو يقول بحسرة:

- يعنى الفلوس بح؟

أشعل "سليم" لفافة تبغ، واستنشق بعض سمومها، ثم زفرها ببطء بعد أن ملأ بها رئتيه وقال وهو محدق في الفراغ:

- أحلامي في إني أرجع اسمي في السوق زي زمان هي اللي بقت بح.

حين أصرت والدة "حسام" على حضور "حبيبة" معهم للتعرف على "هدى" وأسرتها، اقترح "حسام" أن يذهبوا جميعا في سيارة واحدة، فلا داعي للتفرق في سيارتين، فقد يختلف بهم الطريق ويضيع أحدهما من الآخر، وخصيصًا أنهم سيذهبون إليهم للمرة الأولى..ربما أراد "حسام" أن ينعم باحتلال جسدها جزءًا من سيارته، ويملأ عبقها الأجواء حوله، ولو لوقت قصير.جلست خلفه مباشرة،تحمل ابتسامة خلابة.بدا له أنها هي أيضا سعيدة بذلك!

لم يستطع أن يمنع عينيه من النظر إليها في المرآة من وقت لآخر، يخطف بعض الثواني من عمرها، فيحتفظ بها في درج ذكرياته معها. لم تستطع هي أن تفسر تلك النظرات التي تختلط فيها السعادة بالعتاب، القسوة والحنان، الخيانة والإخلاص.. وبمجرد أن أوقف السيارة، ترجل على الفور، ليفتح لها الباب. ابتسمت باضطراب شاكرة، ولكن تلك الابتسامة لم تدم كثيرًا، وخفق قلبها عندما سمعته يهمس لها بضيق:

- الفستان القصير ده مايتلبسش تاني.. فاهمة؟

ما هذا الكائن العجيب؟، من هو ليملي عليّ أوامره بتلك الجرأة؟ وأنا، كيف أسمح له؟!

ترجلت والدته من السيارة، في خفة تتناسب مع جسدها المعتدل، وكذلك "خالد" وهو يعاين المكان حوله متفحصًا، ويحرك رأسه بغرور مصطنع قائلًا:

- كويس، واضح إنهم بيحاولوا يبقوا في مستوانا؟

تعارف الجميع في الداخل، واجتمعت العائلتان في البهو الكبير من المنزل، وبعد فترة ليست بالقصيرة عاجلته والدته بطلب الزواج بشكل رسمي وواضح. كان من الظاهر قبول الأسرة به وترحابهم بشكل كبير، رغم نبرة الغرور التي تتحدث بها الأم، ورنة القوة والسطوة الظاهرة في حديث الأب، برغم أنه ترك الخدمة منذ سنوات، ولكنه مازال متشبثًابنياشينه وأوسمته وحديثه المتعالي.

الفتاة نفسها كانت هادئة، لا تتحدث كثيرًا، إلا إنها عندما تفعل لا تتردد في قول ما تريد. شخصية قوية تتسم بالجدية وربما الصرامة أحيانًا، محتشمة في ملابسها، عكس أختها الصغرى "سمر" المتحررة بشكل فج، في طريقتها وثوبها ونظراتها الجريئة وحديثها الناعم مع "حسام" بشكل خاص!.

لاحظت "حبيبة" تلك النظرات، والتقط سمعها تلك النعومة، فمررتها سريعًا على الرادار الأنثوي الخاص بها، لتخرج النتيجة في النهاية مغلفة بنظرة استهجان صارمة، وشراسة كانت من نصيب "سمر" طيلة الجلسة، والتي بادرتها هي الأخرى بنظرة أكثر حنقا، وكأن اللقاء تحول بينهما إلى مباراة لا تلحظها سوى عين خبير محترف، أو فلنقل.. صياد!

أثناء عودتهم في السيارة،قال "خالد" مقترحًا ميعاد الخطبة:

- إيه رأيكوا تبقى تاني يوم العيد مع عيد ميلاد "حبيبة"؟

وجدت الابتسامة الطريق أخيرًا إلى شفتيه وهو يقول ببطء:

- هي عيد ميلادها تاني يوم العيد؟

أجابته بخفوت:

- أيوة.

لا تعلم لماذا عقبت بعد ذلك قائلة:

- السنة اللي فاتت عملنا الحفلة على سفينة في النيل.

حدق بها في المرآة بشدة وتمتم مشدوهًا:

- إيه؟ في النيل؟ وتاني يوم العيد!

عقب"خالد" ضاحكًا:

- يعنى تخيل هي كانت بتحتفل بعيد ميلادها هنا على النيل في القاهرة، وأنت كنت بتغرق هناك في اسكندرية.

تشابكت أفكاره وتصارعت، حتى كادت أن تفتك ببعضها البعض. أما هي،فقد أحتقن وجهها واعتدلت في جلستها ببطء، تبادله التحديق والنظرات الذاهلة وتهمس مأخوذة:

- بيغرق؟!!

- 8 -

عندما يهمس القلم تنصت الأوراق، وتخفق للهيب الأحبار. نطق القلم بين أصابعها هامسًا بحيرتها"لابد من محادثته مباشرة، لأعرف كيف استطعت أن أراه في لحظة موت كتلك التي مررت بها تحت المياه. كنت أقنع نفسي أنه وهم، حتى تلك اللحظة التي تفاجأت فيها أنه كان يغرق بالفعل، ولكن في الإسكندرية!هل كان حلمًا أم حقيقة؟ يكاد رأسي ينفجر منذ أن رأيت الذهول بعينيه في السيارة. هناك شيء خفي، ولكن لا أعلم لماذا أخشى الحديث معه، بل أخشى النظر إلى عينيه. أشعر أنه يقرأ ما يدور بعقلي، وأزعم أنني أيضًا كذلك أستطيع قراءة أفكاره!.

تركت قلمها ينزلق من بين أصابعها راحلًا، ليسكن راقدًا بين دفتي مفكرتها الخاصة، ونهضت متباطئة وهي تعبث ببعض خصلات شعرها، واقفة أمام المرآة الكبيرة تفكر: ما فائدة المواجهة الآن، ومنذ متى وأنا أسعى لحل عقدة تقض مضجعي؟.. لمعت عيناها بإصرار، واعتدلت وقفتها.. لا، سأفعلها. لابد وأن أتغير لتتغير حياتي.. لابد من وضع النقاط فوق الحروف في كل أموري.. لن أخلف عهدي هذه المرة، وسأتحدث إليه؛ لا لشيء سوى أني فقط أريد أن أعرف ما الأمر، ليس إلا!.

معتادة هى على تراجعها تؤثر السلامة فى الابتعاد والسكوت دوماً ،هذه هي"حبيبة".. مرت الأيام ولم تفِ بعهدها. كلما اقتربت

خطوة، تراجعت خطوات.. لم يؤرقها هذا، فهو ليس جديدا عليها. وصل بها الهروب لدرجة رفض كل دعوة من "نور" عمة "خالد" للإفطار في منزلهم، متحججة بحجج واهية، حتى شارف شهر رمضان على الانتهاء، وانشغلت "نور" بالاستعداد لخطبة"حسام"!، ورغم ذلك خشيت من صدفة اللقاء!،

***

استقلت "هدى" السيارة بجواره،حاملة ابتسامة صغيرة، بينما جلست أختها"سمر" بالمقعد الخلفي وهي تقول بمرح:

- معلش بقى هاركب معاكوا يا "حسام"، أصلي بحب العربيات العالية.

ابتسم لها باقتضاب، وهو يلقي إليها نظرة في المرآة مرحبًا، ثم ما لبث أن رفع حاجبيه مندهشًا، وقد لمحت خبرته الطويلة في عالم الفتيات رنة خاصة في حديثها، عندما تابعت قائلة:

- أنا أصلي بحب المغامرة قوي.

انطلق بسيارته ببطء، حتى يسمح لسيارة والدته أن تسبقه وتصبح في المقدمة. كانت والدته تصطحب معها والدة "هدى"، تاركة لهما المجال للحديث منفردين، ولكن "سمر" قاطعت ذلك وأصرت على مصاحبتهمافي سيارته. وفي الزحام، ابتعدت سيارة والدته قليلًا، ولمح "حسام" مراقبة "هدى" للطريق، محاولةً النفاذ ببصرها بين السيارات، فقال مطمئنًا لها:

- ماتقلقيش هما قدامنا أنا شايفهم.

التفتت إليه وهي تقول موضحة:

- أنا مش قلقانه، أنا بس مش عاوزه حد فينا يسبق التاني، المفروض نوصل مع بعض بالظبط.

- وليه المفروض نوصل مع بعض بالظبط؟

ابتسمت متعجبة وهي تقول:

- علشان دي الأصول في المواقف اللي زي دي.وبعدين علشان إحنا متفقين على كده ولازم كل حاجة تمشي مظبوط.

رفع حاجبيه وهو يهز رأسه بسخرية قائلا:

- آاااه... الأصول.. تصدقي ماكنتش واخد بالي؟

ثم أردف متسائلًا:

- بس إيه حكاية إنك عاوزه كل حاجة تمشي مظبوط دي؟

اندفعت"سمر" في الحديث قائلة بمرح:

- هي "هدى" أختي كده على طول لازم كل حاجة بمواعيد وبالثانية كمان ولازم كله يمشي مظبوط على الجدول، نسخة من بابا فاكرة نفسها في الجيش.

أنهت عبارتها وهي تضحك ساخرة،يشاركها "حسام" وهو ينظر أمامه للطريق متعجبًا،فقاطعتهما"هدى" حانقة:

- وهو النظام وحش يعني؟

تركهما تتعاركان بالكلمات، وكل منهما تحاول إبراز صحة منطقها، وتابع سيارة والدته التي توقفت إثر انغلاق إشارة المرور، فتوقف خلفها، لا يفصل بينهما سوى سيارة واحدة. وفي الجوار، توقفت سيارة حمراء حديثة، تستقلها فتاة حسناء، ألقى "حسام"

نظرة عابرة إليها،حيث تنبعث منها أصوات الموسيقى صاخبة، ثم عاد ببصره إلى الأمام مرة أخرى. وما هي إلا ثوان، وسمع صفيرا منغمًا أطلقته"سمر" الجالسة في الخلف ثم قالت:

- سيدي يا سيدي ده انت بتتعاكس علني؟

ثم تابعت موجهة حديثها إلى "هدى"،التي نظرت للسيارة الحمراء وفتاتها بفضول، عندما سمعت أختها تقول:

- الحقي يا"هدى" خطيبك بيتعاكس؟

لاحظت"هدى" أن الفتاة تنظر إليه بشغف، وقد رفعت نظارتها تجمع بها شعرها الثائر حول وجهها، ولا تبدي اهتماما بمن ينظرن إليها. زفرت بضيق مُعلقةً:

- تفاهة.

كان معلقًا نظارته الشمسية السوداء بين أزرار قميصه، فتناولها مرتديًا إياها فوق عينيه وهو يقول بلا مبالاة:

- لازم تتعودي على كده، ده العادي أصلًا.

تجاهلت "هدى" حديثه،الذي أنبأها بأنه سعيد بتلك المعاكسات، بل ومغرور بها أيضًا. وعندما بدأت السيارات بالحركة سألته:

- هو إنت لبسك جينز كده على طول؟

ابتسم وهو يومئ برأسه مؤكدًا:

- أيوة، واحتمال ألبس جينز في خطوبتنا كمان.. إيه رأيك؟

ضحكت "سمر"، والتفتت "هدى" للاتجاه الآخر، تبحث عن سيارة والدته، وبداخلها شعور قوي أن من تقدم على الزواج منه مختلف تمامًا عنها، وتلك الإشارات التي رأتها منذ أن استقلت السيارة بجواره ترجوها أن تتراجع.لقد شعرت بهذا من قبل، ولكن والدتها أقنعتها أن باستطاعتها أن تدير دفته لصالحها وتغير من شخصيته كما يحلو لها، إن تمتعت بالذكاء الكافي، فوافقت على الاستمرار، ونسيت أن من يحاول تغيير شخصية الآخر ليصبح نسخة كربونية أخرى منه، مقدم على الوقوع في بئر اليأس،الذي لا عودة منه، والذي ينتهي السقوط فيه بالارتطام الدامي حتمًا!.

***

مال "خالد" إلى الأمام وقد ظهر عليه علامات الوهن والضعف وهو يقول هامسًا:

- هي عمتي بتصلي التراويح ولا إيه؟ كل ده بتصلي المغرب! حرام أنا هموت من الجوع.

مال "حسام" إلى الأمام هو الآخر، متكئًا بمرفقيه فوق المائدة بيأس:

- تفتكر هانفطر قبل العشاء ولا بعدها؟

ضحكت وهي مقبلة عليهما بثياب الصلاة وتقول:

- أحسن..علشان بعد كده تقوموا تصلوا المغرب الأول.

جذب "حسام" طبق ورق العنب من يد "خالد" بقوة وهو يقول بلهفة:

- حمد الله على السلامة يا "نون" أنا قلت انتِ بقيتي من أولياء الله الصالحين وروحتي تصلي المغرب في الكعبة؟

تناولت كأس العصير بين أصابعها ساهمة النظرات، وهي تتذكر زوجها وهو يطعمها بيده بعض حبات التمر أولا، ثم يأخذها لصلاة المغرب خلفه، ثم يعودان إلى المائدة مرة أخرى. عادت من ذكرياتها لتتابع الحديث الدائر بين "حسام" و"خالد" وهما يتناولان الطعام..

- شوف يا سيدي.. أول مرة شفتها كانت داخله المحل تدور على هدوم ماركة معينة.

ثم شرد بعيدًا وهو يتابع بصوت متهدج:

- أول ما شفتها حسيت اني شايف "حنين" الله يرحمها واقفه قدامي.

ترقرق الدمع بعيني" نور" وهي تردد:

- الله يرحمها.. فعلا "حبيبة" نسخة من "حنين"، ومش بس في الشكل.

تابع "حسام" ملامح الحزن البادية على وجه "خالد"،بينما يستطرد "خالد" قائلا:

- لقيت نفسي ماشي وراها مش عارف ليه لحد ما عرفت طريق بيتها.. راقبتها كام يوم وسألت عنها وعن أهلها لقيتها بنت كويسة.وفجأة طقت في دماغي فكرة الجواز، مش عارف ليه برضه!

نظرت له عمته وقالت بجدية معاتبة:

- معقوله يا "خالد"! يعني السبب الوحيد اللي خلاك تفكر تتجوزها انها شبه "حنين"؟!

ترك "خالد" المنشفة الصغيرة التي كان ينظف بها شفتيه من أثر الطعام، ونهض وهو يرسل تنهيدة حارة طويلة، ثم قال مغيرًا مجرى الحديث:

- المهم دلوقتي أنا هاعملها حفلة عيد ميلادها مع خطوبة "حسام" أعملوا حسابكم على كده.

***

وكأن اليوم يتكرر، وكأن العام الماضي قد أتى مرحبًا بها ثانية، مقدمًا لها ذكريات قريبة، كهدية يوم ميلادها. ولكن هذه المرة السفينة لم تغادر المرفأ!.

القاعة بداخل السفينة مزدحمة للغاية، والموسيقى الصاخبة تعلو من بين جنباتها. تسطع الأضواء بلونيها الأبيض والذهبي، ليكونا دائرتين مضيئتين، واحدة منهما مسلطة على العروسين "هدى وحسام" وأخرى في جزء آخر من القاعة، على "حبيبة" المبتسمة بخجل واضطراب، في محاولة لتحاشي الضوء، تتحدث مع "خالد" الذي جلس بجوارها فوق المقعد الأحمر الوثير.

وبعد بداية موسيقية صاخبة، هدأت الموسيقى قليلًا، وبدأ المصورون بالتقاط الصور الفوتوغرافية، فسطعت فلاشات العدسات، وطغت ابتسامة "هدى" المتعلقة بذراع "حسام" بيد، وباليد الأخرى ملوحةً إلى صديقاتها اللاتي يلتهمن بأعينهن خطيبها الواقف بجوارها بهدوء، يرتدي حُلته الكاملة وربطة العنق السوداء التي لا يطيقها كثيرًا، والتي تختلف اختلافا كبيرا مع شخصيته الجامحة.

وبعد قليل، أقبل المدعوون لتقديم التهنئة للعروسين، ثم دعتهما والدة "هدى" للجلوس في أريكتهما الخاصة المزينة بالتُل الأبيض من الجانبين،ولكن أقبل "سليم" يصافحهما، ثم تنحى بـ"حسام" جانبًا، ليحدثه في أمر هام.

مرت "نور" مبتسمة بجوار "سليم" و"حسام"، مرحبة برقتها المعهودة فبادلها "سليم" الابتسامة والتحية، ثم عاد يتحدث إلى "حسام" باهتمام شديد. أقبلت نحو "حبيبة وخالد" قائلة:

- يالا علشان تباركوا لـ"حسام وهدى".

تقدمتهما وهي تتحدث ملوحة بيديها برقةموجهة حديثها إلى "حبيبة":

- واضح أن باباكي يا "حبيبة" انسجم أوي مع "حسام".

ألقت "حبيبة" نظرة تجاههما، فوجدت والدها يميل برأسه باتجاه "حسام"، يتحدثان حديثا خاصًا جعلهما يبتعدان عن "هدى" ومن يحيطون بها. لم يكن من الصعب عليها في تلك اللحظة أن تتنبأ بما يدور بينهما؛ وقبل أن يقاطعونهما، صافحه والدها بابتسامة ممتنة، وهو يبتعد تاركًا المجال لابنته وزوجها ليقدما تهانيهما للعروسين.

احتضنه "خالد" بقوة مداعبًا وهو يقول:

- مبروك يا وحش.

اغتصب "حسام" ابتسامة صغيرة، وهو يمد يده لمصافحتها هي الأخرى وهي تقول:

- مبروك يا "حسام".

لم يستطع إلا أن يطيل النظر إلى عينيها، وكأنه يسبح في بحر مظلم يبحث فيه عن قارب للنجاة ويقول:

- متشكر.. وكل سنة وانتِ طيبة.

تنحنحت مضطربة، وهي ترجو يدها أن تنسحب من تلك المعركة الخاسرة بداخل قبضته، ثم اتخذت خطوة إلى اليسار لتجبره

على تركها. قدمت تهنئتها إلى "هدى"، وقبلتها قبلة صغيرة، وتنحت جانبًا تبحث عن "خالد"،الذي اختفى فجأة من أمام ناظريها، بمجرد أن قدم تهنئته للعروس.

وقفت تبحث عن عائلتها، لعله لحق بهم، فوجدت والدتها تقف بجوار عمته ووالدة "هدى" يتبادلن أطراف الحديث. اقتربت منهن ووقفت مبتسمة بضجر،تستمع للحديث الذي كان يدور بينهن عن فخامة المكان وأناقته، فابتعدت قليلًا وهي تدندن بصوت خافت مع الموسيقى الهادئة،التي أضافت بعض الهدوء على المكان.

لماذا تشعر فوق هذه المياه بالوحدة والاضطراب، حتى وإن كانت نجمة الحفل؟ تود لو تبتعد عن الجميع وتلجأ إلى ركن قصي،وهذه المرة محاولة الهرب ستكون أكثر جدية، فهي تشعر بعينيه تحيطها من كل جانب.. هل يحميها، أم يراقبها؟

شعرت بيد توضع على ذراعها من الخلف، فاستدارت لتجد أمامها "راغب" زوج أختها "نشوى" مبتسما، وهو يمد يده بمرح إليها قائلا:

- إيه رأيك، بما إن انتِ زهقانة وأنا تايه، ما تيجي نرقص سوا؟

ابتسمت وهي تستجيب له على مضض. لم تكن المرة الأولى التي تشعر فيها بنظرات "راغب" الثاقبة لها، والتي لا تعيرها اهتماما في كثير من الأحيان.لكنه هذه المرة يتدخل فيها بشئونها الخاصة متسائلا:

- مبسوطة مع "خالد"؟

رفعت حاجبيها مندهشة وهي تقول:

- آه مبسوطة.. بتسأل ليه؟

حرك رأسه بلا مبالاة وهو يقول:

- لا أبدا مجرد سؤال أنا بس باطمن عليكي.

نظرت إليه بعناد وقالت:

- لا اتطمن "خالد" إنسان كويس قوي وبيحبني جدا.

تظاهر بالاقتناع وهو يقول:

- أكيد طبعا أنا متأكد إنه بيحبك.

ثم عقب مشككًا:

- وإلا ماكنش ساب كل الستات اللي كان بيعرفها واتجوزك.

تجاهل النظرات المتسائلة في عينيها وهو يردف:

- ياريتك كنتي ظهرتي في حياته من زمان يمكن كان حافظ على فلوسه اللي ضيعها على الستات دول؟

تمتمت غير مصدقة:

- ضيع فلوسه على الستات؟!

رسم التردد على وجهه بإتقان وهو يقول:

- إيه ده هو انتِ ماكنتيش تعرفي؟

خرجت من القاعة المغطاة إلى سطح السفينة المكشوف، تسير وحدها في شرود. كيف يكذب عليها ويقنعها بأنها أول فتاة بحياته، وأنها هي الأولى والأخيرة في قلبه؟ كم هي ساذجة، صدقته بالفعل!.. لماذا يكذبون جميعًا؟"شادي" ثم "خالد"، ومن أيضًا؟

جال "حسام" بخاطرها في تلك اللحظة، ووجدت نفسها تحرك رأسها نفيًا، وأرسلت تنهيدة حارة راجية لا تكن كاذب مثلهما!

اتجهت إلى الدرج المؤدي للطابق الأسفل،فوجدت "خالد" يصعد للأعلى بصحبة فتاة وهما يتضاحكان. تغير وجهه حينما رآها، وتوقف عن الحركة، بينما أكملت الفتاة طريقها بحرج بالغ، ومرت بجوار "حبيبة" تبتسم متوترة. تمالك نفسه سريعًا، وصعد ببطء حتى وقف أمامها، ثم ابتسم قائلًا:

- إيه رايحة على فين كده؟

عقدت ذراعيها فوق صدرها وهي تقول:

- باتمشى شوية.

اقترب منها وأحاط كتفيها بذراعه متسائلًا:

- مش هتسأليني مين اللي كانت معايا؟

أبعدت ذراعه عنها وهي تلتفت إليه مندهشة. ها هويستعد لتأليف كذبة جديدة، متخذًا طريقة الهجوم خير وسيلة للدفاع منهجًا لحياته. قالت على مهل:

- هاسأل على مين ولا مين.. واضح أن الموضوع كبير وأنا ماكنتش واخده بالي؟

عقد جبينه متفحصًا كلماتها المغلفة بالشك، والتي تنبئ عن معلومات قد وصلتها للتو.

دس كفيه في جيبي بنطاله، ورفع رأسه ينظر إليها برهة من الوقت في سكون، ثم قال بجدية:

- "حبيبة".. أنا عشت حياة صعبة أوي..أحيانًا كتير أنا نفسي ماباقدرش أفهم تصرفاتي. لكن كل اللي أقدر أقولهولك إني اتقدمتلك علشان عندي الرغبة اني أبدأ حياتي من جديد.. حياة نضيفة.

التفتت إليه تتأمل وجهه الشارد بعيدا، وعينيه الغارقتين في الحزن وهو يستطرد:

- ساعديني علشان أقدر أرجع "خالد" بتاع زمان.. انتِ بالنسبة لي الأمل اللي هيبقي قدامي دايما يفكرني بالنقاء اللي فقدته غصب عني واللي باحن له كل ما أشوفك.

تأملت عينيه الحزينة الشاردة،التي ألجمتها، ولم تستطع أن تفصح له عما سمعته عنه من "راغب" منذ قليل. وكأنها ترى صورة جديدة لـ"خالد"، لم ترها من قبل!

أومأت برأسها بتفهم، وهي تسحب يديها من بين يديه، وتبتسم ابتسامة خاوية. وتركته يخرج هاتفه ويجيب رنينه المتواصل،الذي قطع عليه حزنه وحديثه معها. عادت إليه الابتسامة وهو يتحدث إلى عمته في الهاتف، ثم أنهى محادثته وهو يضع الهاتف بجيب سترته، وقد استعاد مرحه أيضًا وهو يقول:

- عمتو قالبة علينا الدنيا تعالي ندخل نشوفها.

ابتعدت خطوات للخلف قائلة:

- لا عاوزه أشم هوا شوية، الدنيا جوه خنقة.. ادخل أنت .

كان كريما، فتركها تتخذ ركنًا بعيدا عن الصخب،الذي عاد مجددًا بعد أن دلف داخل القاعة.استندت براحتيها إلى حافة

السور، وهي تنظر إلى مياه النيل وتفكر.. إنه رجل حزين للغاية، يصارع نفسه،ويتصرف عكس ما يؤمن به وما يريده، ربما بإرادته أو رغمًا عنه. هل يحاول تعويض نقص ما؟! عندما يسكب مشاعره أمامها ويخبرها كم يحبها، تشعر بصدقه. ولكن في نفس اللحظة، يراودها شعور بأن تلك الكلمات ليست لها! ترى كلماته تتجسد أمامها منسابة من بين شفتيه بتلقائية شديدة، وقبل أن تصل إليها تهرب بعيدًا.. تهرب لأخرى غير مرئية!.

لم ينادها، ولم تسمع خطواته الهادئة نحوها. ولكن شيئًا ما جعلها تلتفت. ربما شعرت بالدفء الذي تشعر به دومًا عند حضوره! هي المرة الأولى التي ينفرد بها.. وحدهما..منذ لقائهما في المشفى قبل أقل من عام.

هادرة هي أمواج البحر في عينيه. هل يضم العالم إلى صدره، أم فقط يعقد ذراعيه؟! هل سمعت الآن زفرة، أم أراد حرقها برئتيه؟

- واقفة لوحدك ليه؟

هكذا أخرجها من شرودها فيه، ليُعيدها بكلماته الثلاث إليه.. قالت:

- ولا حاجة باشم هوا بعيد عن الدوشة.

ثم تساءلت بتمهل:

- وانت سايب الناس وجاي هنا ليه؟

بدون تفكير أجاب:

- بادور عليكي.

صمتت، لعلها تستعيد قدرتها على النطق مرة أخرى، أو يرحمها وينصرف. ولكنه لم يفعل.. أشاحت بوجهها بعيدًا، صمته ونظراته جعلا اللحظات تمر عليها كالدهر.

وأخيرًا قرر إطلاق سراحها وزفر بقوة وهو يستدير لينصرف قائلًا:

- يالا ادخلي جوة، الدنيا هنا برد عليكي.

بداخلها حيرة كبيرة وأسئلة متخبطة، لا يملك أحد الإجابة عليها سواه، والفرصة الآن سانحة أمامها، وربما لن تعوض ثانية، ولابد من اقتناصها سريعًا.

وعلى غير عادتها، تحرك لسانها ونادته قبل أن يسبقها التردد والرهبة، كما يحدث لها دومًا عند المواجهة:

-"حسام" ؟

هل نادتني؟! هل خرج اسمي من بين شفتيها بتلك الرقة؟ هل أرادت سحق أعصابي وجوارحي، فقررت أن تناديني؟! عاد إليها بجسده كله دفعة واحدة، وبلهفة كبيرة مجيبًا. فركت كفيها مضطربة وهي تسأله:

- لما "خالد" قال في العربية إنك كنت بتغرق السنة اللي فاتت في نفس يوم عيد ميلادي.. كنت في اسكندرية فعلًا، ولا هنا في القاهرة؟

اقترب منها خطوات دون أن يشعر، وهو يعقد جبينه بقوة متسائلًا:

- هتفرق إيه هنا ولا في اسكندرية؟

قالت بصوت أشبه بالبكاء:

- هتفرق كتير.. لأني يوم عيد ميلادي وقعت في المية وكنت باغرق..

ثم تابعت وكل خلجة من جسدها ترتعش:

- وشفتك تحت المية.. ورغم إنك كنت بتغرق أنقذتني.. وأنا كمان أنقذتك. لما فقت من الغيبوبة وعرفت إن راجل مراكبي هو اللي أنقذني قلت يبقى كنت باحلم.. وفضلت أقنع نفسي بكده لحد ما عرفت إنك كنت بتغرق فعلًا في نفس اليوم، لكن في اسكندرية.. طب إزاي؟

خطى آخر خطوة كانت تفصل بينهما وأمسكها من مرفقيها هاتفًا:

- وأنا كنت فاكره حلم.. أنا كمان شفتك تحت المية.. ورفعتك بإيدي، وشدتيني معاكي..بس مش هنا..في اسكندرية!

أنهى كلماته وهو يلتفت إلى المياه. قطب جبينه بشدة، حتى كاد حاجباه أن يلتقيا، وضغط مرفقيها أكثر دون وعي وقد لمعت عيناه متذكرًا..

- يوم الحادثة لما أخدوكي في عربية.. ماكنش عندي أي سبب يخليني أروح المكان ده..لقيت نفسي ماشي بالعربية، لحد ما شفت عربية سايبة الطريق السريع وبتدخل في الرمل. ماكنتش أعرف إنك جواها ولا حتى شفت إن في واحدة ركبت معاهم؛ لكن لقيت نفسي ماشي وراهم من غير سبب. لحد ما سمعت صوتك وانتِ بتصرخي،ضربت نار وجريوا.. شفتك واقعة على الأرض حصل لي ذهول.. افتكرتك، وافتكرت ملامحك اللي شفتها تحت المية وأنا باغرق..

كان جسدها ينتفض بقوة بين يديه، وبدأت دموعها في الانهمار، وصدرها يعلو ويهبط بجنون، عندما نظر إليها متأملًا بعمق، وكأنه يستعد للقفز بداخل مقلتيها وهو يقول بصوت متهدج:

- أنا بقدر أقرا أفكارك واحس بالمكان اللي إنت موجوده فيه.. ومتأكد إن انتِ كمان كده.. إحنا في بينا ترابط قوي ومن نوع خاص جدًا يا "حبيبة". مش عارف حصل بيننا إمتى وإزاي لكن حصل.. انتِ ماينفعش تبقي ملك حد غيري.. انتِ بتاعتي.. الوضع ده لازم يتصلح.. وحالًا!

لقد كانت تخشى مواجهته هو، فكيف ستجاريه ويصبح عليها مواجهة الجميع؟ كيف ستواجه "خالد" بحبها لابن عمته وصديق عمره؟

كيف تستطيع تخيل تبعة ذلك عليه؟ كيف ستدافع عن نفسها عندما يتهمها بالخيانة؛ بل كيف ستستطيع بعدها النظر بعيني "نور"، دون أن تطرق خجلًا؟ وإن استطاعت كل هذا، كيف ستواجه عائلتها؟ كيف تشرح لهم الأمر؟ هل سيظل قلبها ينبض عندما تتفوه بذلك أمام والدها،الذي تشعر دائمًا بنظراته كسياط تجلدها بلا أسباب، فكيف عندما تقدم له سببًا مقنعًا لحرقها بقسوته؟!

- 9 -

ترك جسده يسقط بعنف فوق فراشه. كان غاضبًا جدًا، ثائرًا لأبعد حد.. لو كان غيرها من أغضبه هكذا، لبات ليلته يئن. أغمض عينيه لعله يهدأ قليلًا، لعله ينسى كلماتها الجارحة التي قذفتها بوجهه ودمعها منساب فوق وجنتيها. لقد رفضت حبه بشدة، واتهمته بالأنانية صراحة، وضغطت جرحه بقسوة: " كيف تبني سعادتك فوق حطام خالد وهدى بتلك البساطة؟" لم يكن يدري هل يعنفها، أم يربت على وجنتها لتهدأ.

ولكنه لم يفعل.. ظل ينظر إليها وهي تهتف بين يديه، معلنة أنه يهذي، وأن ما يقوله أوهام وتخيلات عقله المريض، وأنها تحب "خالد" ولا تريد فراقه. "كاذبة أنتِ يا حبيبتي وتعلمين"!، ولكنه لم يقو على منعها من المغادرة، وهي تحذره من أن يقربها بعد الآن. لقد كادت أن تسقط وهي تعدو بعيدًا، متعثرة بكذبها وترددها وضعفهاوحبها! لا مفر، سيبتعد كما أرادت، ولكن ستظل النار متقدة تحت الرماد.

***

مرت الأيام تلو الأيام، جاهد فيهانفسه ألا يلاقيها، متجنبًا أي مجلس أو مكان يجمعهما، بل ومتجنبًا سيرتها أيضًا. حاول أن يتقرب من خطيبته، ولكن في كل مرة يجد صدودًا منها، ومنه قبلها، وفي كل مرة كان يستمع إلى نفس العبارات المكررة من والدته وهي

تقول "بكره لما تبقى جوزها هتحس إنها بتحبك، أصلها خجولة شوية".

لم يكن يحتاج إلى تلك الكلمات، فهو لم يكن يبحث عن حبها بقدر ما يبحث عن دواء آخر يشفيه من علته الدائمة. ولهذا، لم يتوقف بحثه عند صدود "هدى" وفقط، فالمعجبات كثيرات حوله ينتظرن منه إشارة، عرف هذه وترك أخرى واستجاب لأخريات، وفي كل مرة يهتف قلبه هتافًا يتردد صداه بين أضلعه.. جربتُ الحب مرات عديدة، وفي كل مرة أحبك أنت!

***

كيف يدعي حبها وهو يفعل ما يفعل!، هكذا صرخ قلبها قبل عقلها متسائلًا غاضبًا، ورافضًا، وهي تستمع إلى الحديث الحانق المنساب من شفتي "نور". كيف يجرؤ على الخيانة بتلك البساطة؟ ولكن مهلًا! أي خيانة تلك التي تتحدث عنها، ألم تكذبه؟! ألم تحذره وتأمره بالابتعاد؟ فما بالها الآن غاضبة تريد الفتك به وقد علمت الحين بفتياته ومغامراته؟!

وفي النهاية، ألقت "نور" عليها قنبلتها الأخيرة، وهي تقول موجهة حديثها إلى "خالد" الجالس بجوارها:

- لا وجاي يقولي إنه حدد معاد فرحه خلاص واتفق مع "هدى"!

كان خالد يشعر بملل وهو يستمع إلى حديثها.ما المشكلة فيما تقول؟ إنه رجل ويحق له أكثر من هذا، ومادام لن يتزوج بإحداهن، فما الداعي للقلق إذن؟! تنهد وهو يضع قبضته أسفل ذقنه قائلًا:

- خلاص يا عمتو أهو هيتجوز وترتاحي من مشاكله.

زفرت بضيق ثم ضغطت جبينها قائلة:

- معاك حق.. يارب الجواز يصلحه ويرجعه زي الأول.

أرسل "خالد" تنهيدة حائرة وهو يقول متعجبًا:

- عارفه يا عمتو أنا اللي مضايقني بجد إني لما عرضت عليه يستنى شوية ونعمل فرحنا في نفس اليوم اتعصب ورفض بطريقة غريبة أوي.. مش عارف مش طايق نفسه كده ليه؟

لو كانا نظرا إليها في تلك اللحظة، لربما وجدا الإجابة حاضرة في عينيها. نهضت من مقعدها بالمطعم الذي كانوا يتناولون الغداء به متعللة بالحديث في الهاتف، وأخفت عينيها بخصلات شعرها المتدلية فوقهما، وابتعدت للخارج لتستطيع السيطرة على تلك الشلالات المتدفقة منهما.هكذا إذن يا "حسام"، تدعي حبي وملكيتي لك، وأنت تتقلب بين الفتيات والنساء غير عابئ! أوهكذا يكون الحب؟!،

كنت محقة حينما اتهمتك بالأنانية ودفعتك للخروج من حياتي.توقف أيها الدمع أرجوك، فما شأني أنا بما يفعل؟.. لا تقتلني كما قتلني هو وبعثر أشلائي بين حناياه.

***

فى قاعة الزفاف هناك، تحركت عيناه سريعًا بين الحضور والمدعويين باحثًا عنها، فلقد راهن نفسه بالأمس أنها لن تأتي.ارتسمت ابتسامة جذلة بين شفتيه، وهو ينظر إلى باب القاعة وقد دلف منه والداها، ثم "راغب" وأختاها، ومن خلفهم "خالد" وحيدًا. هي ليست معه، غير معلقة بذراعه، أعطت فرصة أخرى لقلبه

ليرقص طربًا وهو يستمع إلى والدتها، وهي تهنيء "هدى" بالزواج ثم تقول معقبة "معلش حبيبة تعبانة شوية ماقدرتش تيجي".

نعم لم يكن بمقدورها الحضور، نعم هي مريضة؛ ولكنها مريضة بحبه. هكذا حدث نفسه باسمًا.. لا تستطيع أن تراه وهو يُزف لغيرها، لقد كان على حق، لقد فاز برهانه.. ولكنه رهان كلا الطرفين فيه خاسر!.

***

-"حسام" احنا ليه مش هنحضر فرح "خالد"؟!

هكذا سألت "هدى" وهي حائرة من أمره صمتت قليلًا وهي تنظر إلى ذاك الغاضب المرتكز بساعده إلى حافة النافذة، متجمدة عيناه في بقعة ما بعيدة، وربما تكون غير موجودة بالمرة سوى بعقله فقط. أعادته عبارتها إلى أرض الواقع وقال ببرود:

- أول مرة أشوف عروسة عاوزه تقطع شهر العسل وترجع مصر علشان فرح حد تاني!

مطت شفتيها بلامبالاة وهي تجيبه قائلة:

- لا مش كده.. بس إحنا طولنا فعلا هنابقالنا شهر ونص في تركيا، وماما وبابا وحشوني أوي.

ابتسم ساخرًا:

- آه، علشان كده بقى.. طب ما تقوليلي كده من الأول؟

شعرت بحنق شديد يلفها وهتفت بضيق:

- يا "حسام" إنت على طول ساكت وسرحان.. حتى لما بنخرج نتفسح باحس إنك مش مركز معايا أصلا.. وبصراحة بقى أنا زهقت وعاوزه أرجع مصر.

أغمض عينيه وخرجت كلماته متألمة وهو يقول:

- أسبوعين كمان وننزل مصر.

تحولت إليه بجسدها كله دفعة واحدة وهي تهتف بدهشة:

- أسبوعين ليه؟!، ما ننزل بكره ولا بعده وبالمرة نحضر فرح "خالد وحبيبة"؟

كانت تنتظر جوابًا، ولكنها وجدت عاصفة متحركة قادمة نحوها وهو يصيح غاضبًا:

- أنا مابحبش حد يقولى لاء.. فاهماني؟

أنهى عبارته، وتنحى جانبًا قبل أن يلتهمها بداخل بركانه الثائر، وخرج من الغرفة بأكملها، وصفع الباب خلفه بقوة اهتزت لها الجدران وزجاج النوافذ، وجعلتها تجفل منتفضة مندهشة. ماهذا الرجل؟! إنه حنون أحيانًا، شغوف أحيانًا،شارد معظم يومه، غاضب بلا أسباب!، أغمضت عينيها لتستعيد هدوءها، وتناولت هاتفها النقال لتحدث والدتها!.

***

حفل زواج آخر، لم يبعد كثيرًا عن الحفل الأول، وها هي نفس القاعة تتزين مرة أخرى لاستقبال عروسها الجديدة، وعلى نفس الأريكة البنفسجية الوثيرة المزينة حوافها بالتل الأبيض المرصع

بزهور الياسمين والبنفسج الطبيعية، لتعطي مزيجًا متجانسًا بين الرقة والجمال والروائح النفاذة المنعشة.

جلست "حبيبة" بجوار "خالد"،بثوبها الأبيض الذي تتداخل فيه الخيوط الفضية اللامعة مع الخيوط الذهبية البراقة حول الخصر والذيل الطويل،الذي أعطاها مظهرًا ملكيًا فريدًا، وطرحتها المصنوعة من التُل المرصع بفصوص صغيرة تلمع عندما تحرك رأسها، ومثبتةً بعناية أسفل شعرها المرفوع معظمه للأعلى، وقد انسابت منه خصلات ليست بالكثيرة حول وجهها برقة ونعومة.

هي أيضًا كانت مترقبة، معلقة عينيها بباب القاعة البعيد. ولكنها كانت تختلف عنه كثيرًا، وتخشاه بشدة في تلك اللحظة الفاصلة في حياتها المستقبلية.. هل أخشى أن أصبح العروس الهاربة بثوبها الأبيض بأمر من عينيه؟!.. لا، لن أخضع سأتحاشى النظر إليه.. ولكن، ماذا لو قبل أناملي؟ هل سأتحسس ظهر كفي موضع شفتيه؟ أم سترفض راحتي مغادرة قبضته فيفتضح أمري؟، ليته لا يأتي.

كانت كلمات "نور" في تلك اللحظة هي طوق النجاة، عندما همست لهما معتذرة:

- ماتزعلوش من "حسام" يا ولاد إنتو عارفين بقى شهر العسل نساه نفسه!

اطمأنت أكثر عندما أردف "خالد" قائلًا:

- ولا يهمك يا عمتو هو كلمني واعتذرلي.. غصب عنه مش لاقي حجز خالص.

أرخت جفنيها براحة كبيرة، عندما تيقنت من عدم حضوره، وعبثت بطرف ثوبها في استرخاء شديد، غير عابئة بأصدقاء "خالد"

الذين بدأوا في التوافد والالتفاف حوله،بعضهم يهنئه، والآخر يهمس له بمكر وهو يدس بسترته شيئا صغيرا لم تره بوضوح.وانطلق الدخان الأبيض الشفاف من مضخاته المستترة حول مقعدي العروسين متجانسًا، مع بدء انسياب الموسيقى الهادئة التي تدعوهما للرقص البطيء.

تناول "خالد" أناملها بين أصابعه، آخذًا إياها إلى تلك الدائرة المضيئة بوسط القاعة، بأنوار متلألئة حول حوافها المرتفعة قليلا عن الأرض. وضع يديه حول خصرها، ونظر في عينيها.. ورحل بعيدًا بقلبه عائدًا به سنوات إلى الماضي!

شعر بأن "حنين" تحتل وجه "حبيبة" رويدًا رويدًا، وتبتسم له بسعادة وشوق كبير.ابتسم وهو يطبق بدون وعي حول خصرها باضطراب،حتى انتزعته"حبيبة"من ماضيه، عندما سألته بقلق:

- مالك يا"خالد"؟!

أغمض عينيه محاولًا استعادة قلبه المأخوذ،وقال مستفهمًا:

- مالي؟

ابتسمت متعجبة وهي تشير بعينيها إلى وجنته قائلة:

- مش حاسس بالدموع دي؟!

انتبه إلى أن عينيه تدمع بالفعل دون أن يشعر، فمد أصابعه يمسحها على الفور، وهو يبتسم بمرح..

- الدخان بقى معلش.

ابتسمت غير مصدقة إياه، ولكنها لم تعقب؛ فكل منهما بعيدعن الآخر بما يكفي، برغم التحام جسديهما.

مال "راغب" قليلًا باتجاه زوجته وقال ساخرًا:

- أختك شكلها مش طبيعي.

ابتسمت "نشوى" وهي تقول بزهو:

- أنا عارفه ليه؟

نظر إليها بلهفة؛ فطريقتها توحي بأن لديها الكثير لتقوله. ولكنه لم يسأل.. انتظر؛ فهو يعرف زوجته جيدًا،ويعلم أنها تريد البوح بما لديها. مالت نحوه هامسة:

- يوم خطوبة "حسام" سمعتهم بيتكلموا لوحدهم، وكانوا منفعلين أوي لدرجة ماخدوش بالهم إنى قريبة، وصوتهم كان عالي سمعت كل حاجه تقريبًا.

أومأ برأسه ليحثها على المتابعة، وقد شحذ حواسه جميعًا، وكلما انغمرت في سردها، لمعت عيناه جذلًا، وهو يفكر كيف سيستخدم ما قدمته له من معلومات ثمينة في المستقبل.

عندما رأت بريق عينيه يتصاعد فهمت ما يفكر به سريعا ولكنها لم تستطع أن تصل إلى مكان ما بعقله أو بقلبه لترى النشوة التى حلت به وهو يتخيل "حبيبة" تستجيب له هو الآخر خوفاً من أن يفشى سرها مع "حسام" ويفضحهما معاً

***

انتهى الحفل، واستقرت "حبيبة" بجوار " خالد" بسيارته، ولوحت للجميع بابتسامة صغيرة مودعة، وهو ينطلق بها في طريقهما إلى منزله. كلما ابتعد عن الفندق، خفق قلبها بشدة، وهي تنظر في المرآة بجوارها وترى انعكاس صور أسرتها وأصدقائها يتلاشى شيئًا

فشيئًا، وكأنما تختفي حياتها القديمة ليحل محلها مستقبلها الجديد بصحبة "خالد"،الذي ينظر إليها بين دقيقة وأخرى مبتسمًا بسعادة، ويزيد من سرعة انطلاقه إلى المنزل.

هو لا يدري أن قلبها يكاد يقفز خارج حنجرتها من فرط الخوف والاضطراب والترقب، وقد زاد قلقها عندما رأته يبتلع ذاك الشيء الصغير الذي أهداه إياه صديقه في الحفل، وتلاه بلفافة تبغ غريبة الشكل رائحتها مقززة، مما جعلها تبتعد في غرفتها وهي تضع يديها فوق صدرها لعلها تهدأ قليلًا أو تجد حلًا ما.

ولكنه لم ينتظرها كثيرًا.. هل سقطت مغشيًا عليها من شدة الخوف، أم من فرط قسوته وهي بين يديه؟ لم يستمع لها وهي ترجوه أن يتركها الليلة فقط، وهل كان في وعيه حتى يستمع لها؟!.وكأنما تجمد احساسه بوجودها، وانتهى منها موليًا ظهره إليها مترنحًا، ثم نام وكأنما أغشي عليه فجأة وأصبح دون حراك.

***

استيقظت في الظهيرة لتجد أمامها شخصًا آخر غير ذاك بالأمس. لقد كان مرحًا للغايةوهو يوقظها هاتفًا:

- يالا يا كسلانه ورانا سفر.

حدقت به بدهشة.. لم تستطع في البداية استيعاب تبدله هكذا، فضلًا عن أن تستوعب حديثه عن السفر وهي تتساءل:

- سفر إيه؟!

جذبها لتنهض من الفراش وهو يقول بغموض:

- هتعرفي بعدين يالا قدامنا ساعة بالكتير وننزل من البيت.

جمعت بعض ملابسها على عجلة منها وهي تتذكر قبل الزواج بأيام عندما طلب منها جواز سفرها ولم يشأ أن يخبرها عن السبب حينها.على أية حال لن يختلف الأمر كثيرًا، ولن يصبح أكثر سوءًا مما واجهته الليلة الماضية.. لقد كانت الأسوأ على الإطلاق، أو هكذا كانت تظن .



- 10-

الشوق حتى الألم،هذا ما شعُرت به فور معرفتها بوجهتهما، وهو يقص عليها بحماس ترتيباته التي خطط لها ليفاجئ ابن عمته.كادت أن تصرخ برغبتها بالعودة، ولكن كيف ذلك وقد حلقت الطائرة وانتهى الأمر.

لاحظ شرودها والتعاسة البادية على وجهها رغم زينتها المتقنة، تناول كفيها بحرص وضغط عليهما معتذرًا بهمس:

- أنا آسف على اللي حصل إمبارح.. والله ماكنتش في وعيي.

توردت وجنتاها حرجًا، محتفظة بابتسامة باهتة وهي تجيبه بخفوت:

- متأكدة من كده.

ابتسم ممتنًا لتفهمها وهو يعتدل مستندًا إلى ظهر مقعده. كان حماسه شديدا للرحلة، فهي المرة الأولى التي يقضي فيها إجازة خاصة منذ زمن ليس بالقصير، وهذه المرة تصحبه عروسه.

لاشك أنه يحب قضاء شهر عسل مميزفي بلد مميزة جديدة، يسافر إليها لأول مرة، ولا ضير أيضاً فى أن يختبر جاذبيته لساعات قليلة بعيداً عنها فلربما حظى بلحظات مميزة أيضاً تكتب فى سجل مغامراته الحافل مما يشعره بالإثارة والتحدي، ولم يكن باستطاعته

تركها وحدها إن لم يكن معها ما يلهيها عنه وينسيها أمره إلا صحبة "هدى وحسام" فهل سيفعل؟!

***

الصدمة حتى الذهول ما جعلته يتصلب مكانه عندما وقعت عينيه عليهما في بهو الفندق. خرج صوت "هدى" فرحا عاليًاوهي تجذبه باتجاه الاستعلامات وقد سمعها "خالد"، فنظر إليهما وهو يلوح بيده لهما، غامزًا بعينه لـ"حسام" زهوًا بذكائه ونجاح مخططه. لقد سمعت هى الأخرى نداء "هدى" ولكنها اختلقت حديثاً ما مع موظفة الإستقبال حتى لا تلتفت إليهما، لا تريد أن تقع عينيها عليه بهذا الشكل، تريد أولاً أن تستمع إلى صوته ثم تلتفت تدريجيا ثم تراه بشكل كامل.

شعرت فى تلك اللحظة بمدى حمقها فابتسمت ساخرة من نفسها، أيتها البلهاء هل تظنين أنك سيغشى عليكِ لمجرد رؤيته دفعة واحدة ؟!،

وحتى وإن تصنعت عدم رؤيته هل تستطيع منع حواسها من الشعور به ! .

عانق "خالد" "حسام" طويلًا، بينما رحبت "هدى" بـ "حبيبة" مقبلة إياها بسعادة كبيرة،واكتفى "حسام" بأن أومأ برأسه بابتسامة خاوية مرحبًا بها.

أبدلت "حبيبة" ملابسها،وأغلقت الستائر واستلقت فوق الفراش الوثير، الذي غاص بجسدها للأسفل هو ووسائدة المريحة مما أعطاها شعور بالإحتواء والراحة، تنتظر "خالد" الذي استأذن منها وخرج متعللًا برغبته بالانفراد بـ"حسام" قليلًا، طابعًا قبلة صغيرة على

وجنتها وهو يعدها بعدم تأخره. كانت في حاجة شديدة إلى النوم بعد التوتر الشديد الذي شعرت به منذ أن رأته في البهو بالأسفل. تململت في الفراش قليلًا،قبل الاستغراق في النوم، لتذهب في أحلام أكثر توترًا، جعلتها تستيقظ متعرقة، وأخيرًا استوعبت أنها كانت تحلم، وأن "خالد" لم يحضربعد.لقد تركت ليلة أمس آثارها في ذاكرتها، وكانت سببًا في كابوس جديد أيقظها. تناولت هاتفها النقال ونظرت إلى الساعة، فرفعت حاجبيها مندهشة. لقد مرت عليها ثلاث ساعات كاملة!

نهضت بتكاسل، لتجلس فوق المقعد المجاور للفراش، وهي تضغط جانب رقبتها الأيمن براحتها، وباليد الأخرى تحاول الاتصال بـ"خالد"؛ لقد تأخر كثيرًا، وقد بدأت معدتها تنذرها بصرخة قوية إن لم تستجب لها.

- أنا آسف يا حبيبتي معلش الكلام خدنا شوية.

أتاه صوتها الخجل وهي تقول بتردد:

- طيب أنا جعانه أوي.

صدرت منه ضحكة قصيرة، وقد أدرك خجلها من أن تطلب الطعام وقال:

- طيب اجهزي وأنا هاجي آخدك في هنا مطاعم جبارة.

ابتسمت وهي تنهض بحماس لتستبدل ملابسها.اختارت ملابس بسيطة، ذات ألوان فاتحة بألوان السماء، وجعلت زينتها بسيطة، تكاد لا تُرى، وعقصت شعرها خلف رأسها، تاركة خصلة صغيرة وحيدة تنسدل فوق جبينها، مما أعطاها مظهرا فاضت منه البساطة والاستعداد لمغامرة ما، في تلك البلاد التي وقعت في غرامها من أول وهلة.

انتهت من وضع لمستها الأخيرة، ونظرت في الهاتف. قررت أن تتحرك وتنتظره في بهو الفندق،عل انشغالها بالمكان يساهم في إسكات الجوعِ الذي يضرب معدتها بضراوة.

ضغطت أزرار المصعد، ثم عدلت عن الفكرة بابتسامة حماسية، واتجهت إلى السلم الواسع قفزًا،كما كانت تفعل أحيانًافي منزلها بالإسكندرية.عندما وصلت للأسفل، وجدت نفسها على بُعد خطوات من المصعد، ومن "حسام" الذي كان يتحدث بضيق إلى "خالد"، وقد وقفا في انتظار نزول المصعد إليهما.

كان يتحدث بصوت مرتفع وهو يعنف"خالد" قائلًا:

- والله أنت ما عندك دم، سايب مراتك ورايح تتسرمح من أول يوم؟

إذن فهو لم يكن معه كما قال لها! فلماذا؟ لم تنتظر كثيرًا، فلقد جاءتها الإجابة..

- ماتحبكهاش بقى يا أخي، دول هما يومين هشوف نفسي فيهم ولما نرجع مصر أبقى أهتم بيها يا سيدي هي هتروح فين يعني؟

وصل المصعد في تلك اللحظة واختفيا بداخله.وجرَت هي قدميها نحو بهو الاستقبال، وجلست على أقرب مقعد صادفها، تجاهد تساؤلاتها المتزاحمة برأسها.ألا يزال"خالد" يظن نفسه أعزبا، ويريد التمتع بقدر من الحرية، قبل الدخول في المسئوليات؟إنه مؤشر إلى زهده فيها وعدم شغفه بها، ومن اليوم الأول لهما معًا!

ثوان أخرى، وأتاها رنين هاتفها، فقررت عدم البوح بما سمعت منذ قليل وأجابته بهدوء:

- أنا تحت في الريسبشن.

دقيقتان ووجدته يخرج من المصعد متجهًا إليها، وما إن وصل إليها حتى قال بقلق واضح:

- قلقتيني عليكي يا "حبيبة"، ما قلتيش ليه إنك هتستنيني تحت؟

تفحصت وجهه للحظة.. يبدو عليه القلق بالفعل.. هو صادق في كلماته. قالت بابتسامة جاهدت على أن تجعلها مرحة:

- خلصت وقلت أتحرك شوية في المكان.

ثم تابعت وهي تضع يدها على معدتها:

- يالا بقى أنا هاموت من الجوع.

ضحك وهو يمسك كفيها بحنان قائلًا:

- حاضر والله بس استني ثواني زمان "حسام" و"هدى" نازلين.

توترت وعبثت بخصلة شعرها متسائلة:

- إيه، ده هما جايين معانا؟

أومأ برأسه وهو يراقب هبوط المصعد قائلًا:

- "حسام" يعرف البلد هنا أكتر مني؛ وبعدين الخروجة الجماعية بتبقى لذيذة.

لم يكن هناك متسع من الوقت لإثارة مناقشة تُعلن فيها رفضها لاقتراحه، فما إن أنهى عبارته، حتى توقف المصعد وخرجا منه وسط مجموعة صغيرة من نزلاء الفندق، واتجها إليهما مباشرة. صمتت

وهي تتوجه ببصرها تجاه "هدى" وحدها، مستقبلة إياها بابتسامة ودودة.

كان وجوده معها في مكان واحد كافٍ لإثارة توترها وحنقها، فلم تستطع أن تستمتع بالغذاء الشهي الذي وضع أمامهم في أحد المطاعم الشهيرة القريبة من شارع الاستقلال، الممتد من ميدان تقسيم، أحد أشهر المناطق السياحية بالعاصمة.

تعمد هو أن يأخذ شهيقًا كبيرًا وهو يشتَم إحدى بتلات الزهورالمرصوصة على حافة النافذة المجاورة له، ويقول بصوت جعله مسموعا وهو مغلق العينين:

- سيني سيفيوروم.

ارتعش جسدها وقد شعرت أن الكلمة موجهة لها، بينما ضحك كلا من" هدى" و"خالد" بدهشة، وقال الأخير ممازحًا:

- ده أنت بقيت تركي مأصل!

ظلت متجهمة متململة في جلستها، حتى انتهى الجميع من تناول طعامهم، وبعد الغداء أخذهم "حسام" في جولة داخل الساحة، بدءًا من النصب التذكاري،وحتى مركز التسوق، والذي قضى على مالديهم من وقت وجهد، بل وأموال أيضًا! وأنهاها بالترام القديم، الذي أقلهم بدوره إلى برج غلتا، أحد أشهر المعالم التاريخية في اسطنبول.

***

ألقت "هدى" جسدها المنهك فوق الفراش، وأغمضت جفنيها بارهاق وهي تقول مبتسمة:

- رغم أني شفت الأماكن دي كتير، لكن استمتعت النهارده جدا.

عندما لم تتلق إجابة، فتحت عينيها، فوجدت "حسام" يبدل ملابسه واجمًا. لم يسمعها منذ البداية، ولذلك لم يعقب! زفرت بقوة وهي تُعيد غلق عينيها مرة أخرى وقالت حانقة:

- اللي يشوفك وانت عمال تتكلم بره مايشوفكش وانت مابتردش هنا!

التفت إليها وهو يقترب من الفراش معتذرًا:

- معلش يا "هدى" دماغي مشغولة شوية.

مطت شفتها بحنق، فاستند بمرفقه إلى الفراش، مبتسمًا ابتسامة واسعة وهو يقول:

- طب ماتزعليش، تحبي نروح الشط بكره؟

***

ابتسمت، وأغمضت عينيها تاركةً الهواء يعبث بشعرها، ليتناثر حول وجهها في غير ترتيب، والمياه تضرب عقبيها وتُدغدغهما برقة، وتُفتت بعض الرمال تحت قدميها. تنفست بعمق وسعادة وهي تستنشق رائحة البحر تتغلل إلى رئتيها، فتذكرها بوطنها الأول "الأسكندرية"! وأصوات الطيور تتناغم مع هدير البحر، لتكتب سيمفونية عذبة بمداد من الطبيعة الخلابة حولها.

اقتربت "هدى" وقالت بمرح:

- أول ما شُفتي المية نسيتي نفسك يا حبيبة"؟

أجابتها دون أن تلتفت:

- طول عمري بانسى نفسي قدام البحر.

ثم التفتت إليها برأسها وهي تنزع نظارتها الشمسية مردفة بمرح:

- بس مابعرفش أعوم.

رفعت"هدى" حاجبيها مندهشة قائلة:

- معقول اسكندرانية ومابتعرفيش تعومي!

ضحكت "حبيبة" وهي ترفع كتفيها بطفولة وهي تقول:

- البس المايوه وانزل في الميه لحد وسطي بس.

تبادلتا الضحكات المرحة للحظات، قبل أن ينضم إليهما "خالد" ويقف بجوار"حبيبة"، ثم يحيط كتفيها بذراعه وهو يقول متسائلًا:

- مش هتنزلوا المية ولا إيه؟

أشارت "هدى" إلى إحدى الكبائن الصغيرة موجهة حديثها إلى "حبيبة":

- شايفة الكابينة دي اللي ورا "حسام" على طول؟.. ممكن تغيري فيها براحتك

وقبل أن تستدير لتذهب قالت متسائلة:

- وانتِ يا"هدى" مش هتغيري؟

حركت "هدى" رأسها نافية وهي تقول:

- لاء معلش يا"حبيبة" أنا أصلي مابحبش المايوهات، وبعدين أنا متعودة أقعد أقرا كتاب قدام البحر روحي انتِ.

ابتعدت خطوات قليلة، فلحق بها"خالد"وقال بنبرة معتذرة:

- معلش يا حبيبتي هسيبك بس نص ساعة وهارجعلك على طول مش هتأخر.

أمسكت ذراعه وقطبت جبينها وهي تهتف بضيق:

- تاني يا "خالد"؟ هتسيبن تاني وتقول لي نص ساعة.. هتروح فين يا "خالد"؟

تناول راحتيها وقبلهما في سرعة قائلًا:

- أنا عارف إني غلطان بس هعمل إيه الراجل ده يادوب اتعرفت عليه امبارح وهينفعني أوي في شغلي.. نص ساعة بس مش هتأخر، ماشي؟.. يالا سلام خلي بالك من نفسك.

نادته مرة أخرى، فلم يجبها وقد ابتعد خطوات كثيرة، كافية لأن يدعي عدم سماع صوتها،الذي ذهب أدراج الرياح.

أرادت أن تغسل حيرتها وضيقها بين الأمواج. ففي كل يوم وكل ساعة تكاد توقن أنها ليست عروسًا تثير شغف زوجها، بل بفتور يدفعها إلى ذاك الإحساس القاتل بعدم الثقة، بكونها أنثى مستحقة أكثر من هذا بكثير .

أسرعت بها خطواتها تجاه الكابينة، بدلت ملابسها وهي تحاول ضبط انفعالاتها،وفتحت الباب وخطت خطوتين للخارج، وقد ارتدت ملابس البحر المكونة من قطعة واحدة سوداء اللون، وحاصرت خصرها بشال أسود شفاف تربطه إلى أحد جنبيها، جعلها تظهر بشكل أكثر فتونًا، وتخفي عينيها وما يعتمل بهما خلف نظارة سوداء قاتمة.

وقبل أن تُكمل خطوتها الثالثة،فاجأتها قبضته تلتف حول معصمها، وبيده تدفعها للخلف باتجاه الباب مرة أخرى، فشهقت وهي تلتفت إليه.امتزج الحنق بخوفها منه وهي ترى عينيه يتطاير الشرر من بركانهما وهو يهدر كالأمواج الثائرة:

- ادخلي حالا غيري الزفت اللي انتِ لابساه ده.

تألمت وهي تحاول تخليص معصمها المسحوق في قبضته..

- سيب إيدي.. وانت مالك إنت ألبس اللي أنا عاوزاه؟

بقبضته الأخرى فتح الباب،دفعها للداخل برفق وهو يشير محذرًا بسبابته:

- قسمًا بالله لو ما غيرتي المايوه ده لهتشوفي "حسام" تاني خالص، ولا هيهمني حد.

أغلق الباب بقوة جعلتها تنتفض، فركت معصمها وهي تنظر إلى أثر قبضته دامعة العينين.

خلعت نظارتها وقذفتها بعنف وهي تصرخ باكية وكأنه أمامها:

- إنت مش وصي عليا..إذا كان جوزي عارف وموافق وسابني ومشي انت اللي هتحميني!

كان لايزال في الخارج؛ وبرغم سخطه عليها، إلا أن صراخها بتلك الكلمات آلمه بشدة.. إنها تموء كالقطة المحبوسة تعاني إهمال صاحبها. بقلة حيلة وانكسار، ترك الباب وعقد يديه فوق صدره، وسار بشرود باتجاه "هدى"،التي تمددت فوق أحد المقاعد الكبيرة أسفل المظلة المفتوحة أمام البحر، منهمكة بالحديث في الهاتف، تنصت تارة وتضحك أخرى. جلس على المقعد المقابل

لها، واتكأ بمرفقيه على فخذيه وهو ينظر إليها بتمعن شديد أربكها، وجعلها تُنهي المكالمة سريعًا..

- طيب يا"سمر" هكلمك كمان شويه مع السلامة دلوقتي.

وضعت الهاتف، والتفتت إليها متسائلة:

- في حاجه يا"حسام"؟

قال دون مقدمات:

- حكيتيلها تفاصيل يومك زي كل مرة؟

قطبت جبينها وهي تمط شفتيها بضجر قائلة:

- قلتلك قبل كده ماما معودانا نحكي معاها كل حاجة!

رفع حاجبية وهو يقول ساخرًا:

- واختك"سمر" معوداكي برضه تحكيلها كل حاجة؟

اعتدلت جالسة بضيق هاتفة:

- في إيه يا "حسام"؟ هي أول مرة يعني تشوفني بحكي مع "سمر"؟ أنا مش فاهمة إنت إيه اللي مضايقك؟

رفع نظارته يلملم بها خصلات شعره المبتل للأعلى، وضيَّق بين عينيه وهو يقول بنبرة منخفضة متوعدة:

- كله إلا علاقتنا الخاصة يا"هدى"..

أشاحت بوجهها مرتبكة وهي تقول بتردد:

- دي كانت مرة واحدة بس اللي اتكلمت فيها في الموضوع ده.

أمسك كتفها بحدة جعلتها تنظر إليه مضطربة وقال متوعدًا:

- أنا حذرتك قبل كده يا "هدى" واديني باحذرك تاني..

تناولت الكتاب الموضوع بجوارها، واستقلت وهي تفتحه، تُخفي بين أوراقه وجهها المحتقن وهي تجيب:

- فاهمة.. لو سمحت بقى سيبني اقرا.

نهض متأففًا عائدًا إلى البحر من جديد، يُلقي بجسده بين أمواجه ويدفعه بقوة بين طياته، سابحًا بضراوة إلى عمقه، لعله يُطفئ بعض ثورته التي نشبت بعد رؤيته لها بملابس البحر الماجنة.كلما تذكرها ضرب المياه بيديه بعنف وقوة أكبر،ينهك جسده ويجبر عقله على النسيان، وهو موقن أنه في هذه اللحظة يخون صديقه،الذي ترك زوجته هكذا بضاعة متاحة.

***

وضع سماعة الهاتف قائلًا بدهشة وهو يضرب كفًا بكف:

- والله مجنون.

نظرت إليه في المرآة وهي تجفف شعرها بالمنشفة متسائلة، فهتف بحنق:

-"حسام" قفل حسابه ومشي من الفندق وهو ومراته من غير ما يقول.

خفضت ذراعيها وهي لازالت ممسكة منشفتها وهي تقول:

- مش كان لسه فاضلهم كام يوم كمان؟

وضع لفافته فوق المطفأة بحرص، وهي مازالت مشتعلة يتصاعد دخانها إلى الأعلى، ونهض واقفا وهو يقول بتفكير:

- الواد ده فيه حاجه مش طبيعية.. كل يوم يبعد عني أكتر من اليوم اللي قبله، ولما بحاول أقرب منه يهرب مش عارف ليه!

عادت بوجهها إلى المرآة مرة أخرى، وأخذت تمشط شعرها بصمت، وكل خلجة منها تصارع الأخرى، بمزيج غريب من السعادة والحزن!

***

منذ ذلك اليوم وهو يتخذ الهرب مسلكًا وطريقًا له، ولقد ساعدته هي علي ذلك، فلقد كان حملها كافيًا للتذرع بتعب الحمل المعتاد، لعدم حضور المناسبات التي قد تجمعهما. شهور عدة وقرارهما بالفرار يزداد ثباتا مع ثبات حملها،حتي مضت في شهرها التاسع تنتظر وقت الفكاك والخلاص، إلا أنها في أحد الأيام اضطرت إلى الانصياع لإلحاح " نور" وقد أظهرت استياءً كبيرًا بسبب امتناع "حبيبة" عن زيارتها. ذهبت إليها مرغمة في زيارة سريعة، وجلست بين يديها معتذرة وهي تتلعثم بحرج:

- والله يا طنط الحمل تاعبني أوي مش قادرة أتحرك.. حضرتك كنتِ بتشوفيني تعبانه إزاي لما بتزورينا؟

زفرت"نور" وقالت:

- خلاص بقى انتِ قربتي تولدي ولازم تتحركي.

صمتت "حبيبة" لا تعلم ماذا تقول، فاستطردت "نور" قائلة بإصرار:

- انتِ هتباتي معايا لحد ما"خالد" يرجع من السفر.

ابتسمت"حبيبة" متهكمة وهي تقول:

- ماتقلقيش عليا يا طنط.. أصلا "خالد" مسافر على طول وأنا ببات لوحدي عادي.

حسمت " نور" الجدال وهي تنهض قائلة:

- ماينفعش أسيبك تباتي لوحدك وانتِ على وش ولادة، والكلام ده مافيهوش نقاش.. أنا هقول لهم يحضروا الغدا.

تابعتها "حبيبة" ببصرها متعجبة، وهي تنصرف بعد أن أنهت عبارتها الآمرة رافضة للنقاش.

لقد أتعبتها تلك الأسرة كثيرًا.. يلقون إليها بالأوامر، وهي ما عليها سوى التنفيذ. ما أدهشها حقًا أن ارتسمت ابتسامة جذلة فوق ثغرها، فلقد اكتشفت أنها تحب خوفهم العنيف عليها إلى حد الجنون!. الخوف الذي تفتقده وسط عائلتها.

- هتنامي في أوضة "حسام" لحد بكره بس.. أصل التكييف في أوضة "خالد" بايظ وأنا مابعرفش أغير مكان نومي. ما تقلقيش، "حسام" من ساعة ما اتجوز مدخلش أوضته تقريبا.

أومأت برأسها متفهمة، وهي تفتح الباب وتلج للداخل ببطء وخجل. تركتها " نور" وذهبت باتجاه غرفتها وهي تقول:

- لو احتجتي حاجه ماتتكسفيش البيت بيتك.. تصبحي على خير.

أغلقت الباب خلفها، واستدارت لتواجه غرفته وحدها اصطدمت أنفها برائحته تعبق المكان.. كان ذلك كافيًا ليثير بداخلها مشاعر كثيرة متداخلة، بين الخجل والقلق والفضول استلقت فوق فراشه بحركة خفيفة، وكأنها تخشى أن توقظه!.توسدت خيالها، وتلحفت

بذهنها الذي أصبح في نقاء صباح ساطع، لا تشوبه غيوم ولا يعكره ضباب.. رسم عقلها صورة مجسمة له وهويقطع الغرفة ذهابًا وإيابًا، يتحرك بين جنبات الحجرة الواسعة، يتكلم، يضحك، يشاكس من حوله بابتسامته الجذابة..ووجدت شفتيها تهمس باسمه دون وعي، وكأنما تناديه.

***

انتفض معتدلًا في جلسته في حركة فُجائية بلا مبرر، بعد أن كان مسترخٍ وهو يشاهد التلفاز، مما جعل "هدى" تفزع وتسأله:

- مالك يا "حسام"؟

التفت إليها بعينين شاردتين دون أن يجيب، فقالت مردفة:

- مالك اتنفضت فجأة كده ليه؟!.. خضتني.

نهض واقفًا وهو يلتقط سلسلة مفاتيحه من فوق الطاولة، ويسرع باتجاه الباب وهو يقول:

- أنا رايح عند ماما.

نهضت وسارت خلفه وهي تقول مندهشة:

- فجأة كده؟!

على عجلة من أمره أدار مقبض الباب وهو يقول:

- معلش يا "هدى" مش هتأخر.

انطلق بالسيارة مسرعًا، وهو يكاد يُقسم بداخله أنه استمع إلى اسمه من بين شفتيها تناديه، وكأنها توقظه من غفلته وتدعوه للنظر نحوها. ولكنه لا يعلم لماذا يتجه إلى منزل والدته.. هناك شيء ما يشده.. هناك من ينتظره، وبشغف!

- 11 -

وقفت أمام خزانة ملابسه والفضول والحنين يصارعانها بقوة مشهران بوجههما سلاح الشوق. رنين هاتفها أخرجها من معركتها الخاسرة، فتوجهت نحو فراشه تلتقط الهاتف وتنظر من المتصل في تلك الساعة المتأخرة.ابتسمت حينما وجدتها صديقتها "ندى"،التي لم ترها منذ أن غادرت الأسكندرية، ولم تهاتفها إلا مرة واحدة عندما وصلت القاهرة ثم انقطعت عنها حتى هذه اللحظة. ضحكت "حبيبة" وهي تتلقى لوم وعتاب صديقتها ثم قالت:

- ده على أساس إن انتِ اللي بتسألي عليا يعني؟

ردت "ندى" بهجوم طفولي:

- يا سلام هو أنا اللي اتجوزت وقطعت علاقتي بصاحبتي!

ازدادت ضحكات "حبيبة" العفوية وقالت وهي تعتذر بمرح:

- آسفه جدا والله ظروفي كانت ملخبطة خالص يا "ندى".

قالت "ندى" بمكر:

- آه طبعا ملخبطة خالص، بصراحه أنا عذراكِ، في واحدة تبقى متجوزة واحد زي جوزك ده وتفتكر نفسها حتى؟

عقدت "حبيبة" حاجبيها وقالت متسائلة:

- وانتِ عرفتي جوزي منين؟

هتفت "ندى" بنزق:

- أنا مافيش حاجه تستخبى عليا يا هانم، ده أنا اللي بعتهولك لحد عندك و اديت له عنوانك في القاهرة.

إتسعت عيني "حبيبة" وخفق قلبها وهى تقول بوجوم :

- مين ده اللي ادتيله عنواني؟

وقع قلبها في أخمص قدميها، عندما قالت "ندى" بتلقائية:

-"حسام" جوزك!

لم تتلق جوابًا، فهتفت بقلق:

-"حبيبة"؟ مالك هو أنا قلت حاجه غلط؟

شعرت بالدماء تتصاعد فجأة إلى وجنتيها وعينيها، وبدأ ألم في مقدمة رأسها يجتاحها وهي تقول بصوت مختنق:

- عرفتي اسمه إزاي مش فاهمة؟

شعرت "ندى" بتوتر صديقتها وقالت بتردد:

- بعد ما سافرتي على طول قابلته بيدور على عنوانك، ولما قلتله إني صاحبتك وإنك نقلتي القاهرة صمم يعرف عنوانك، ولما حس إني قلقانه منه قالي إنه عاوز يتقدملك وإنه كان جاي مخصوص علشان كده.. ولما عرفت إنك إتجوزتي بعدها على طول توقعت إنه يكون هو.

أنهت الحديث مع صديقتها، ذاهلة مما سمعته. هل بحث عنها وعندما وجدها كانت إلى جوار رجل آخر؟ ألهذا تحمل عيناه دومًا عتابًا صامتًا بل غضبًا مدمرًا؟استندت إلى خزانة ملابسه شاردة،

تتخبط بين ذكريات متداخلة مختلطة بدموعها.. كرهت رعونتها وتسرعها في الموافقة على الزواج من "خالد".. لو كانت فقط انتظرت قليلًا!

فتحت الخزانة بحنين كبير وإشفاق على صاحبها البائس، ووقفت بالقرب من ملابسه المعلقة والمرتبة في الرفوف، بابتسامة حزينة بطعم عبراتها المتسابقة إليه منها، وهي تتلمسها بأناملها.

انهارت مقاومتها تماما، ودفنت وجهها بين ستراته تشعر بملمسه فيها، وتستنشق رائحته مغمضة العينين.

ألن يكون رائعًا لو أنها أصبحت نسيجًا، تتخلل ملابسه دون أن يشعر بوجودها؟ارتفع حاجباها أمام ورقة سميكة ترقد في الأسفل وهي تتأمل الملامح المرسومة بداخلها بدقة.. سكن الكون للحظات، إلا من دقات الساعة المعلقة علي الجدار،وعيناها تلتهم الكلمات القليلة المخطوطة أسفل الرسم:

منقذتي هي، أم أنا أنقذتها؟!

احترت في أمري، بل هو في الغالب أمرها

اقتحمت حلمي وغيبوبتي، لا أعلم حتى اسمها

خططت بقلمي أعاقبها، فوجدتني قد رسمتها

لست مراهقًا لأعشق حلمًا، ورغم ذلك عشقتها.

وذيَّل الورقة بتاريخ أول لقاء بينهما.... في القاع!

غريبة هي تلك العلاقة التي كلما ابتعدا برغبتيهما جذبتهما مرة أخرى، ليصطدما ببعضهما بضراوة."إلى متى سيظل قلبي مذبوحًا في محراب قربه البعيد"!

وكأن انفعالاتها الجمة أرسلت إشارة إلي رحمها ببداية المخاض.. قبضت علي ملابسه بقوة، وسقطت بها وهي تصرخ.

كان في تلك اللحظة يغلق باب الشقة خلفه، وعندما سمع صرختها هرول للداخل مسرعًا، وقبل أن يصل إلى غرفته اصطدم بوالدته تخرج من غرفتها بهلع، تحول لصدمة عندما رأته!.

تخطى نظراتها المصدومة، وأسرع إلى الداخل.. اقتحم الغرفة، فوجدها راكعة أرضا بجوار الخزانة، تئن من شدة الألم.

هتف باسمها وهو يحملها بين ذراعيه، تشبثت به كغريق وجد النجاة بقرصان بائس، حاولت والدته أن تتخطى دهشتها مما رأت وأن تتعامل مع الموقف وتوجهه، وهي تتناول هاتف حبيبة قائلة:

- نزلها العربية على ما اتصل بالدكتورة وأغير هدومي.

وفي الأسفل، ساعده حارس العقار وفتح له باب السيارة الخلفي. وضعها برفق وظل يجفف جبينها المتعرق بقلق شديد، حتي شعر بيد والدته توضع علي كتفه من الخلف وهي تقول:

- يالا يا حسام.

انطلق بسرعة كبيرة، وهو ينظر إليها بين الحين والآخر في مرآته، وأنينها يشق صدره، ووالدته بالخلف إلى جوارها تهتف به أن يخفف سرعته قليلًا. وصل المشفى قبل الطبيبة بدقائق،فأحضر له الأمن كرسيًامتحركًا ووقفت والدته أمام موظفة الإستقبال التي قالت ببرود لا يتناسب مع الموقف الحرج :

- آسفين يا فندم مينفعش نستقبل المريضة قبل ما الدكتورة تكلمنا وتقولنا أوكيه

زفرت نور بعصبية هاتفة:

- قولتلك كلمناها قبل ما نيجي وبحاول أكلمها قدامك أهو ومابتردش هاتسبوها تموت يعني لحد ما الدكتورة تيجي

إستند طبيب حديث السن بمرفقه إلي الجدار وهو يؤكد كلام الموظفة بنفس البرود وقبل أن ينهي كلمته كانت قبضة حسام تمسك بتلابيبه وتجذبه إليه وهو يصيح فيهما :

- هي أرواح الناس لعبة في إيديكوا

حاول الطبيب التفلت منه وهو يبادله الصياح:

- كدة .. طب خد بقي مراتك واتفضل من هنا

أخذ بعدها ما يستحقه تماماً، لكمة في أنفه كانت كفيلة بإدمائها والإطاحة به وتحطيم نظارته الطبية ، تجمع العاملين حولهما وتدخل الأطباء الكبار في الحال عندما لفت إنتابههم تلك الجلبة ورؤيتهم لحالة"حبيبة"

وصعدوا بها للأعلى، وتبعتهم"نور" ثم"حسام". قبل أن يستقل المصعد خلفهم، لحقت به إحدى الممرضات قائلة بخوف من ردة فعله التى رأت نبذة عنها منذ قليل :

- معلش يا فندم ممكن بس البيانات علشان الموظفة تسجلها عندها؟

لم يكن يعلم ماهي البيانات المطلوبة علي وجه التحديد، فأعطاها بطاقته الشخصية فقالت بتعثر:

- وبيانات المدام؟

قال بحيرة ممزوجة بالغضب :

- مش معايا دلوقتي تعالي خديها من فوق.

صعدت معه بحذر في المصعد، وهي تفكر في ذلك الإعصار الساكن بجوارها. تناولت بطاقة "حبيبة" الشخصية من "نور"، وانصرفت علي الفور بخطوات تقترب للعدو وقد أنجزت تلك المهمة المستحيلة التى كلفتها بها الموظفة المذعورة .

***

للمرة الأولى تشعر بسعادة حقيقية، وبمعنى حقيقي لوجودها في تلك الحياة، معنى أن ينتمي لها مخلوق يحتاج إلى رعايتها.

اقتربت "سلمى" منهما بابتسامتها الطفولية، وحاولت حمل الصغيرة وهي تقول:

- هاتيها ألعب بيها شوية يا"حبيبة"!

بينما مسحت والدتها علي رأس الصغيرة وهي تقول باهتمام:

- مين اللي سماها"حنين"

وقبل أن تجيبها "نور"، قالت"حبيبة"علي الفور:

- أنا و"خالد" اتفقنا على الاسم ده.

ثم تابعت متسائلة:

- هو بابا فين؟.. مجاش معاكم؟

تفحصتها "نور" بعينيها باحثة عن شيء ما وجدته بعيني ولدها وهما يقفان خارج حجرة الجراحة وهي تقول بهدوء:

- مع"حسام" بره.

أغمضت عينيها وأرخت رأسها إلي الوسادة الكبيرة خلف ظهرها، تاركة الطفلة بين يدي والدتها، وهي تفكر في حديث الممرضة التي دلفت معها إلي الحمام، تساعدها في تبديل ملابس الجراحة، وظلت تصف لها قلق "حسام" عليها وهي في غرفة العمليات، عندما أخبرتهما الطبيبة أن الولادة متعسرة وينبغي إجراء جراحة قيصرية. بقيت صامتة تستمع إلى استرسالها في الحديث ظنًامنها أنه زوجها.

مازال الجرح أسفل بطنها يؤلمها بشدة ولكن الألم الحقيقي هو غياب زوجها في موقف كهذا، تاركًا غيره ليقوم بدوره، بل ويقوم به بإتقان، كما لو كان دوره هو حقًا. وكأنه معتاد على القيام بأدوار البطولة دومًا.

عادت إلى واقعها، عندما لفت انتباهها صوت "نور" تجيب هاتفها وتتحدث إلي "حسام" بنبرة حادة مختلفة عن عادتها في الحديث معه قائلة:

- قلتلك خليه يدخل مافيش مشكلة.

دخل "راغب" بصحبة والدها، وبقي "حسام" عند الباب خلف الجميع، يراقب تصرفات "راغب" عن كثب.لكنه بعد دقائق، تقدم باتجاه"فريدة" والدة"حبيبة" وهو يهم بحمل الصغيرة قائلا:

- تعالي يا"حنين" وحشتيني يا روحي.

ابتسم الجميع وهو يأخذها ويبتعد بها، ليعود إلى مكانه في الخلف منشغلًا بالطفلة عنهم، أو هكذا تظاهر بالانشغال، وخصيصًا عن تلك الأعين التي تراقب ابتسامته في الخفاء، وهو يداعب ابنتها بحنان، بينما قالت" نشوى" بفضول:

- لما انت بتحب الأطفال كده مأجلين الخلفة ليه؟

امتقع وجه "هدى" وهي تقول ببطء:

- إحنا مش مأجلين بس لسه ماحصلش نصيب.

رفعت " نشوى" حاجبيها وهي تتابع متسائلة:

- معقول؟... طب مارحتوش لدكتور؟

ضاق بها ذرعًا، ولكنه أراد أن يحسم الأمر، فقال بفتور دون أن ينظر إليها:

- رحنا طبعا وماحدش فينا عنده مشكلة.. زي ما قالتلك كده لسه ماحصلش نصيب.

لمعت عينا "هدى" بالدموع، واستأذنت منهم وانصرفت. تبعها "حسام" وهو مازال يحمل الطفلة،فأوقفها في الممر وحاول تهدئتها:

- ماتزعليش نفسك دي واحدة حشرية.

قالت بعصبية:

- إنت بتكلمني بشفقة كده ليه زي ما يكون العيب فيا؟

حاول أن يتحكم بأعصابه وقال وهو يضغط أسنانه:

- قلتلك مليون مره ماتعليش صوتك وانتِ بتكلميني.

نظرت إلي الطفلة ثم عادت بنظرها إليه وقالت بضعف:

- حنيت للأطفال؟ وممكن تكون كمان بتفكر تتجوز علشان تخلف!

رفع رأسه للأعلى وتنفس ببطء قبل أن يجيبها:

- جواز إيه بس! وبعدين انتِ بتفكري كده ليه؟ هو انتِ فيكي مشكلة علشان تقولي كدة؟! بكرة لما ربنا يأذن هنخلف شيلي الكلام الفاضي ده من دماغك.. ممكن؟

تماسكت وعادت إليها قوتها المتعجرفة وهي تخرج هاتفها قائلة:

- طب أنا هاخد العربية وهاقابل "سمر" وبعدين نروح عند ماما.

أومأ برأسه موافقًا وهو يقول:

- ماشي بس ماتتأخريش.. أنا مش عارف هاروح إمتى أديكي شايفه "خالد" مش موجود ولازم أفضل معاهم.

انصرفت "هدى"، بينما قطع هو الممر إلى الغرفة مرة أخرى. وقبل أن يصل إليها، سمع ممرضة تناديه، فتوقف والتفت إليها، مدت يدها بورقة متوسطة الحجم، وتحدثت معه قليلًا، وانصرفت فرحة بعد أن نقدها ورقة مالية كبيرة.

جلس إلي أحد المقاعد وهو يقرأ ما دون بداخلها. إخطار ولادة!، ضم "حنين" إلى صدره برفق وحنان بالغين، وهو يقرأ اسم الأب الذي دون بالخطأ خلف اسمها بصوت مسموع: "حنين حسام مصطفى الصياد"!

مشاعر جمة عصفت به، نعم هو يعرف أنه حدث خطأ، ولكنه أحبه وبشدة. أحب أن تنتمي إليه، ولو لساعات فقط، ولو بالخطأ. إنه يعني له الكثير.ارتسمت ابتسامة عبثية على شفتيه، إلا أن صوت "راغب" انتزعه من بين أشواك غرامه وخياله الثائر، وهو يقول ساخرا:

- مبروك.. اللي جابلك يخليلك يا حسام باشا.

رفع رأسه إليه وقد نحى عاطفته جانبا، وهوينظر إلى عينيه قائلا:

- أنا مش سبق وقلتلك تتجنبني خالص يابني آدم إنت؟

أشار "راغب" إلى الورقة بين أصابع "حسام"، وهو يرفع كتفيه مصطنعا البراءة وهو يقول:

- أعمل إيه بس يا باشا، القدر هو اللي بيحطني في سكتك دايما!

قهقه حسام ساخرا وهو يقول:

- إيه جاي تبتزني المرة دي بإخطار ولادة اتكتب بالغلط؟

نظر"راغب" إلى الطفلة، ثم نظر إلى"حسام" بمكر قائلا:

- متأكد إنه بالغلط يا باشا؟

ثم استدرك بخفوت خبيث:

- شبهك أوي على فكرة.

كان سيتلقى لكمة مشابهة للتي تلقاها في المرة الأولى، عندما ابتزه في مكتبه بالحديث الذي دار بينه وبين "حبيبة" فوق متن السفينة، ولكن باب الغرفة فُتح، وقد انتهت عائلتها من زيارتها. ، رحل"راغب" معهم وعلى شفتيه ابتسامة مقهورة.

"حسام ليس بالصيد الهين أبدًا، كيف أبدأ بالصياد وأترك الفريسة؟"، تبدلت ابتسامته إلى أخرى ماكرة. بالتأكيد ستكون هي الأسهل حينما يقرر التهامها؛ ولكن في الوقت المناسب.

لم يبق سواه ووالدته، فبقي هو في الخارج وحيدًا، يعبث بجهازه المحمول، يمرر أصابعه فوق شاشته بلا هدف، حتى حل المساء بصحبة "خالد" الذي حضرفور أن فتح هاتفه وقرأ رسالة "نور" تخبره وتدعوه للمجيء في الحال.

أمطرت عيناه زخات متوالية من الدمع الغزير، وهو يحتضن ابنته مقبلًا أطراف أصابعها الصغيرة، معتذرا لها وحدها عن عدم حضوره لحظة خروجها للحياة.

عقبت "حبيبة" بعتاب قائلة:

- طب وأم حنين مالهاش نصيب من الاعتذرات دي كلها؟

ابتسم وقبل يدها معتذرًا، ثم عاد سريعًا بكيانه كله لابنته متأملًا ومداعبًا.

أخرج "حسام" الإخطار مادًا به يده إلي "خالد" قائلا:

- حصل غلط في البيانات.. انزل صلحه تحت علشان أنا عامل معاهم مشكلة أصلًا.

ابتسم "خالد" وهو ينظر إلى الأسماء المدونة بالخطأ وقال ممتنًا:

- متشكر أوي يا "حسام" على وقفتك دي.

قال حسام شاردًا وهو يتأمل "حنين" قائلًا:

- متشكر على إيه يا "خالد" حنين بنتي زي ماهي بنتك.

تنحنحت "نور" وهي تلتفت إلى "حسام" قائلة بحسم:

- كفاية عليك كده بقى إنت صاحي من امبارح.. يالا روح ارتاح شوية.

نظر إلي "حبيبة" نظرة طويلة ثم قال بهدوء:

- حمد الله على سلامتك.

تعمدت ألا تتلاقى عيناهما وهي تجيبه..

- الله يسلمك.

مستغلة انشغال "حبيبة" بطفلتها تهدهدها لتنام على صدرها،أمسكت "نور" بذراع "خالد" لتجذبه إليها قليلًا وهي تقول بضيق:

- كنت فين يا "خالد"؟

همس وهو يلتفت إليها بدهشة:

- ما انتِ عارفه يا عمتو.. كنت مسافر.

ضيقت ما بين عينيها وهي تضغط ذراعه بغضب خافت قائلة:

- أنت هتستهبل يا "خالد"؟ أنت فتحت تليفونك وقريت الرسالة قبل ما تيجي هنا بنص ساعه بس.

تنحنح وهو يحاول تأليف كذبة ما، وقال بخفوت متعثر بين كلماته:

- أصلي كنت جاي في الطريق.. وشفت الرسالة..

نهرته بعينيها بصمت، فبتر عباراته المشوهة، وتركها عائدًا إلى مقعده بجوار فراش زوجته، ممسكًا بأنامل الصغيرة، وهو يحاول تحاشي النظر إلى عمته،التي أدركت لأي مدى ترك "خالد" زوجته

تعاني فراغا قد يملأه آخر دون عناء لو كان هذا الآخر شخصا لا تعرفه، لصبت جام غضبها على "حبيبة"، أما وقد عرفته، فلابد وأن يأخذ غضبها منحى آخر، منحى من يستحقه.

***

دخل بيته، فوجدها غارقة في نوم عميق. أغمض عينيه براحة، وهو يغلق باب غرفة النوم بهدوء، فهو لم يكن في حالة تسمح بالحديث معها أو مع غيرها، وخصيصًا بعد تلك الرسالة التي تلقاها وهو في طريقه إلى المنزل، تلك الرسالة الغريبة التي قرأها بعينين ذاهلتين، لا يكاد يصدق ما بها..

" أنا عارفةانت عاوز إيه وهاساعدك بكل جهدي.. أنا مش عاوزة غير رضاك.. فكر ورد عليا.. نشوى"!.

لم يكن أحمق إلى حد التصديق الحرفي، ولكنها فرصة تستحق التفكير على الأقل!

هبط إلي الطابق الأسفل، حيث حجرة مكتبه التي دلف إليها أغلق المصباح الضعيف، الذي كان بالكاد يضيئها، فسبحت الحجرة في ظلام دامس. جلس بالأرض مستندًا بظهره إلى أحد جانبي المكتب الخشبي الكبير أسفل النافذة، وعقد أصابعه خلف رأسه، مستندًا إلى ركبتيه، وراح يسقط في بئر مظلم لا آخر له، تتخبطه مشاعره بين الوفاء والخيانة، والحب والغيرة، والغضب.. ومشاعر الأبوة الغريبة التي طرأت عليه، عندما حمل "حنين" لأول مرة بعد ولادتها مباشرة. لقد شعر أنها ابنته حقا.. ولم لا، فهي تشبهه إلي درجة كبيرة.

ثارت مشاعره في تلك اللحظة، وفاضت إلى حد الغليان. هل كانت تفكر بي إلي هذا الحد؟ هل ضاعت منها ليالٍ طويلة شاردة مع ذكرياتنا القليلة معًا؟ نقشت فنار ملامحي بداخلها، وصارت ترحل منها وإليها في رحلة إبحار ليلية، تتخبط بين جدائلها، وجهتها نحوي ذاتية، معذبتي هي أنثى القمر، دمعتها دومًا سادية.

حرر يديه وزفر بقوة، ثم ضرب خلف رأسه إلى المكتب يريد أن يحطمها.. صراع وحشي يدور بداخلها، لا يهدأ ولا ينام.. لا يريد أن يخون، ولكن ماذا يفعل بقلبه.إلى متى هذا العذاب؟ إلى متى؟

في الصباح، أيقظته هدى بهزات قوية، جعلته ينتفض جالسًا، بالكاد يفتح عينيه بصعوبة هاتفًا:

- انتِ مش هتبطلي طريقة المخبرين دي بقى.. نفسي أحس إني نايم في بيتي مش في العنبر.

عقدت ذراعيها فوق صدرها تزفر متسائلة:

- إنت إيه اللي نيمك هنا في المكتب؟

مسح وجهه ليزيل آثار الإرهاق البادية عليه قائلًا:

- كان عندي شغل وراحت عليا نومة.. هي الساعة كام دلوقتي؟

أشارت إلي الساعة المعلقة وهي تقول:

- سته ونص.

ابتسم بسخرية وهو يضرب كفًا بكف وهو يقول:

- المفروض بقى ألحق الطابور بدل ما تدوريني مكتب؟

رفعت حاجبيها بدهشة، عندما تابع وهو ينهض ويؤدي التحية العسكرية قائلًا:

- تمام يا حضرة الصول.

انصرف ساخرًا، فلم تتعجب، فهما يتجادلان هكذا منذ أول يوم لهما سويًا.. هو يريدها رقيقة مشاغبة عفوية وتلقائية، وهي تريده منضبطًا لأقصى درجات الانضباط، كما كانت ترى والدها دومًا، كل شيء بميعاد. حتي أوقات الحب تضع لها جدولا ومواعيد، فكيف ستتفق مع رجلٍ ينسى نومه، ويؤجل طعامه، ولا يقوى على تأجيل رغباته المتقدة دومًا.

***

كان على يقين أن والدته قد قضت ليلتها في المشفى بجوار "حبيبة"، وهو يغلق الباب خلفه ويلقي التحية على الخادمة، التي كانت تقوم بأعمال التنظيف في غرفة المعيشة.

أسرع إلى غرفته وهو يتمنى ألا تكون الخادمة قد بدأت بها، وابتسم عندما وجدها على حالها كما تركها، كل شيء كما هو، مبعثر على إثر سقطتها. أوصد الباب خلفه، واتجه إلي خزانته يتفحص الملابس والصورة، فوجد ما كان يتمناه.. أثر شفتيها بلونه الوردي مطبوعا فوق إحدى ستراته.. لقد قبلتها ولم تلحظ الأثر الذي تركته خلفها.تذكر الممرضة وهي تخرج من غرفة الجراحة مقبلة عليه بابتسامة واسعة، وهي تحمل الصغيرة بين يديها وتضعها بين ذراعيه وتقول:

- ألف مبروك يا"حسام" بيه بنوته زى القمر.

وعندما سألها عن"حبيبة" قالت:

- المدام كويسه الحمد لله.. من ساعة ما ابتدت تفوق من البنج وهي بتنادي على حضرتك ربنا يخليكم لبعض.

اشتم رائحتها بقوة بين ملابسه، مغمض العينين وهو يتخيلها تحتضن ستراته وتقبلها بحب مبتسمة.

أخذ سترته الذي نقش عليها أثر حبها، وذهب إلى فراشه وجلس على طرفه وأخذ يتحسسه.. لقد كانت هنا، هل احتضنت ملابسي أولا، أم نامت في فراشي في البداية؟ من أين بدأ الشوق ياترى؟.

لمعت عيناه غراما ولهفة، وبدأ شيطانه يلعب برأسه ونفسه تزين له الأمر، وقبضته تسحق ملابسه بداخلها سحقًا عنيفًا.. إنها لي منذ البداية.. هو من اقتحم حياتها وفرق بيننا.. هو من خانني ويخونني، اختطفها وأبعدها عني.. تركته مرة وفرطت في حقي، أما الآن فلا، فهي لي، ملكي وحدي مهما حدث، ومهما كانت الخسائر.

- 12 -

التفتت "نور" لتواجه زائرها، وفي عينيها بريق غاضب ممزوج بأسئلة حائرة وإجابات ضائعة، وهي تتابع دخوله إلى الغرفة وإغلاقه للباب خلفه بهدوء حذر وقفت صامتة في مواجهته، تراقب ملامحه المترقبة المتشنجة، أعصابه على المحك منتظرًا حكمًا بالإعدام لمشاعره ونبضات قلبه.

عقدت ذراعيها فوق صدرها وهي تقول بجمود:

- أخيرًا جيت.. بقالك شهرين بتتهرب مني..كل ما أكلمك تقول لي مشغول وتأجل.

أرسل تنهيدة قوية وهو يلقي حزمة مفاتيحه فوق المنضدة المقابلة للمقعد الذي ألقى جسده فوقه بإنهاك وهو يجيب:

- معلش يا ماما كنت مشغول شوية.

ارتفع حاجباها ساخرة، وهي تجلس بالمقعد المقابل له، وتضع ساقًا فوق الأخرى، ببطء أتلف ما تبقى من أعصابه..

- من غير لف ولا دوران.. أنا عاوزه أفهم إيه الحكاية بالظبط.. الصورة اللي شفتها بتاريخ قديم.. وهي تقول اسمك في البنج..

النظرات الغريبة اللي بينكم.. إيه اللي بينك وبين "حبيبة" يا "حسام"؟

شبك أصابع كفيه وهو ينظر إليها مستندًا بمرفقيه إلى فخذيه وهو يتمتم:

- معاكي حق يا ماما.. الموضوع مش محتمل لف ولا دوران وأنا هحكيلك كل حاجة من ساعة ما شفتهالحد دلوقتي.

اتسعت عيناها دهشة وعدم تصديق، وهو مسترسل بحكيه، بكلمات سريعة أحيانًا وبطيئة أحيانًا أخرى، يتحدث بتأثر وكأنه يرى المشاهد تتجسد أمام عينيه.استوقفته متسائلة بحذر:

- اليوم ده اللي قلت لي إنك هتروح تشوف شقتنا القديمة في أكتوبر؟

أومأ برأسه مؤكدًا وهو يجيب:

- أيوه.. مش عارف إيه اللي خلاني فجأة قررت أروح.. في اليوم ده وفي الوقت ده بالذات!.. ولما شفت العربية داخله في الرمل مشيت وراهم من غير سبب.

صمتت وتركته يستأنف حديثه.. وأخيرًا توقف، وقد انتهى وشعر بالاختناق، وأخذ يلهث بخفوت محاولًا السيطرة على البقية المتبقية من تماسكه أمامها، محاولًا قراءة ملامح وجهها،التي تعبر وبصدق عن الصدمة.

لم تكن تتخيل أن العلاقة بينهما بهذا الترابط غير المفهوم. لولا أنها تعرف ولدها جيدًا، لظنت أنه يختلق الأكاذيب أو فقد عقله.

ولكن الوضع خطر، ولا يحتمل أي تعاطف من جانبها تجاه قصتهما. نهضت واقفة وهي تقول بحزم:

- البنت دي لازم تنساها وبأي شكل يا "حسام".

ابتسم بمرارة وهو يقول:

- بعد كل اللي حكتهولك ده متصورة اننا نقدر ننسي بعض!

تقدمت منه خطوات قليلة، وقد زاد الحزم في صوتها واختلط بالقسوة قائلة:

- يعنى إيه الكلام ده؟.. هتفضل تحب مراته وتجري وراها؟

اشتعل الموقف دفعة واحدة وهو ينهض ثائرًا هاتفًا بغضب مكبوت:

- مراته؟!!..مراته اللي عنيها كلها تعاسة وحزن من ساعة ما ارتبطت بيه؟.. مراته اللي بيخونها من أول يوم جواز؟..مراته اللي كانت بتتوجع وبتصرخ في المستشفى وهو مع واحدة تانية وانتِ عارفة كده كويس؟ ولا بنته اللي من ساعة ما اتولدت وأنا كل ما اتصل بيه أسأله عنها يقول لي مااعرفش.. مابشوفهاش.. بارجع متأخر وبانزل وهي لسه نايمة!

هتفت ساخطة:

- وإنت إيه... ملاك؟ مابتخونش مراتك بقلبك على الأقل؟ مابتجريش ورا واحدة متجوزة؟ لأ وإيه.. دي مش متجوزة أي واحد.. ده "خالد".. "خالد" يا "حسام".. صاحب عمرك.. اللي كنت بتدافع عنه بروحك، واللي كنت بترمي نفسك في مصايب علشان تطلعه منها.

أنهت كلماتها، ولم يتبق سوى صوت أنفاسهما اللاهثة ونظراتهما الغاضبة المتحدية. سرت قشعريرة بجسدها، عندما سمعته يقول بنبرة قاسية ونظرة مخيفة:

- مابقاش صاحب عمري من يوم ما لمسها.

أمسكت بيديه تهزه بقوة وهي تكاد ترتعد من فرط انفعالها الزائد قائلة:

- دي مراته يا مجنون.. مراته!

ابتعد عنها وتقدم نحو النافذة، ونظر إلى الخيوط الذهبية التي تكاد تنسحب من الأفق وتغيب بعد نهار طويل، فألقت حمرتها داخل عينيه وفوق صفحة وجهه، لتضيف لملامحه مسحة برية متوحشة وهو يقول بجمود:

- "حبيبة" بتاعتي.. ملكي.. وهو اللي خدها مني.. وأنا مش هسيب حقي.. حتى لو اضطريت اقتله.

همهمت بذهول:

- مجنون!

***

بداخل فستان طويل منسدل بلا أكمام، يعلوه شال أسود من نفس اللون، شفاف محيط بكتفيها، خطت خطواتها الأولى بداخل فيلا "حسام" و"هدى"، متعلقة بذراع زوجها. بابتسامة متوترة مرتبكة نظرت إلى "خالد"،الذي أطلق صفيرًا منغمًا وهو ينظر حوله وللأعلى قائلا:

-"حسام" عمل تعديلات جامدة أوي في الفيلا.

ثم التفت إليها متسائلًا:

- أظن أول مرة تيجي هنا يا "حبيبة"؟

أومأت برأسها وهي تتلفت حولها بإعجاب شديد بذوقه الرومانسي الواضح في اختياره لأماكن توزيع الإضاءة الدافئة، المزروعة بين أغصان حديقة المنزل الصغيرة نوعًا، ووسط الحشائش، مما أعطاها تداخلا ساحرًا بين ألوانها الحميمية.

تأملت القلب الوردي المنمق والمعلق فوق الباب الخشبي الكبير الداخلي للفيلا، والمنسدلة منه أشرطة ملونة متوهجة، وابتسمت وهي تشير بسبابتها قائلة:

- بص يا "خالد" صورة مين دي؟

نظر حيث أشارت إلى الصورة التي تتوسط القلب الوردي، فابتسم بدوره معقبًا:

- "حسام" مهتم بـ"حنين" أوي.

اختفت ابتسامتها ونظرت إليه معاتبة وهي تُتمتم:

- عقبال ما أبوها يهتم بيها شوية.

زفر متأففًا وهو يأخذ بيدها إلى الداخل غير معقب. لايريد أن يدخل في مساجلة كلامية إضافية، يكفي ما يحدث بينهما كل يوم من مشاحنات، بسبب إهماله وعدم اهتمامه بها أو بابنته حديثة الولادة.

استقبلتهما "هدى" في الداخل بحفاوة كبيرة وابتسامة رحبة ابتسمت "حبيبة" ابتسامة مجاملة، وهي تستمع إلى ثرثرتها حول الحفل والمدعوين.

دارت بعينيها سريعًا في المكان بفضول.. لقد كانت الفيلا أقل مساحة وأبسط بكثير مما تظهر به من الخارج، طابقان فقط لم تر منهما سوى الطابق الأول حيث الحفل التحف النادرة الثمينة، المقاعد الكلاسيكية الموضوعة في الزوايا بشكل متناسق، ذوق الأثاث يتطابق إلى درجة كبيرة مع شخصية "هدى" المحبة للفخامة في كل شيء والترتيب المبالغ فيه، بحيث كل قطعة في مكانها تمامًا، وكأن المنزل بلا أحياء، تستطيع أن تجزم أن هذا الترتيب المبالغ فيه لا يعجب "حسام" على الإطلاق.

عن اليمين غرفة مكتبه المغلقة، بأبوابها الزجاجية المصقولة لفت نظرها ركن مصمم على الطريقة الإنجليزية القديمة، تحتله أريكة مريحة أمام مدفئة غير مشتعلة، يشغل الجانب الأيمن لها شاشة عرض معلقة على الجدار في مواجهة الأريكة تمامًا.

الركن به حميمية ساحرة غريبة، عيناها لم ترها من قبل. قطبت وهي تتخيلهما يجلسان ها هنا سويًا، يحتسيان مشروبهما المفضل أمام شاشة التلفاز العريضة، ويتبادلان الأحاديث والضحكات.

انتفضت فجأة، عندما سمعت همسه من خلفها، بصوت دائمًا ما يثير الرجفة بداخلها وهو يقول:

- بقعد هنا لوحدي على فكرة.

أجفلت وهي تلتفت إليه. كانت من المرات المعدودة التي تراه فيها بحلة رسمية سوداء، مما أظهر فيه جانب رجل الأعمال الثري،التي يختفى ببراعة خلف نوعية ملابسه البسيطة التي يعشقها ولا يرتدي غيرها في معظم يومه، والتي تكسبه مظهرًا بريًاخطرًا. توهمت بأن نسمة رقيقة لا تعلم مصدرها قد هبت من أجلها

تلفحها، فشعرت ببرودة خفيفة، وجذبت شالها فوق كتفيها باعتناء خاص.

فتابع مردفًا:

- أحيانًا.

عبثت بتلقائية بخصلات متهدلة فوق رقبتها من شعرها المرفوع، محاولة إخفاء دهشتها، ولكن هل مازالت تصاب بالدهشة لذاك التواصل الذي يجعل من السهل قراءة أفكار بعضهما البعض بتلك السهولة؟! هذا ما لمعت به عيناه، ولمحته من نظرة واحدة إليه. وقبل أن تمنحه ردًا خاويًا، فوجئت بـ" نور" تتقدم منهما، حتى وقفت بجوارها وفي عينيها نظرة صارمة موجهةً لكليهما، ولكنها اختارت "حبيبة" لتوجه لها كلماتها القاسية:

- المفروض تسلمي على الناس الأول يا "حبيبة".. ولا إيه؟

احتقن وجهها وهي تنظر حولها بارتباك قائلة:

- أنا كنت مع "خالد" و"هدى" ومش عارفة سابوني وراحوا فين؟

ظهرت ابتسامة ساخرة على شفتيها، معلنة بقوة عن موقفها الهجومي تجاهها وهي تقول:

- انتِ اللي سرحتي ونسيتي نفسك.

خفق قلبها بقوة وهي تقرأ تلميحات صريحة في عيني "نور" وكلماتها الغاضبة واللاذعة.. إلى ماذا تُلمح؟ هل عرفت شيئًا عنا؟ ولكن كيف؟!.. هل هو من صرح لها، أم ماذا؟

أجفلت حينما شعرت بيد "نور" تلمس ظهرها، لتدفعها للسير معها بهدوء بعيدًا عن "حسام"،الذي رمقها بنظرة تشجيعية دافئة،

قبل أن تشيح بوجهها عنه، عازمة على أن تكون نظرتها الأخيرة في تلك الليلة، ولكن هل ستُفلح؟

حاولت أن تندمج مع المدعويين راسمة على شفتيها ابتسامة مجاملة، وهي تمنح كلمات مقتضبة على هذا السؤال وتلك المجاملة.

بحثت بعينيها عن "خالد"، فوجدته مندمجًا بالحديث مع "سمر" أخت "هدى" الصغرى، وضحكاته الرنانة تملأ المكان متداخلة مع صوت الموسيقى الهادئة،التي تنبعث من زوايا خفية. أخفت شعورًا بداخلها بالضيق وهي تتساءل لماذا لا ترى تلك الضحكات والكلمات المنمقة في منزلهما.. لماذا يظهر دائما بمظهر لامع جذاب ومرح أمام الناس، أما معها هي فلا يمنحها سوى الفتات؟.

لاحظت انزواء "حسام" قليلًا وهو يتحدث إلى "نشوى" في أحد الأركان، فيما يبدو أنه حديث هام، لما يظهر عليه من تفكير عميق. ترى ماذا يحدث هناك؟

رفع حاجبيه وهو يتأملها بعين خبير وهو يقول ببطء:

- لسه لحد دلوقتي مش قادر أوصل للي انتِ عاوزاه يا "نشوى"!

دللت كأس العصير بين راحتيها وهي تقول بثقة:

- أنا مش فاهمة إنت قلقان من إيه.. أنا كلمتك بصراحة خليك صريح إنت كمان

دس كفيه بجيبي سرواله الأسود الأنيق، وهو مازال حائرًا في العرض الذي تقدمه له بكل صراحة ووضوح، وقد كشفت له عن

كيفية معرفتها بما هو عالق بينه وبين أختها، منذ أن استمعت للحديث الثائر الذي دار بينهما على متن السفينة يوم خطبته، وقد استشف من حديثها أن"راغب" علم بأمرهما عن طريقها هي.

ستساعده بإقناع "حبيبة" بطلب الطلاق من زوجها، وبأن "حسام" هو الأجدر بها. ستسعى إلى التقريب بينهما بشتى الطرق، عن طريق نقل أخبارها إليه تفصيليًا، لتفسح له المجال للانفراد بها ومحاولة التأثير عليها..تزين كلماتها بتعبيرات لا حياة فيها عن حبها لأختها الصغرى وحرصها على مصلحتها العرض شهي من وجهة نظره، ولكن ما أهمية ذلك بالنسبة لـ"نشوى"؟ لم تكن إجابتها مقنعة بما فيه الكفاية عندما قالت:

- مش عاوزة غير رضاك.

نعم منحته ردًا وقحًا، يرضي غروره كرجل على الأقل. ولكنه لم يقنع عقله أبدًا، وبدا متناقضا بشدة مع ما تعرضه من مساعدة. كيف تريده وفي نفس الوقت تُعبِّد له الطريق للوصول لامرأة أخرى؟! لم يناقشها، بل رسم على وجهه لامبالاة، لا تتناسب وما يعتمل بداخله من صراع، وأومأ برأسه بموافقة ضمنية، دون أن يترجمها إلى كلمات، لعله يستطيع أن يتنصل بسهولة من هذا الاتفاق المزري.

لم تستطع أن تتخلص من نظراته المتسلطة المحاصرة التي لم تفارقها طوال مدة الحفل، وكلماته التي لا يفهمها غيرها، والتي تجد طريقًا ممهدًا إلى قلبها رغمًا عنها، إلا بادعائها الكاذب للمرض والإرهاق، طالبة من"خالد" عودتها إلى المنزل لترتاح.

عرجا في البداية على منزل عائلتها، ليصطحبا ابنتهما "حنين" التي تركاها في رعاية خالتها الصغرى "سلمى".دخلت منزلها حاملة

طفلتها بين يديها بضيق شديد، بعد أن تركها "خالد" بعد أن أوصلها، متعللًا بأمر هام يخص شريكه في العمل، لابد وأن يتدارسه معه الآن، ولن يستطيع تأجيله للصباح.

نزعت الشال من فوق كتفيها بحدة، بعد أن وضعت صغيرتها في مهدها.ألقت جسدها بصبيانية فوق فراشها، متأففة من وحدتها التي تزداد كل يوم، مع تلك الفوهة التي تتسع بينهما؛ كل منهما في جزيرة منعزلة عن الآخر، رغم وجودهما تحت سقف واحد. لا تشعر به ولا يوليها اهتمامه، لا تجد شيئا يجمعهما، ولا يكلف نفسه عناء البذل من أجلها، بينما هناك مشاعر آخرى تتربص بها، وتضغط عليها بقسوة، وتحاصرها بصمت.. صمت يدوي كطبول تقرع صبرها فتحطمه بلا رحمة.

ظلت تنتظره طويلًا، بعد أن بدلت ملابسها محدقة تجاه وسادته الباردة بجانبها.. كل شيء بارد في تلك الشقة الصماء التي تجمعهما بلا روح، بلا حياة، بلا حب، أو حتى تفهم.وقبل انبثاق الفجر بقليل، وبلا مقدمات، سقطت في نوم عميق. وليتها ما فعلت!.

رأت نفسها تخطو بخطوات أقرب إلى التحليق تجاه منزله، وكأن شيئًا يجذب روحها لاتجاه بعينه. وبمجرد دخولها، توجهت إلى مدفئته الكلاسيكية؛ ولكنها هذه المرة كانت مشتعلة، حرارتها تلهب الأجواء حولها. تلمست الأريكة الوثيرة المواجهة لها، فشعرت بدفء رائع يسري بين أوصالها الباردة، وسمعت صوته آتيًا من قاع بئر بعيد، مرحبًا بحرارة قصوى: "لماذا تأخرتِ؟أنتظركِ منذ ساعة على الأقل".

التفتت إليه، لتراه يتقدم نحوها بابتسامةوهو يتفحصها متفقدًا، مرتديًا تلك الملابس التي دفنت وجهها بينها في خزانته الخشبية،

في بيت والدته. حركت شفتيها لتتحدث، ولكن جفاف حلقها منعها؛ إلا أنه قرأ السؤال في عينيها" كيف عرفت"؟ لم تستطع أن ترفض راحته المبسوطة أمامها، وقد قطع المسافة بينهما بلمح البصر، وهو يجيب ضاغطًا أصابعها بداخل قبضته برقة "أنا من استدعيتكِ".

انتفضت مذعورة لاهثة الأنفاس، وقد كتمت شهقة كانت كفيلة بإيقاظ النائم بجوارها.

أخذ صدرها يعلو ويهبط، تكاد تتنفس بصعوبة شديدة، وكأن روحها قد رُدت إليها على حين غرة، متناغما مع اهتزاز كتفيها ببكاء مكتوم وشهقات خفية، وهي تضع إحدى يديها فوق شفتيها والأخرى على صدرها.

هدأت قليلًا وهي تنظر حولها، لتتأكد بأنها في منزلها، وقد عاد زوجها ونام بجوارها بملابسه كما هو. لملمت خصلات شعرها الملتصقة بوجنتيها وجبينها، على إثر التعرق الشديد. نهضت من فراشها وخرجت إلى غرفة المعيشة، بقدمين مرتعشتين وجسد منهك وذهن مشوش. وعندما تأكدت من خلو الغرفة إلا منها، لفت كتفيها بذراعيها، محتمية من شيء مجهول يهز أركانها، مبعثرًا صلابتها كذرات الرمال. وهنا فقط، تركت العنان لنفسها، وأجهشت بالبكاء.

***

فى اليوم التالي،استيقظ "خالد" متعبًا للغاية، فلم يستطع مغادرة المنزل، وظل قابعًا به طوال الوقت أمام شاشة التلفاز. وبرغم صمته واهتمامه الموزع بين شاشة العرض وهاتفه المحمول، إلا أنها شعرت ببعض السعادة وهي تجلس بجواره للمرة الأولى في منتصف النهار،

وتحمل طفلتها وتهدهدها بهدوء مرح، بعد أن صرفت الخادمة التي ترسلها عمته يوميًا. عندما جلست بجواره، كان لا يزال يتحدث في الهاتف، فرمقها بنظرة سريعة، ثم أخذ هاتفه وخرج إلى الشرفة، وهو يتحدث بكلمات خاطفة مبهمة. أخذت الطفلة وخرجت خلفه.. وضعت الطفلة على الأرجوحة الصغيرة في ركن من الشرفة، فأنهى حديثه سريعًا باقتضاب واستدار إليها بغضب قائلًا:

- انتِ مش هتبطلي بقى تتجسسي عليا؟

لم تستطع أن تدعي براءة موقفها مائة بالمائة، فجزء منها كان يريد أن يعرف إلى من يتحدث وماذا يقول. قالت بارتباك:

- إيه باتجسس دي. أنا بامرجح البنت.

زفر بضيق وهو يهمهم بكلمات ساخطة أحرجتها وهي تنظر إليه، وقد استند إلى سور الشرفة. يكره فيها تتبعها لحركاته وتساؤلاتها التي لا تنتهي، وكأنه يقف أمام محقق بارع في عمله، وكأنها لا عمل لها سواه والدنيا تدور حوله هو فقط. وقبل أن تحمل الطفلة وتخرج تاركة إياه وحيدًا حانقًا،اعتدل فجأة وهو يقول بتفكه:

-"حسام" وصل.

شعرت أن قلبها يدق بصخب وعنف، وقطبت حاجبيها قائلةً برفض واضح:

- إزاى ييجيى كده من غير معاد؟

أجابها وهو يمر بجانبها متجهًا إلى باب الشقة بتبجح:

- البيت بيته ييجي وقت ما يحب.

استقبله بحفاوة كبيرة، وهو يرحب به للمرة الأولى ببيته المتواضع من وجهة نظره. تجمدت مكانها عندما زحف عطره إلى أنفها ينبئهاباقترابه، ويدفعها للتحرك سريعًا لعلها تستطيع الوصول إلى غرفة نومها لتختبئ، ولكنها توقفت محتضنة طفلتها إلى صدرها، محتمية خلفها، عندما شاهدته مقبلًا عليها بابتسامته المعتادة. إلا أنها هذه المرة كانت لامعة ومشعة عن كل مرة سابقة.. توردت وجنتاها عندما صافحها، وضغط أصابعها بنفس الطريقة وهو يمرر عينيه فوق صفحة وجهها بهدوء مستفز. مصافحته لم تتعد ثوان، فكيف لمصافحة تبدو بريئة للناظرين ولم تتعد الثوان أن تترك هذا الأثر في النفوس؟!

أخذ "حنين" من بين يديها، حريصًا على أن يلامسها، وجلس بصبيانية ملقيًا جسده فوق الأريكة الوثيرة، وهو يلهو معها و"خالد" في إثره، وانسحبت هي بهدوء إلى حجرة نومها وضحكاته وهو يداعب ابنتها تزلزلها. وقبل أن توصد الباب خلفها، لحق بها "خالد" متذمرًا:

- سايبانا ورايحة فين؟

التفتت برأسها مندهشة وعلى شفتيها ابتسامة ساخرة:

- هاقعد معاكم أعمل أيه؟!.. اسأله عاوز يشرب إيه وقل لي؟

أطلت نظرة غاضبة من عينيه وهو يوصد الباب بهدوء ما يسبق العاصفة قائلًا:

- عاوزاه يفتكر إنه مش مترحب بيه في بيتي؟ ده ابن عمتي وصاحبي وأخويا.. يعني بيتي هو بيته.. عارفة كده ولا لاء؟

كان لكلماته وقع مختلف على أذنيها، جعلها تشعر بالغضب وتلوح بيدها هاتفة:

- أيوه مش مرحبة بيه.. يفهم اللي يفهمه.. وبعدين ابن عمتك إنت مش أنا.. يعني ماتجبرنيش أقعد معاه.

جذبها من ذراعيها بقوة آلمتها، وهو يهزها بعنف ضاغطًا أسنانه وهو يقول:

- بقى يقف معاكِ في المستشفى يومين، ويعمل لك حفلة مخصوص، وفي الآخر تقولي كده؟.. طب إيه رأيك بقى هتقعدي معاه وترحبي بيه وتردي على كل كلمة بيقولها بطريقة تليق بيه، لحد ما أنا اللي أقولك قومي.

خلصت ذراعيها من بين أصابعه، ودلكتهما متألمة،مقطبة حاجبيها قائلة بصوت يشوبه البكاء:

- خلاص يا"خالد" حاضر.

أشار إليها آمرًا قبل أن ينصرف:

- أنا هاقدمله شيكولاته وانتِ اعملي عصير وهاتيه ووشك ده تفرديه شوية.

راقبت انصرافه بعينين دامعتين، مجاهدة صرخة تريد أن تخرج من أعماق أعماقها بما تحمله بصدرها، ولا يهم ماذا سيحدث بعدها. إلا أنها تماسكت سريعًا، ووقفت أمام باب الحجرة تحاول نحت البرود بين ملامحها، وإزالة آثار عدوان "خالد" المفاجئ عليها، ثم تنفست بقوة وعمق ولحقت به. تخيرت مقعد بعيدًا نسبيًا عنه، وجلست وهي تشعر بنظرات "خالد" المحذرة لها، قبل أن

تلتفت إلى "حسام" الذي كان من الواضح أن "حنين" أخذته من بين الجميع لها وحدها، فلا يكاد يشعر بهما وهو يداعبها وهي تناغيه برقة، ويقبلها قبلات كثيرة حول وجهها الصغير وفوق أناملها الدقيقة.قالت بنبرة حاولت أن تجعلها عادية، إلاأنها خرجت رغمًا عنها مرتبكة:

-"هدى" أخبارها أيه؟

أجاب وهو مازال منشغلًا بالصغيرة:

- مافيش جديد.

اعتدل "خالد" باهتمام، وقبل أن يتحدث علا رنين هاتفه بنغمة مميزة. تناوله وهو ينهض معتذرًا، متجهًا إلى الشرفة مرة أخرى،فارتبكت عندما أصبحا وحيدين في الغرفة ونهضت لتغادر. ولكنه وقف أمامها مثبتًا عينيه بعينيها وقال بهمس:

- ماكنتش أعرف إنك حبيتي ركن الدفاية قوي كده؟

انسحب اللون من وجهها فتركه شاحبًا، وهو يتابع بابتسامة فهمت ما خلفها بدقة لا تقبل الشك:

- ينفع كده؟ تتأخري عليا ساعة كاملة؟

شعرت أن الجدران تدور من حولها وهي تقول بحروف مبعثرة:

- قصدك إيه؟

خفق قلبها بقوة، وكادت أن يغشى عليها وهو يومئ برأسه بثقة كبيرة مؤكدًا بصوت عميق:

- انتِ عارفه أنا قصدي إيه.. أنا اللي ناديتك.

هل تسقط مفارقة الحياة في الحال؟ هل تصفعه؟ هل تركض دون اتجاه وبلا هدف؟! ظلت محدقة به وهو واقف أمامها بهدوء شديد متحديًا، لحظات لا تقطعها سوى مناغاة "حنين"، وصوت "خالد" البعيد غير المفهوم، همهمت بهذيان مشوشة الذهن، وهي تسمع صوت "خالد" يقترب عائدًا وهو يهتف موجهًا حديثه لـ"حسام":

- يعنى أنت يا أخي ماتفكرش تزورني في بيتي إلا لما أتعب؟

التفت "حسام" إليه مجيبًا بنبرة لم يلحظ "خالد" ما تحمله من عدوانية وهو يقول:

- تعبان إيه ما أنت زي القرد أهو؟

قال "خالد" بمزاح ثقيل:

- والله مافي قرد غيرك.

صرخت "حبيبة" وسقطت مغشيًا عليها فوق مقعدها، في اللحظة التي رأت "حسام" يخرج سلاحه المعلق بجراب حزامه، مشهرًا إياه بوجه "خالد"، وهو يسحب صمام الأمان ببرود قاتل.

- 13 -

- انت بتستهبل يا"حسام" إيه الهزار البايخ ده يا أخي؟

قالها "خالد" وهو يحاول إنعاشها بالعطر الذي أحضره على الفور من حجرتهما، بينما بقي"حسام" متجمدًا مكانه، فلم يكن يتوقع ردة الفعل تلك، بل لم يكن يتوقع أن تكون بتلك الهشاشة والضعف.

وقف ينظر إلى "خالد"،الذي كان يمرر العطر أسفل أنفها وباليد الأخرى يربت على وجنتها وهو ينادي باسمها مكررًا، حتى بدأت تستفيق شيئًا فشيئًا. بمجرد أن فتحت عينيها، انتفضت على الفور وهي تنظر إلى "خالد" غير مصدقة أنه مازال حيًا.

تركت العنان لدمعها عندما رأته يحني رأسه باتجاهها قليلًا وهو يقول معتذرًا:

- أنا آسف يا "حبيبة" مااعرفش أن أعصابك ضعيفة كده؟

تنفس "خالد" الصعداء بمجرد أن بدأت تتحرك ثم تبكي.. وعندما تمالكت نفسها،استندت إلى ذراع "خالد" وهي تقول بصوت باكٍ دون أن تنظر لكليهما:

- أنا هادخل ارتاح شوية.

وقف مبهوتًا لا يعلم ماذا يفعل، ولا لماذا فعل ما فعل. لم يكن يمزح كما تصور "خالد"، ولم يكن ينوي قتله أيضًا كما ظنت هي. لقد كانت شحنة ساخطة بداخله، دفعته لهذا التصرف الغريب..

شيء ما بداخله أراد أن يوجه سلاحه إليه، أراد إرهابه فقط.. لم يكن يعلم أنه سيرهبها هي وحدها.. لم يكن يعلم أنها بهذا الضعف، وقابلة للكسر بهذه السهولة!.

***

تكومت في فراشها ذاهلة، وهي ترتجف وتتذكر ذاك الحلم الذي جمع بينهما ليلة أمس. يا إلهي! لقد كنت هناك بالفعل، كنت معه، ذهبت إليه حقًا! هل ما حدث كان حقيقة أيضًا؟، يستطيعان أن يتقابلا في أحلامهما، بمجرد أن يناجيها وتستجيب!.

أخفت وجهها بين كفيها، وهي تستشعر خيوط تلك الرابطة التي بدأت تنسج نسيجًا جديدًا حولهما، له معانٍ مختلفة، معانٍ مرعبة.. حتى ذهبت في سبات عميق لساعات طويلة، لم تتململ فيها ولم تأت بحركة واحدة، وكأنها ميتة.

استيقظت وهي تشعر بألم يضرب جانبها الأيسر، ويحثها على التقلب للجهة الأخرى. تحسست الفراش الخالي بجوارها، فلم تجد أثرًا لـ"حنين"،وهذا لا يعني سوى أنه مازال هنا حتى تلك الساعة المتأخرة من الليل، فهي تعلم أن "خالد" لا يتحملها ساعة على الأكثر.هل سيقضي الليل هنا؟!، تأففت وهي تشعل المصباح الضعيف بجوار سريرها، واتجهت إلى باب الحجرة وفتحته بهدوء، حتى لا يشعر أحد بأنها استيقظت.

وقبل أن تخطو خطوة واحدة للخارج، سمعت ضحكات "خالد" آتية من المطبخ وهو يتحدث بتفكه عن براعة "حسام" في الاعتناء بالطفلة على أكمل وجه، وردود "حسام" التي توحي بشعوره بتأنيب الضمير تجاه والدتها.

عادت إلى الوراء، وأغلقت الباب قليلًا حتى مرا من أمامها في طريقهما إلى حجرة المعيشة مرة أخرى. حجرة نومها بعيدة عن المعيشة بشكل كافٍ، يترك لها مساحة التحرك بأمان دون أن تلفت انتباههما إليها. تحركت قليلًا ما بين المطبخ والحمام، ثم عادت إلى حجرتها بهدوء، وماهي إلا دقيقة حتى وصلتها رسالة نصية عبر هاتفها،بها عبارة واحدة "بما أنك صحيتي وابتديتي تتحركي في البيت،قربي شوية مننا وهتسمعي مفاجأة ماتخطرش على بالك".

كان الفضول أقوى من أن تتمهل أو تنتظر، فخرجت بهدوء وحذر واقتربت من حجرة المعيشة وهي تتحرك بخفة، ووقفت تستمع إلى حديث جعلها تظن أنه يتلاعب بها.التفتت عائدة بضجر، وهي تشعر بسخافة الموقف،ولكنها توقفت عندما قال "حسام" فجأة:

- إحكيلي بقى عن المزة اللي بهدلتك امبارح وخلتك تتهد في البيت النهارده؟

تغيرت نبرة صوت"خالد" وهو يقول محذرًا:

- وطي صوتك إيه الفضايح دي.. منا قايلك إنها شريكتي اللي بتجيبلي البضاعة من بره.

قال"حسام" مستدرجًا:

- إزاي؟انت قلت لي ان شريكتك دي واحدة اتعرفت عليها في تركيا..ولا هي عايشة في مصر؟

اتسعت عيناها بذهول وصدمة، وهي تستمع إلى "خالد" يقص على "حسام" علاقته بشريكته الإيطالية الجنسية وعربية الأصل، وعاشقة اللهجة المصرية، والتي تعرف إليها صدفة في رحلتهما إلى

تركيا، وتوطدت علاقته بها حتى استحالت إلى علاقة غرامية بلا حدود، حتى فاجأته بقدومها إلى مصر، وعرضت عليه أن تورد له ملابس نسائية تتميز بها بلدها لم تلق رواجًا هناك، ملقاة بمخازن المصانع، ولكنها ستباع فورًا في مصر لمجرد أن يكتب عليها عبارة صنع في إيطاليا.

وبالفعل كانت تأتي إلي مصر عدة أيام شهريًا، تنجز فيها أعمالهما معًا، وتقضيها بين ذراعيه في إحدى الشقق التي يستأجرها هو كلما أنبأته بحضورها. وبالأمس، كانت آخر ليلة لهما معًا، قبل أن تغادر البلاد في انتظار الشهر القادم. ثم بدء فى سردتفاصيل مقززة لعلاقتهما،وهو متلذذ بما يقول، وكأنه يتخيلها في تلك اللحظة.

وضعت يدها فوق معدتها، والأخرى كتمت بها شهقة خفيضة خرجت من فمها رغمًا عنها، وأسرعت إلى الحمام لتفرغ ما في جوفها، حتى شعرت أنها ستسقط مغشيًا عليها، ودموعها تسبح فوق وجنتيها تلسعها وتحرقها وتدمي كرامتها.

خائن منذ اليوم الأول لهما سويًا.. يخدعها، يرتع بعيدًا عنها، ثم يأتيها خالي الوفاض فيتركها عطشة. الآن فقط علمت لماذا.. الآن فقط وجدت إجابات لأسئلة مفترسة ظلت تنهش أنوثتها كل ليلة.. لم يحبها يومًا. أما الآخر، فلقد ذبح كرامتها على النصب بسكين بارد، ثم دعاها للاحتفال بلا رحمة.

مزيج عجيب من الغضب والندم والثورة والقهر، تكاتفوا لحفر أخاديد سوداء بعقلها. نعم هي تستحق.. لقد سلمت زمام أمورها وسارت كالنعاج خلف الجميع، في طرقهم وفوق خطوطهم، تفُوحُ بهم، بلا هدف حقيقي،بلا رغبة، وبخوف صارخ من المواجهة.

ثلاث ليالٍ مروا عليها بغرفتها صامتة شاردة، تبحث عن معنى وجودها، تجالس طفلتها نهارًا وتنام بغرفتها ليلًا بعيدًا عنه، لا تراه إلَّا مارًا بها كعابر سبيل.. فقدت شهيتها وقدرتها على النوم المتواصل، أغلقت هاتفها، يلفها الضياع بخيوطه ببطء زاحفًا فوق رقبتها ليخنقها ويفقدها القدرة على التنفس ويحجب عنها الإدراك، فلا ترى سوى روحهًا المشوهة الظاهرة للجميع.. هي لا شيء، ولم يعد لديها ما تخسره.

استيقظت وهي تتحرك كالآلة في أنحاء المنزل،ارتدت ملابسها بوجه جامد وشاحب، وعندما انتهت من تجهيز طفلتها حملتها وانصرفت دون أن تجيب على تساؤلات الخادمة.

صعدت "حبيبة" الدرج الرخامي العريض لمنزل "نور"، وعبرت البوابة الكبيرة الحديدية. وكلما اقتربت، كلما زاد وجهها جمودًا وصلابة. لم تتعاطى مع ترحيب"نور" الفاتر بها، إنما وضعت "حنين" بين ذراعيها وهي تقول بوجه خالٍ من أي تعبير:

- لو سمحتي يا طنط خلي "حنين" معاكي لحد ما أرجع من مشواري.

تأملت "نور" ملامحها الباردة ولونها الشاحب، وهي تحاول انتزاع ابتسامة لترسمها على شفتيها، ولكنها لم تنجح أبدًا وهي تتساءل بفضول:

- أوك مافيش مشكلة.. بس انتِ رايحة فين بدري كده؟

قبضت على حزام حقيبتها فوق كتفها وهي تقول بعينين جامدتين:

- مشوار مهم ماينفعش يتأجل أكتر من كده.

لم تعطِ"نور" فرصة للتساؤل من جديد. غادرت على الفور، وأغلقت الباب خلفها بهدوء لا يتناسب مع العاصفة الكامنة خلف هذا الجدار البارد المرئي منها.

***

ضغط مكابح سيارته من شدة الانفعال الذي شعر به، عندما أضاءت شاشة هاتفه باسمها.التقطه على وجه السرعة بين أنامله وهو يجيب بصوت يموج بالشوق الحذر:

-"حبيبة"؟!

قطب حاجبيه عندما سمعها تقول ببرود:

- إنت فين دلوقتي؟

أقلقه نبرة صوتها المختلفة فقال ببطء مترقب:

- دقيقتين بالظبط وأوصل الشركة.

بنفس النبرة الباردة قالت:

- إديني العنوان.

حالة من التوتر والترقب تضرب أوصاله، وتجعله ينقر بأصابعه فوق سطح مكتبه الخشبي الكبير، بعد أن ألقى بأوامره إلى مديرة مكتبه بأن تؤجل أي ارتباطات تخص العمل حتى ما بعد الظهيرة. لاحظت سكرتيرته التوتر المخترق لملامحه وهو يخبرها باسم الزائرة التي ستأتي بين دقيقة وأخرى، والتي ستدخلها إليه فور وصولها. دقائق أخرى عالق بين الحيرة والتحرق، وهو يجوب الحجرة ذهابًا وإيابًا، وأخيرًا كتم أنفاسه عندما دوت طرقات صغيرة، وفتح الباب.

دلفت بالوجه الذي لم يره منها، ولم يكن يتوقع أن يراه في يوم من الأيام. تنفس بعمق وهو يقف مواجهًا لها، محاولًا السيطرة على مشاعره الجامحة، وهو يشير إليها بالجلوس مرحبًا:

- أهلًا يا "حبيبة" نورتِ الشركة.. اتفضلي.

نظرت حيث أشار إلى الأريكة الجلدية،التي تحتل جزءً لا بأس به من مساحة مكتبه. ثم عادت بعينيها إليه وتحركت محافظة على المسافة التي تفصلهما، وثبتت عينيها الجامدتين بعينيه المضطربتين، وقالت بلهجة آمره:

- اخرج من حياتي يا "حسام"!

توترت الأجواء أكثر، واستحال اضطرابه إلى غضب، وهو يقف في مواجهتها تمامًا هاتفًا بعنف:

- ليه؟. علشان عرفتك حقيقة الراجل اللي بعتي حبي علشانه.. بدل ما تخرجيه هو من حياتك جايه تطرديني منها، فاكراني هابعد عنك وبسهولة كده يا "حبيبة"؟!

هزت رأسها بمرارة قاتمة وهي تجيبه:

- انتو الاتنين ماتفرقوش عن بعض، وانتو الاتنين هتخرجوا من حياتي.

شيء ما في صوتها نبأه أن قرارها هذه المرة حاسم غير قابل للتراجع..

أحس بالخطورة وبالتهديد من فقدها إلى الأبد.. خطى خطوات عصبية نحو مكتبه، وأخذ يطرق عليه طرقات سريعة، زادت من

اضطرابه وعنفه. ثم تحرك حولها كالنمر الحبيس بقفصه، وهو يقول بصلابة يدعيها:

- ماتقدريش تعملي كده.. ماتقدريش تخرجيني من حياتك.

عاد ليقف أمامها وأمسكها من مرفقيها بقوة، يهزها لعلها تخرج من جمودها القاتل هذا، وهو يهدر:

- كل ده ليه؟.. علشان واجهتك بالحقيقة اللي كنتي حاسة بيها، بس بضعفك كارهة تاخدي موقف؟! عاوزه تعيشي طول عمرك متغمية؟

نظر في عينيها بقوة قاسية وهو يستطرد:

- انتِ مش زعلانة إنه بيخونك،انتِ زعلانه إنك عرفتي.. انتِ أضعف من إنك تواجهي، ولما حبيتي تواجهي جايه تواجهيني أنا.. فاكره إني الطرف الضعيف في المعادلة. لا انتِ غلطانة.. أنا قلتها مرة وبكررها تاني.. انتِ ليا وأنا مش هسيبك أيًا كان التمن.

احترقت عيناها بالدموع التي أبت أن تذرفها أمامه، ولكن رغمًا عنها اختنق بها صوتها وهي تحاول محاولة فاشلة في التخلص من أصابعه المحيطه بمرفقيها بقسوة:

- أنا باكرهك.. انت دمرت حياتي أكتر منه.. حاسة ان كل الناس شايفانى في عينيك.. حاسه اني موصومة بيك.. اخرج من حياتي لو عندك شوية ضمير.

ضغط أسنانه وبرقت عيناه وظللتهما غمامة سوداء وهو يقول:

- أنا ماعنديش ضمير وانتِ ماعندكيش كرامة.

اتسعت عيناها محدقة به بذعر، وهو يُلقي أمطارغضبه بوجهها، وقد أفلتت الدفة من بين يديه، بل وربما يكون قد فقد القدرة على الرحمة وهو يتابع غاضبًا:

- لو كان عندك كرامة كان زمانك طلبتي الطلاق من واحد بيخونك من أول يوم في شهر العسل.. من واحد سابك معايا على الشط وراح يدور على غيرك.. من واحد مش شايفك أصلا ومافيش أي سبب خلاه يفكر يتجوزك إلا علشان الشبه اللي بينك وبين حبيبته اللي ماتت.. مش كده وبس، لا ده كمان سمى بنته على اسمها.. واحد لما بيشرب سيجارتين ودماغه تلف بيقول بمنتهى البساطة إنك مش مالية عينيه.. إنك مش ست أصلا.

شهقت بألم محاولة سد أذنيها بكفيها، صارخة محاولة التملص من جديد:

- اسكت.. مش عاوزه أسمعك..مش عاوزة أشوفك.

أسقط حقيبتها الصغيرة، وهو يمنع ذراعيها من التفلت، فانقلبت رأسًا على عقب،فتبعثر ما بداخلها مندفعًا بقوة السقطة. نظر للأسفل وعيناه معلقة بهديته،التي تدحرجت قليلًا بعد أن شُرخت للمرة الثانية، ولكن هذه المرة كانت أقوى من سابقتها؛ وكان الشرخ في المنتصف تمامًا.

تركها عائدًا بظهره إلى الخلف خطوات وهو يلهث، وأغمض عينيه بقوة مستشعرًا الجرح الذي نكأه والصدع الذي صنعته كلماته بكرامتها وآدميتها وهو يسمع صوت شهقاتها شبيهة بصوت مريض يحتضر، وهي تنحني نحو حقيبتها تجمع ما هرب منها.

كور قبضته وضرب بها الجدار، وقد نفرت كل كتلة عضلية بجسده وبرزت عروقه، وبداخله يلعن نفسه ألف مرة ومرة. لقد قتلها في موجة غضب عارمة ابتلعتها، وتركته نادمًا على كل ما قال. أجفل عندما سمع صوت اصطفاق باب حجرة مكتبه بقوة،ثم سكن كل شيء كما كان، وبقي هو وحيدًا يرثيها .

***

خرجت مجروحة من مبنى الشركة، تتعثر بين خطواتها الساخطة والضائعة. ذبحها بسكين المعرفة.. قطع رنين هاتفها نزيفها، فنظرت إلى شاشته وأطلت من عينيها نظرة حقد وهي تجيب على سؤاله ببغض غلف صوتها:

- لما تجيلي عند بابا دلوقتي هتعرف فيه إيه يا"خالد"!

نبرة صوتها لم تعجبه على الإطلاق؛ هناك اختلاف غريب طرأ عليها. لقد كانت عمته محقة وهي تشرح له في الهاتف خوفها مما وجدت عليه"حبيبة" اليوم، وهي تترك لها طفلتها قبل أن تغادر دون أن تمنحها إجابة شافية.

أوقفت سيارة أجرة، وحددت وجهتها من جديد.. مواجهة أخرى، وربما تكون الأخيرة!

شعرت"أمل" بالدهشة وهي ترى"حبيبة" تمر من أمامها، بعد أن أفسحت لها الطريق لتدلف للداخل بملامح جامدة بلا تعبير متسائلة:

- بابا وماما هنا يا"أمل"؟

أغلقت"أمل" الباب وهي تجيب:

- لا يا مدام "حبيبة".."سليم" بيه في الشركة تحت و"فريدة" هانم راحت الساونا

لم تكن في حالة تسمح لها بتفقد أحوال أي شخص غيرها في تلك اللحظة. تركتها واقفة ودلفت إلى الشرفة،التي كانت تحب دائما أن تنعزل فيها عن الحياة خارجها، أغلقت باب الشرفة خلفها، ووقفت جامدة كتمثال من الشمع بدأ في الذوبان، وهي منتظرة قدوم "خالد" بين لحظة وأخرى، متأملة حديقة المنزل الصغيرة التي تفصل الباب الخارجي للمنزل عن الباب الداخلي بممر ضيق ممهد، يفصلها من منتصفها تمامًا.

لا تعلم كم مضى من الوقت وهي متصلبة هكذا، حتى ظهرت سيارة "خالد" أخيرًا، ورأته وهو يترجل منها متجها للداخل. شعرت بالغضب يشتعل بداخلها مرة أخرى، وصدى كلماته وهو يقص على "حسام" مغامراته النسائية يدوي بعقلها.

سمعت صوت "أمل" من خلفها تخبرها بحضوره،فخرجت إليه، فوجدته واقفًا في حجرة الجلوس المتصدرة صدر البهو عاقدًا ذراعيه فوق صدره، ينتظرها بنفاد صبر، وما إن رآها حتى تقدم باتجاهها هاتفًا بضيق يشوبه القلق:

- فيه إيه يا "حبيبة"؟.. قلقتي عمتي وسايبه البنت معاها وخلتيني أسيب شغلي وآجي لحضرتك هنا..ليه كل ده؟

ارتسمت ابتسامة ساخرة على ملامحها الجامدة وهي تقول:

- قلقتك معلش.. يمكن لو كنت عشيقتك كنت سيبت كل اللي وراك بما فيهم مراتك اللي على وش ولادة وجيتلي جري.

حدق بها مجفلًا وقطب جبينه وهو يقول بحذر:

- إيه الكلام الفاضي ده؟

اقتربت منه بهدوء، ونظرت إليه نظرة ثاقبة، وقد تحجر الدمع بعينيها تاركًا أثره اللامع واضحًا بمقلتيها وقالت:

- طلقني يا"خالد"

لحظة سكون طغت عليها أصوات تغريد عصافير الكناريا الآتية من الشرفة، قبل أن يلتفتا إلى الصوت الهادر الذي يهتف موبخًا:

- إيه يا بنت الكلام اللي بتقوليه ده؟

زفر"خالد" حانقًا، وهو يرى والدها واقفًا بجوار الباب،الذي لم يغلقه بعد دخوله، وقد استمع إلى عبارة ابنته الأخيرة وهي تطلب الطلاق من زوجها. جثم شيء على صدرها، وهي ترى والدها يتقدم منها بغضب، واهتزت أركانها وهو يقبض على مرفقها قائلًا بغضب:

- من إمتى بتاخدي قرار من غير ما ترجعيلي الأول؟

لو كانت في حالتها الطبيعية لتراجعت على الفور معلنة ذلك بخنوع وخوف؛ ولقد كان يتوقع والدها هذا تمامًا، فتاريخ ابنته حافل بالتراجع في اللحظات الحاسمة. ولكنه تفاجأ بالتفاتها تجاهه بجسدها كله، ونظرات عينيها الصلبةتنظر إليه قائلة بتبجح:

- من اللحظة دي القرار قراري أنا وبس.

اتسعت عينا والدها دهشة وغضبًا، ودفعها للخلف صائحًا:

- انتِ اتجننتي يا بنت ولا إيه؟

تدخل "خالد" على الفور وسحبها من أمامه، محاولًا تهدئة الأجواء قليلًا وهو يلتفت لها قائلًا بهدوء:

- "حبيبة" ممكن نقعد مع بعض شوية ونهدا كده ونتكلم بالراحة؟

دفعت يده بعيدًا عنها باشمئزاز، وهي تقول بصوت مختنق:

- مافيش كلام بيني وبينك.. إنت راجل خاين..أنا سمعتك بودني وانت بتحكي لـ"حسام" مغامراتك.. أنا مش عاوزاك يا"خالد" طلقني حالًا.

ازدرد ريقة بصعوبة مبهوتًا مما قالته، الآن فقط علم لماذا كل هذا الشحوب والذبول والصمت منذ الليلة التي قضاها "حسام" ببيتهما، لقد استمعت إليهما بطريقة ما!.تاهت منه الكلمات،فلم يكن هناك مجالًا للمراوغة. أخرجته صيحة والدها من شروده، موجهًا غضبه نحوها وهو يقول آمرًا:

- ارجعي بيتك حالًا مع جوزك وماسمعش الكلام الفارغ ده تاني، مش عاوز فضايح حوالين اسمي في السوق، فاهمة ولا أفهمك بطريقتي؟

ذُهل "خالد" في تلك اللحظة أكثر من أي شخص آخر. فلقد كانت المرأة التي تقف أمامه مختلفة تماما عمن عرفها في السابق؛ إلا أن ارتعاد أناملها والدمع المتحجر بعينيها أعلماه أنها في حالة عصبية حرجة، لم تمر بها من قبل، بل وربما أوشكت على الانهيار بين دقيقة وأخرى وهو يراها تواجه والدها بكلمات يسمعها منها لأول مرة، وهي تصيح غير عابئة بتهديده:

- كفاية بقى.. تهديدك مش هيجيب معايا نتيجة يا"سليم" باشا .. طول عمرك انت وفريدة هانم بتؤمروا و أنا باطيع من غير نقاش.. بتتحكموا في حياتي بالريموت كنترول..طول عمري لعبه في

إيديكو هي تلبسني اللي على مزاجها وتختارلي أصحابي اللي يليقوا بيها هي وبس..وانت دخلتني الكلية اللي على مزاجك وقتلت طموحي وهواياتي.. وافقت على خطوبتي من "شادي" لمصلحتك ولما خذلك خليته يسيبني برضه لمصلحتك.. جوزتني للراجل اللي انت وافقت عليه وضغطت عليا بكل جهدك لحد ما وافقت بضعفي مش بإرادتي..

عمرك ما عاملت "نشوى" كده!.. على طول تتباهى بيها وبذكائها وحسن اختياراتها.. حتى"سلمى" سبتها تحقق حلمها وتدخل الكلية اللي هي عاوزاها.. ليه بتعمل معايا أنا بالذات كده؟

تسمر والدها وقد قطب حاجبيه بشدة، والغضب يفوح في المكان حوله، بينما لمعت عينا "خالد" تعاطفًا، وهو يراها تضحك كعواء حيوان تلقى للتو حربة بعنقه قبل أن ترديه صريعًا.توقفت فجأة عن الضحك صارخة بجنون وبشفاه مرتعشة:

- أنا بسأل ليه وأنا عارفة الإجابة.. أنا عارفة انت بتعمل كده ليه.. تحب أقول لك ليه.. وقدام جوزي؟

وقبل أن تُكمل، هجم عليها بغضب هادر.. لم يكن "خالد" بالسرعة الكافية ليحول بينهما، لقد كان ذاهلًا كما لم يكن من قبل، وعندما أفاق من ذهوله كانت قد تكومت على الأرض، وقد فارق لون الحياة وجهها الشاحب.

- 14 -

- انهيار عصبي.

قالها الطبيب بطريقة عملية تشي بكثرة تعامله مع تلك الحالات بشكل يومي، مما أكسبه شيئا من عدم التعاطف والروتينية، وهو ينهي حواره بكلمات مقتضبة توضح تشخيصه لحالتها النفسية التي تتطلب الهدوء والراحة وعدم التعرض لمسببات هذا الانهيار، على الأقل ليس قبل أن تتحسن حالتها.

تصادف وجود الدكتور "علي" صديق "حسام" منتدبًا في نفس المشفى لعدة أشهر، مما جعله يهتم لحالتها بشكل شخصي، ويتابع تشخيص الطبيب المختص ليطمئنهم بطريقة ودية أكثر، ويشرح لهم المزيد عنها. بعد انصراف الطبيب المسئول عن حالتها،اقترب "علي" منهم وقد بدا الوجوم والقلق على وجوههم جميعًا وقال مطمئنًا:

- اتطمنوا يا جماعة هي أخدت مهدئ ونايمة وبمجرد ما تفوق هتبقى بخير إن شاء الله.

زفر "خالد" معلنًا عن توتره البالغ ثم قال:

- طب هينفع نشوفها لما تفوق ولا إيه؟

لامَسَ حافة نظارته الطبية وهو يجيب بحرج:

- المفروض إنها بعد ما تفوق تبعد عن أي ضغوط عصبية.. يعني..

قاطعته " نور" وقد استشعرت حرجه وقرأت ما بين كلماته وقالت:

- مفهوم يا دكتور مفهوم.

وضعت يدها على ذراع "خالد"، وهي تدعوه للحديث جانبًا، بينما تقدم "علي" من هذا الذي بدا منتميًا إلى عالم آخر، مستندًا إلى الجدار وقد خلا وجهه من كل تعبير سوى الشرود،الذي تنطق به عيناه. ربت على كتفه متمتمًا بتعاطف:

- ماتقلقش هتبقى كويسة.

لم يبد على "حسام" أنه قد استمع له، فتابع "علي" متسائلًا:

- مش دي البنت بتاعة الحادثة؟

أومأ "حسام" برأسه مؤكدًا في صمت، فتابع "علي" قائلًا:

- أنا قلت كده برضه لما شفت أبوها أول ما وصلتم بيها.. راجل غريب أوي صعب يتنسي بصراحة.

لم يعقب، وظل على صمته الذي جعل "علي" يستشعر مدى أهمية تلك الفتاة لديه.. ليست مجرد زوجة ابن خاله فقط! لم يقطع شروده سوى الرنين لهاتفه،الذي تزامن مع حضور والدتها و بقية عائلتها.

استمع "حسام" إلى حديثهم مع والدته التي تشرح لهم حالتها الصحية والنفسية كما سمعت من الطبيب للتو، ولاحظ "نشوى"التي رمقته بنظرة تفحصية.

شعر بالضيق والاختناق، وتعلل بالرد على الهاتف ليبتعد عن الجميع، وهو يجيب تساؤلات "هدى" عن حالة "حبيبة" بكلمات قليلة عبر الهاتف، وقد زادت الغصة في حلقه واحتُبست الحروف به، فقطع الاتصال وهو يمشي بخطوات واسعة سريعة، حتى خرج من المبنى بالكامل.

دار حول سيارته، واحتل مقعد القيادة وصدره يعلو ويهبط بعنف مع وقع ضربات قلبه السريعة، أغلق الباب خلفه بقوة، وأخيرًا ترك لعبراته العنان دون تحفظ، بعيدا عن الأعين وأخذ يتململ في مقعده بعصبية بالغة، وكأنه يبحث عن شيء ضائع لا يعلمه. تعاظم غضبه ساخطًا على نفسه كارهًا لها ولذلة لسانه،التي أدت بـ"حبيبة" إلى ماهي عليه الآن. ليته سكت! كور قبضته وانهال على المقود بضربات قوية متتالية أوشكت أن تصل به إلى الجنون،كاد المقود يتحطم تحتها وقد احتقن وجهه بشدة ونفرت عروقه، لم يوقفه إلا أن فتح الباب المجاور له، ورأى "نشوى" تحتل المقعد المجاور له وتلتفت له بجسدها كله ممسكة بذراعه، وقد رأت ما يحدث داخل السيارة بعد أن تبعته إلى الخارج محاولة إيقافه هاتفة:

- إنت بتعمل في نفسك كده ليه.. اللي حصلها ده بسبب بابا مش بسببك.

التفت إليها بعينين مشتعلتين جمرًا، قابضًا على معصمها وهو يقول بصوت جعلها ترتجف مذعورة وهي تنظر إلى ملامحه المتوحشة:

- انتِ مالكيش دعوه بيا نهائي ومش عاوز أشوف وشك ده تاني واتفاقنا الحقير ده تنسيه.. فاهماني ولا لاء؟

دمعت عيناها من فرط الألم الذي يكاد يحطم معصمها، وقالت باكية خائفة منه:

- حاضر حاضر.. سيب إيدي بقى وأنا هامشي ومش هتشوفني تاني.

تركها دافعًا إياها إلى الخلف، فلم تنتظر أكثر،وفتحت الباب وهرولت للخارج هاربة من جحيمه الذي أشعله ليحرق به جثمانه بيده، ناثرًا رُفاته المحترقة في وجوه من يتجرأ ويقترب منه، وهو يتخذ قراره الأخير في تركها لحالها،وإلى الأبد.

"فتَّحي مخك وخليكي ذكية..أنا فين وانتو مين.. كلنا هنموت.. هنغرق"

- لاااا

استيقظت صارخة لاهثة، جالسة فوق فراشها الصغير بداخل حجرة المشفى، تتسابق حبات العرق فوق جبينها انحسر الضوء عن وجهها إلا من ظلال نارية قادمة من مغيب الشمس، متسللة عبر الفتحات العرضية في النافذة الكبيرة، فباتت كشبح هارب من قلب الجحيم.

وبعد أن تم حقنها بمادة مهدئة بالوريد، أسرعت الممرضة إليها بشربة ماء صغيرة، سال بعض منها حول فمها المرتعشة شفتاه، فجففتها "نور" التي نهضت من غفوتها مذعورة على إثر صراخها. زاغ نظرها لدقائق أخرى، حتى انتظمت أنفاسها من جديد، ثم عادت لتستلقي مجددًا سابحة في خضم أحلامها القلقة.

لم تتركها "نور" لحظة واحدة، فلقد أخذت مهمة رعايتها على عاتقها، بعد أن علمت من "خالد" ما حدث بينها وبين والدها،

وسبب إصرارها على الطلاق، وأخبرها "حسام" بما دار بينهما في مكتبه الخاص. أشفقت عليها أكثر، عندما انصرف والداها تاركين ابنتهما وحيدة بدعوى أن معها ممرضة ترعاها.

رأت فيها ابنتها المتوفاة التى حُرمت منها وهى مازالت زهرة تتفتح للحياة كما حُرمت من دفن جثتها بعد الموت.

وبعد عدة أيام أخرى، كانت "حبيبة" قد بدأت بالتماثل للشفاء والتعاطي مع من حولها، وبالأخص مع "نور" التي لم تفارقها منذ أيام، والتي طمأنتها على طفلتها،وأخبرتها أنها في رعاية "هدى" و"حسام"حتى تخرج من المشفى معافاة تمامًا.

في تلك الأيام، تغيرت مشاعر "حبيبة" تمامًا تجاه "نور"، وتوطدت علاقتهما كثيرًا، حتى كادت أن تكتفي بها عن الجميع، ورفضت زيارة والديها و"نشوى" و"خالد"، بينما لم تستطع رفض زيارة "هدى"، فهي من ترعى صغيرتها، وكذلك "سلمى"، فهي أختها الصغرى التي لا ناقة لها ولا جمل فيما يحدث.

وفي النهاية، أقنعتها "نور" بالعودة معها إلى منزلها، وتعهدت لها بأنها لن تقابل سوى من ترغب في رؤيته فقط.. ولم يكن لدى "حبيبة" خيارا آخر.

وبالفعل، بعد أن تماثلت للشفاء تمامًا، وسمح لها الطبيب بالخروج من المشفى، بدأت تعد أغراضها بمساعدة "نور". ولكن طرقات متوالية على باب غرفتها جعلتها تعتدل باهتمام، وتأذن للطارق بالدخول بصوت بائس.

أطل وجه"علي" الباسم، وهو يلج للداخل كعادته كل صباح ليطمئن عليها،فالتفتت إليه "نور" لتودعه شاكرة اهتمامه المتواصل طوال الأيام السابقة، بينما قالت"حبيبة":

- من فضلك يا دكتور"علي" عاوزه أقابل الدكتور اللي أشرف على حالتي قبل ما اخرج

قال"علي" بتفهم:

- مع الأسف الدكتور ماجاش النهارده بس في دكتورة كويسة لو محتاجة حاجة؟

أومأت برأسها شاكرة وهي تقول:

- لو سمحت ممكن تخليني أقابلها؟

نظرت إليها"نور" بفضول، بينما قال"علي" بعد لحظات تفكير:

- هاروح أستأذنها تجيلك.

جلست"حبيبة" في فراشها بشرود،فتوجهت"نور" نحوها وربتت على كتفها قائلة بتعاطف:

- مالك يا"حبيبة" لسه تعبانة ولا إيه؟

حركت رأسها نفيًا، فلم تشأ "نور" الضغط عليها أكثر، فتركتها وعادت لتستكمل جمع الأغراض.

دقائق أخرى وعادت الطرقات ولكنها كانت هذه المرة رقيقة هادئة، دلفت الطبيبة بوجه ترحاب، وجالستهما ببشاشة تتناسب مع طبيعة تخصصها. وعندما شعرت "نور" برغبة "حبيبة" بالانفراد بالطبيبة، استأذنت وتركتهما وحدهما، لتتكلم دون حرج.

اعتدلت "حبيبة" في مواجهتها، وهي مازالت جالسة على طرف فراشها متسائلة بتفكير وتردد:

- لو سمحتي يا دكتورة عاوزة أعرف حاجة محيراني ومش لاقيالها تفسير!

أومأت لها الطبيبة بتشجيع للاسترسال في حديثها، فبدأت "حبيبة"، بعد أن أخذت شهيقًا ملأت به رئتيها، تقص عليها مجمل قصتها مع "حسام"، وطبيعة العلاقة بينهما، متسائلة عن ذاك الخيط الرفيع الذي يربط بين عقليهما. وعندما انتهت، صمتت في انتظار إجابة من الطبيبة،التي كانت تفكر بعمق وهي تستمع لها وقد ظهر الاهتمام على وجهها بقوة ثم قالت بتهمل:

- شوفي يا "حبيبة" الحالة دي مالهاش تفسير طبي لحد دلوقتي، الحالة دي زيها زي الظاهرة كده، ممكن تحصل بين التوائم مثلًا، أو الناس اللي بينهم قرب عاطفي قوي، مادرسنهاش في الكتب، لكن بنشوفها في عياداتنا وبتبقى حالات نادرة جدًا، والمرة اللي شوفتيه فيها وانتِ بتغرقي يوم عيد ميلادك، أكيد ماكانتش المرة الأولى، ممكن تكونوا شفتو بعض قبلها في أي مكان للحظات قصيرة، كانت كافية إنها تطبع صورة كل واحد جوه عقل التاني.

ابتلعت "حبيبة" ريقها، وهي تشعربحيرة كبيرة محاولة التذكر.. ربما رأته منذ سنوات وضاع في ذاكرتها المتهالكة؟! التفتت إلى الطبيبة بتوتر ملحوظ ورعشة بدأت تزحف بين خلجاتها متسائلة بتوسل:

- طيب مافيش طريقة تخليني أبطل أبقى ضعيفة كده؟.. علاج يخليني قوية..على الأقل أمنعه إنه يقدر يقرا اللي جوايا؟

عبثت الطبيبة بنظارتها قليلًا بتفكير.. فمنذ أن بدأت "حبيبة" بالحديث،لم تكف عن وصف نفسها بالضعف وقلة الحيلة واليأس.تحركت "حبيبة" متجهة نحو حقيبتها بعصبية واضحة، جذبتها وعادت بها إلى الطبيبة وهي تفتحها وتخرج منها كرة الكريستال الصغيرة المتصدعة،وعادت تجلس على الفراش أمامها، وهي تمد يدها بها قائلة بانفعال وتساؤل:

- تفتكري ممكن تكون دي السبب؟

نهضت من مقعدها وجلست بجوار"حبيبة" على طرف الفراش، عندما لاحظت شدة انفعالها وصدرها الذي أخذ يعلو ويهبط بجنون قائلة:

- كل ما تتكسر تكسرني معاها.. هو قال لي كده.. قال لي هتشوفى نفسك من جوه فيها.

بدأت تتلفت حولها،مقطبة جبينها محاولة التذكر تضغط جبينها بقوة وهي تقول بتلعثم:

- أيوا.. افتكرت اسمها.. إيماچو.. دي أكيد سِحر مش كده يا دكتوره؟

أحاطت الطبيبة كتفها بذراعها لتهدئ من روعها، وهي ترمق الكريستالة بتفحص وتفكر بالأسم الذى قالته "حبيبة" للتو ، فقد قرأت عنه يومًا فى إحدى المقالات ، وباليد الأخرى قبضت على راحتها التي تسجن بداخلها هديته،التي توشك أن تُفقدها عقلها وقالت مهدئة إياها:

- مافيش حاجة السبب يا "حبيبة".. سِحر إيه بس، دي مجرد حتة كريستال.. وأعتقد إنه لما قال لك كده كان يقصد إنها هشة من جواها زي ما انتِ شايفة نفسك بالظبط.

الإيماچو دي ما هي إلا انعكاس لصورتك الداخلية عن نفسك، النقص اللي حاسة بيه ومحتاجة تكمليه، شايفة نفسك ضعيفة هتبقي ضعيفة، شايفة نفسك قوية هتبقي قوية، اختاري يا "حبيبة" انتِ عاوزة تبقي إيه.

تجاوزت نظرات "حبيبة" المحدقة بها، وتنفست بعمق واستدركت قائلة:

- في حاجه قرأتها في بعض المقالات اللي بتتكلم عن الظواهر دي،بس الحقيقة مش عارفة بتجيب نتيجة ولا لاء؟

نظرت إليها "حبيبة" بعينين متوسلتين، بعد أن كانت قد فقدت الأمل فقالت الطبيبة على الفور:

- تتخيلي أو تفكري في حاجة قوية تمنعه من إنه يوصل لأفكارك.. زى إنك مثلا ترسمي قدامك حيطة أو سور من طوب أو حديد وتتخيلي شكلهم وتفكري إزاي تخلي الجدار ده مجسم قدام عنيكي بكل تفاصيله وألوانه.

صمتت لثوانٍ وهي تتابع ملامح "حبيبة" غير المقتنعة، فمطت شفتيها وهي تقول متفهمة:

- قلتلك من الأول مش متأكدة، ده مجرد رأي قرأته وماعرفش نتيجته هتبقى إزاي ولا نسبة نجاحه كام؟

ظهرت حيرة جلية بعينيها، قطعتها طرقات الممرضة على باب الغرفة وهي تخبر الطبيبة بأن إحدى حالاتها تحتاجها على الفور.

نهضت وهي تربت على كتف "حبيبة"،التي وقفت بدورها محاولةً السيطرة على ارتجافتها،شاكرة لتفاعلها معها واتساع صدرها لمشكلتها غير المفهومة.

خرجت من المشفى إلى منزل "نور" مباشرة وكلمات الطبيبة تدوى كالطبول فى رأسها ،جهزت الخادمة لها حجرة "خالد"، ثم تركتها لترتاح قليلا، بينما عادت "نور" إلي غرفة الجلوس المغلقة، حيث ينتظرها "خالد"، وقبل أن تجلس قال "خالد" على الفور وهو ينهض:

- ها يا عمتو "حبيبة" أخبارها إيه دلوقتي؟

نظرت إليه بعتاب وهي تجلس قائلة:

- يهمك أوي يعني؟

حاول ألا يظهر الإحباط الذي تملك منه وهو يقول بمرارة:

- يا عمتو ما حضرتك عارفة إني طلبت أشوفها أكتر من مرة وهي اللي كانت بترفض.. يعني بُعدي عنها ده مش بإيدي أنا.

نظرت له ببرود وهي تضع ساقًا فوق الأخرى، دون أن تمنحه ردًا، فقال ساخطًا:

- طب هي لسه مصممة على الطلاق؟يا عمتو من فضلك ريحيني؟

تصنعت اللا مبالاة وهي تعبث بخاتمها وتحرك ساقها بهدوء متسائلة:

- وهي دي حاجة تضايقك يعني؟

زفر بضيق وهو يعود ليجلس مرة أخرى. لقد كان يتوقع أن تثنيها عن طلب الطلاق، ولكن من الواضح أنها ترى أن هذا هو الحل الوحيد لمشاكلهما المتكررة، والتي انتهت بمأساة.مال إلى الأمام وهو يستند إلى ركبتيه قائلا:

- من فضلك يا عمتو اقنعيها اني هاحاول أتغير، زي ما أقنعتيها انها تيجي معاكي هنا. وأنا أوعدك هاحاول أبقى كويس، حتى علشان خاطر بنتنا"حنين" .

بدا صوتها حزينا للغاية وهي ترفع رأسها وتنظر إليه قائلة:

- مراتك صعبانة عليا أوي يا"خالد".. انت عمرك ما حبيتها.. انت اتجوزتها علشان الشبه الكبير اللي بينها وبين واحدة تانية.. ومش عاوز تطلقها برضه علشان واحدة تانية!

نكس رأسه، وكأنه اعتراف ضمني منه بما قالت.. هو بالفعل لا يشعر بالحب لها، ولكنه سيحاول! ولكن كيف يشعر بالحب تجاهها، وهو لا يشعر بوجودها من الأصل.. هي إما شاردة حزينة وإما خجلة إلى حد لا يطاق، أو متتبعة له بفضول يجعل حنقه عليها يزداد يومًا بعد يوم. وبعد صمت دام لدقيقتين، تساءل بيأس:

- طب والحل؟.. أنا مش عاوز أطلق؟

اعتدلت وهى تقول بجدية:

- شوف يا"خالد"، أنا كمان مش موافقة على موضوع الطلاق ده.. بس هي برضه لازم تشوف منك تغيير. وأنا من ناحيتي هاحاول

معاها بس لما تبقى كويسة شوية، لأن الدكتور قال نبعدها عن أي ضغوط.

نهض واقفًا وهو يمسح على شعره باضطراب وهو يقول:

- زى ما تشوفي يا عمتو.. وأنا هانفذ أوامرك ومش هاخليها تشوفني لحد ما هي اللي تطلب تقعد معايا، وهابقى أتصل بيكي كل يوم علشان أتطمّن عليها وأعرف وصلتي معاها لحد فين؟

انصرف في الحال كما أمرته، وتركها تفكر في طريقة تستطيع بها أن تثني "حبيبة" عن طلب الطلاق.

فكرت في محاولة إقناعها بجدية تغير "خالد" هذه المرة، ولكنها عدلت عما لا تثق به.هناك طريقة أخرى شعرت أنها ستجدى نفعًا مع شخصية رقيقة وهشة مثل "حبيبة"، تاريخ "خالد" القديم!!

***

مر أسبوعان آخران، لم يجد جديد بحياتها سوى "حنين"، التي أتت بها "هدى" بعد إلحاح من "حبيبة". كانت "هدى" قد تعلقت بها تعلقًا شديدًا، ساهم فيه تأخر حملها الذي لا تعلم له سببًا حتى تلك اللحظة. شعرت "حبيبة" بالمودة والحب لـ "هدى"، ونمت علاقتهما واقتربت من الصداقة مع كثرة زيارتها لها في بيت "نور"، واشتياقها لطفلتها ومداعبتها وحملها بشكل مستمر. لم تكن "هدى" المرأة الغامضة، فهي تتحدث حتى يظن مستمعها أنها لا تتوقف، ولذلك استشفت "حبيبة" طيبة قلبها غير الظاهرة وراء قناع الرتابة والنظام المشوبين بالغرور،الذي تتعامل به مع الجميع.

دارت بداخل "حبيبة" مداولات عدة.. لماذا لا يستطيع "حسام" أن يعرف ما عرفته هي عن زوجته في أيام معدودات؟ لماذا لا

يستطيع حبها، وهي بهذا الحنان والطيبة،التي تصل أحيانًا إلى حد السذاجة؟!ابتسمت ساخرة من نفسها، فكيف تبحث عن إجابات لنفس قضيتها،فكلتاهما مختبئة خلف قناع، لا تكلف نفسها عناء نزعه والتفتيش عن ذاتها بصدق، فكيف تتوقع من غيرها العثور عليها؟!.

تجلت تلك الحقيقة أمام عينيها ظاهرة، وهي تستمع إلى حديث "نور" التي تعودت أن تجالسها وتتسامر معها يوميًا قبيل الفجر، وهي تقص عليها قصة "خالد" وابنتها المتوفاة، وكيف أنه كان يضعها عنوانًا دائمًا لمستقبله، فعندما ضاعت ضاع هو!

تحسست "نور" كلماتها في البداية وهي تتفحص وجه "حبيبة" كانت تتوقع بعض الضيق، ولكنها وجدتها تستمع باهتمام شديد، بل وتحثها على الاسترسال، وكأنما تتكشف أمامها الحقائق مع كل حرف تنطق به "نور"، مما جعلها تستطرد متابعة دون تحفظ، لعل "حبيبة"أن تلتمس له عذرا فيما يفعل. وعندما انتهت، علمت بل تيقنت أنها قد أصابت هدفًا ثمينًا، لما رأت دمعة رقراقة تتسلل من عيني "حبيبة" خفية، وقرأت في ملامحها التعاطف الشديد معه.

لقد كانت جلسة صريحة إلى أبعد الحدود، قررت فيها "نور" الخوض في لجة اليم، مصارحة إياها بما تعلمه من العلاقة الغريبة التي تربط بينها وبين "حسام". تجاهلت تماما التوتر والارتباك اللذين أبدتهما "حبيبة"، وتابعت بهدوء، مقدرة لها حسن تصرفها وإبعادها لـ"حسام" عن حياتها بكل قوة امتلكتها حينها، وهي تقول:

- جواكي قوة يا "حبيبة" انتِ نفسك مش حاسة بيها ومش بتظهر غير وقت الشدة.

أنهت عبارتها ونهضت واقفة أمام النافذة المفتوحة، تستنشق هواء الفجر العليل وهي تتابع قائلة بابتسامة شاردة:

- دايما كان جوزي - الله يرحمه - يقول لي إن وقت الفجر ده هو وقت التجليات كلها.. لو الإنسان قعد مع نفسه وراجع حساباته ممكن يفهم حاجات كتير عن مشاكله، عمره ما فكر فيها في يوم من الأيام.. يالا قومي اتوضي علشان نصلي سوا.

وعندما وقفت "حبيبة" أمام المرآة ترتدي ثوب الصلاة لأول مرة، وتحشر بعض الخصلات الهاربة أسفل غطاء الرأس بمهارة منعدمة، كانت الخيوط قد تشابكت بذهنها وأصبحت متكاملة الرؤية.. هي وحسام، وأخيرًا "خالد"، وضع ثلاثتهم مستقبلهم وأحلامهم بداخل خزانة آخر، وعندما فقد كل منهم خزانته، فقد ذاته!.

***

غفت عدة ساعات بعد جلسة روحانية رقيقة بصحبة " نور"، ملأت نفسها براحة وسكينة لم تشعر بهما لسنوات ماضية، واستيقظت وهي تشعر بنشاط غريب عليها وحيوية تدب في أوصالها.

نهضت وهي تُلملم شعرها المنثور حول وجهها، ووقف أمام المرآة وهي ترتدي الروب المنزلى فوق ملابس نومها،واتجهت على الفور نحو غرفة "نور". قرعت الباب بلطف، فوجدته مفتوحًا والغرفة خالية منها، فتوجهت حيث مهد "حنين" الملازم لفراش "نور"، وحملتها برفق، فاستيقظت الصغيرة على الفور تلوي شفتيها استعدادًا للبكاء ضحكت "حبيبة" وهي تشاكسها وتُدغدغ بطنها وعنقها، حتى استجابت لها وبدأت تبادلها الضحكات، بينما وقفت "نور" من

خلفهما مستندة إلى حافة الباب تستمتع مندهشة بالتغيرات التي طرأت فجأة بين ليلة وضحاها، ثم قالت:

- صباح الخير.

التفتت "حبيبة" إليها وهي تقول بابتهاج:

- صباح الفل يا طنط.. إيه ده هو حضرتك خارجة ولا إيه؟

اقتربت منها وحملت "حنين" لتقبلها ثم قالت مداعبة إياها:

- انتِ ناسية الشركة والجمعيه الخيرية.. ولا علشان بقالي كام يوم مبلطة في الخط جنبك"؟

ضحكت" حبيبة" برقة استجابة لمداعبتها، ثم تساءلت باهتمام:

- أنا مش فاهمة حضرتك بتتعبي نفسك ليه.. ما تجيبي ناس تمشي الشغل وخلاص.

أعادت الطفلة بين ذراعي والدتها، وقالت باهتمام وهي تهندم ملابسها:

- لما "مصطفى" - الله يرحمه - كان موجود، ماكنتش باحمل هم حاجة وماكنش ورايا حاجة غير نشاطات الجمعية الخيرية. لكن من بعد ما راح، و"حسام" الجيم واخد معظم وقته ومابيروحش الشركة غير كام ساعة الصبح، وأنا بقيت أتابع الشغل بنفسي. وبعدين يا بنتي اليد العليا خير من اليد السفلى.. وأنا مابحبش أبقى هانم كل اللي يهمني ضوافر وشعري.. لازم يبقالي دور.

أنهت حديثها وهي تُتمم على غطاء رأسها في المرآة، وعندما نظرت إليها من خلفها وجدت الشرود متجسمًا فوق ملامحها

الواجمة.. تريد أن تصبح مثلها؛ بل تتمنى أن تكون بقوتها الداخلية وثقتها بنفسها، رغم فقدانها شريك حياتها الراحل.

استدارت "نور" إليها ومسحت على شعرها تبثها بعض الدفء والحنان وهي تقول:

- لو تعبانه ادخلي نامي وريحي أعصابك وأنا هاخد "حنين" معايا.

انتبهت منتزعة نفسها من شرودها في حالها، إلى جانب ذكريات والدتها، وكأن "نور" قد استجلبت بحديثها العكسي صورة والدتها المرفهة، والتي تقضي يومها ما بين النوادي الصحية ومحادثات الصديقات والانشغال بالحفلات والملابس والزينة، تاركة بيتها وبناتها كل منهن في جزيرة منعزلة عن الأخرى، لا تعلم عنها شيئًا، ولا يجمعهن سوى وجبة الغداء، حتى أن "أمل" الخادمة التي تعمل لديهم منذ سنوات طويلة تعرف عنها وعن أخواتها أكثر من والدتها بكثير.

وضعت "نور" يدها على ذراعها وهي تقول بقلق:

- مالك يا "حبيبة"؟

استعادت ابتسامتها سريعًا وهي تنظر في وجه "نور" المشع حنانًا وتساءلت باهتمام:

- هو أنا ينفع آجي اشتغل مع حضرتك في الجمعيه الخيرية؟

المفاجأة جعلتها تتردد قليلًا وهي تجيب:

- آه.. ينفع.

ابتسمت "حبيبة" بحماس وهي تقول بتلقائية:

- اتفقنا.. هاكلم "خالد" بقى علشان أقوله.

مفاجأة أخرى أقوى من الأولى ألجمتها، وتعثرت الكلمات بحلقها قبل أن تتمالك نفسها متسائلة بحذر:

- هتكلمي "خالد"!

أومأت برأسها وهي تقول بتفكير:

- واحنا بنتكلم إمبارح راجعت نفسي.. "خالد" مش وحش أوي زي ما أنا كنت فاكرة.. أنا كنت مشتركة معاه في الغلط. لازم نقعد ونتكلم ونشوف الغلط ده سببه إيه بصراحة، يمكن ساعتها نقدر نفهم بعض ونفتح صفحة جديدة.

تناولت "نور" كفيها بداخل راحتيها وهي تقول بعيني براقة:

- حيث كده بقى يبقى تأجلي كلامك معاه دلوقتي ونقعد مع بعض نرسم خطة المعركة!.

رددت حبيبة بعينين حائرتين:

- معركة!.

- 15 -

أمهلت نفسها شهرًا آخر متجنبة أي اتصال أولقاء بـ"خالد"، حتى وإن كان عابرًا،لتتسلح لمعركة تعلم جيدًا أنها ليست هينة. نصائح "نور" وتوصيفها لشخصية "خالد" الحقيقية وتعاونها معها، كانت كعلامات الطريق التي ترشدها إلى الاتجاه الصحيح، مستعينة بالله، ثم بالمعلومات التي بدأت تتحصل عليها من خلال شبكات الإنترنت وقراءات في بعض الكتب المتخصصة في التنمية البشرية، وخاصة التي تتحدث منها عن العلاقات الزوجية وكيفية ترميمها من جديد.

أحضرت دفترًا كبيرًا، لتدون به تأملاتها وما خرجت به من كل كتاب قرأته، أو مقال أو رواية. كان أول ما كتبته عبارة أضاءت أمامها فجرًاجديدًا في حياتها القادمة "الحب ليس فقط جذوة عشق مشتعلة من البداية، إنما هو أيضًا.. ممارسة". نعم، ممارسة أفعال الحب تشعل جذوته الخامدة حتى هذه اللحظة!.

***

أنهت "نور" صلاة الظهر بالغرفة الفسيحة التي خصصتها في الجمعية للصلاة، ونهضت وهي تهندم ملابسها وتتحدث إلى إحدى الفتيات التي أقبلت عليها بابتسامة بشوشة. تجاوبت معها باهتمام، ولكن عينيها كانتا تبحثان عن "حبيبة" بالغرفة وسط النساء والفتيات المغادرات، ولكنها لم تجدها. انتهت من فتاتها وخرجت تبحث عن

"حبيبة"، حتى وجدتها في حجرة مكتبها غارقة وسط كُتب التنمية البشرية تبحث عن ضالتها بحماس. رفعت "حبيبة" رأسها بابتسامة ونهضت ونهضت قائلة بترحاب:

- أهلا يا طنط اتفضلي.

جلست "نور" قبالتها وهي تقول بعتاب:

- "حبيبة" مش قلتلك حصليني علشان نصلي الظهر مع البنات؟

زمت شفتيها بأسف، ثم قالت معتذرة:

- معلش يا طنط القراءة خدتني.. أصلي كنت بدور على..

بترت عبارتها عندما وجدتها تنهض والاستياء متملك من ملامحها فقالت على الفور:

- آسفة يا طنط حضرتك معاكي حق تزعلي مني، بس أوعدك هحاول أنتظم بعد كده.

ستحاولين !، عقدت يديها أمامها بتفكير لثوان، قبل أن تقول بجدية:

- عاوزاكي معايا في مشوار مهم بكره ابقي فضي نفسك.

أومأت"حبيبة" برأسها موافقة على الفور، وغادرت"نور" ومازالت علامات الاستياء عالقة بوجهها.وفي صباح اليوم التالي مباشرة، استقلت"حبيبة" السيارة بجوار"نور"، وهي تتساءل ممازحة:

- ياترى مودينانا على فين يا"نونة"؟

ابتسمت "نور" وتذكرت"حسام"،الذي منذ علم بوجود "حبيبة" بمنزل والدته لم يحاول المجيء إليها في المنزل أو حتى في الجمعية، مكتفيا بالاتصال بهاتفها المحمول للاطمئنان عليهما

سويًا. نفضت "نور" ولدها من رأسها في تلك اللحظة وهي تقول بغموض:

- حاله إنسانية تبع الجمعية عاوزاكي تشوفيها بنفسك.

تململت "حبيبة" بجلستها بالسيارة، وهي تحمل "حنين" على قدميها، وقد طال الطريق عما كانت تتوقع، وبدت الدهشة على وجهها عندما لاحظت ولوج سيارة "نور" في شوارع ضيقة، وبدأت السيارة تهتز أكثر وأكثر كلما تعمقت السيارة في تلك الطرق الضيقة المتهالكة،التي كانت "حبيبة" تشاهدها لأول مرة في حياتها، كما تذكر. وأخيرًا، توقفت السيارة على مشارف طريق ضيق للغاية، لا يسمح بمرور السيارة، التي لحق بها أطفال يبدو أنهم من سكان المنطقة، ويبدو أيضًا أنهم معتادون على وجود "نور" بمنطقتهم الفقيرة تلك. حاولت "نور" مصافحتهم جميعًا، وهي توزع عليهم أغراضا كثيرة مغلفة. لم تمض ثوان، حتى بدأ توافد نساء الحي وأخذن يبعدن عنها الأطفال بزجر وصياح عالٍ، ثم تتحول وجوههن نحو "نور" بابتسامة مرحبة واسعة، رفعت "حبيبة" حاجبيها بدهشة، وهي ترى جانبا آخر من العالم، لم تكن تدرك وجوده، وهي تتابع حديث "نور" مع النساء والفتيات اللاتي كن يخبرنها بآخر أخبارهن، وكأنها صديقة شخصية لكل واحدة منهن على حدة، فهذه تخبرها عن أول عام لها بالجامعة، والأخرى تنبئها عن ولادة ابنتها المتعسرة، والثالثة تقص عليها كيف تغير ولدها بعد أن التحق بالعمل الذي أوجدته له "نور" وبدأ يبتعد عن أصدقاء السوء ويفكر بالزواج ليعصم نفسه.

وأخيرًا، انفض الجمع من حولها، وتركن لها مساحة لتمر من بينهن، وهي تعتذر لهن وتعدهن بزيارة قادمة قريبة، فهي هذه المرة معها ضيفة جديدة!.

دارت حول السيارة، ونظرات النساء تلاحقها من بعيد، وتناولت يد"حبيبة" وصعدت بها إلى أحد المباني القديمة. دارت عيناها في المكان وهي تصعد ذاك السلم، المتهدم بعضًا من سوره، وتزكم أنفها رائحة الرطوبة المتدفقة من حولها لا تعلم لها مصدرًا، حتى توقفت "نور" أمام إحدى الشقق المفتوح بابها قليلًا، وطرقت طرقات خفيضة متتالية، حتى سمعت الإذن بالدخول، فولجت تتبعها "حبيبة"،التي كانت تخطو بحذر مترقبة، وهي ترى كرسيا متحركا يجاور فراشًا عريضًا بركن من أركان صالة صغيرة، خلف باب الشقة مباشرة، تتوسطه سيدة تتوشح بوشاح أبيض أسفله جلباب أسود، وتستند إلى الحائط بظهرها واضعة مرفقها على حافة نافذة نصف مفتوحة، ترقب كل من يمر بالحي أمامها، وكأنها جلستها الدائمة والمعتادة لا عمل لها سواها.

ابتسمت المرأة وهي ترحب بـ"نور"،التي انحنت وقبلتها مُربتة على كتفها وهي تتساءل عن أحوالها، دققت "حبيبة" النظر بوجه المرأة، والدمامل المنتشرة به، والتي لم تستطع محو ذاك الأثر الذي يدل على حُسن وجمال كانت تتمتع بهما من قبل.عقدت حاجبيها محاولة التذكر أين رأتها سابقًا، فملامحها مألوفة لديها بشدة، وكأنها رأتها عشرات المرات،ثم الفتت"نور" إليها تعرفها إلى المرأة قائلة:

- دي بقى يا "ليلى" تبقى "حبيبة" مرات "خالد" اللي حكيتلك عنها.

تعجبت "حبيبة"، بينما ابتسمت المرأة بترحاب مادة يدها لتصافحها وتدعوها للجلوس. نظرت إلى المقعد وهي تجلس عليه وتدعو ألا يسقط بها، فهو متهالك للغاية. فضحكت المرأة ومازحتها قائلة:

- ماتخافيش مش هيقع بيكي، ستات الشارع هنا مش سمبتيك زي كده وبيقعدوا عليه ولا بيحصله حاجة.

ابتسمت بارتباك بينما التفتت "ليلى" التي لم تفارقها ابتسامتها إلى "نور" قائلة:

- شوفتي يا مدام "نور"، المُخرج اللي قلتلك عليه جالي تاني ومصمم أقوم بالدور اللي عرضه عليا.

تابعت مزاحها وهي تلتفت إلى "حبيبة" المتعجبة:

- قال إيه عاوزني أقوم بدور واحدة ميتة!

لم تستطع "نور" إلا أن تضحك مقهقهة، وهي تميل بجذعها نحو "ليلى" مربتة على كفها، بينما ارتفع حاجبا "حبيبة" مبتسمة لثوانٍ وهي تتابع ضحكاتهما،التي توقفت فجأة عندما نهضت "حبيبة" هاتفة:

- افتكرت، حضرتك كنتي بتمثلي،أنا كنت متابعاكي وبشوف أفلامك على طول

خجلت من نفسها عندما رأتهما ينظران إليها بابتسامة، مازالت عالقة فوق شفتيهما، فعادت تجلس ببطء مجددًا، وهي تتساءل بفضول:

- أنا آسفة، بس هو حضرتك اختفيتي ليه فجأة كده؟

صمتت "ليلى"، وقبل أن تشيح بوجهها، مالت نحوها "نور" هامسة:

- يهمني تحكيلها.

التفتت إليها "ليلى"، وأزاحت الوشاح عن رأسها. رغمًا عنها شعرت بغثيان، وهي ترى فروة رأسها المتآكلة، فأعادت "ليلى" وشاحها كما كان، ثم أشارت إلى الدمامل في وجهها وهي تقول بأسى بالغ:

- لما الجمال بيروح، المولد بينفض.

ثم رفعت أصبعها بإشارة إلى السماء، وهي تتابع وقد غشى الدمع عينيها وارتجف صوتها:

- بس كل ده مش مهم.. أنا كل اللي مزعلني إني رجعتله غصب عني، مع إنه كان بيبعتلي رسايل كتير وأنا لسة بصحتي وجمالي. كنت أقدر أرجع وقتها، لكن الدنيا خدتني، وآدي النتيجة.

انسابت دمعة بعينيها بتعاطف ووجل وهى ترى دموع المرأة منهمرة على وجنتيها فى تلك اللحظة متذكرة ملامح "ليلى" التى كانت تبهرها منذ سنوات ، وجنتيها الوردتين وشعرها المنساب حول وجهها يحركه النسيم فيداعب عينيها ويلامس شفاها

خرجت"حبيبة" بصحبة "نور" من عند المرأة تجر قدميها، واستقلت السيارة وهي تشعر بدوار يلفها.

أغمضت عينيها محاولة طرد صورة فروة رأس"ليلى"، والتي باتت متقرحة، ووجنتيها الممتلئتين بالدمامل.عندما كانت تشاهد أحد أفلامها من قبل، كان يجذبها صوتها الناعم ورنات ضحكاتها التي تنضح بأنوثة وإغراء ورقة تُحسد عليها.الآن تذكر صوتها الأجش والمرتعش بعجز، وكلماتها التي تستصرخ بقلبها ووجدانها (اللي مزعلني إني رجعلته غصب عني).

خافت.. خافت بشدة..ارتعدت وارتجف قلبها بين أضلعها. هي أيضًا أخذتها الدنيا وتغاضت عن الرسائل المتلاحقة إليها، فَهَلا بعودة سريعة قبل أن تأتيه زاحفة هي الأخرى؟!

***

لم يصدق خالد عينيه، وهو يرى اسمها ممزوجا برنين هاتفه وشاشته المضيئة به.ازدرد ريقه وهو يجيب بحذر، عندما بادرته بالسؤال عن حاله، وقال:

- أنا تمام انت عاملة إيه يا "حبيبة"؟

ابتسمت عندما استشعرت التوتر الذي أحدثته نبرة صوتها الواثقة، فقالت بجدية:

- مستنياك النهارده بالليل، عشان نخلص الموضوع اللي بيننا.

لم تعطه الفرصة الكافية ليمنحها ردًا، وقالت بحسم:

- من فضلك ما تتأخرش عشان بانام بدري. لو اتأخرت هاضطر أأجل المقابلة لبكرة.. سلام.

نظر إلى الهاتف بدهشة.. لو أنها لم تسأله في البداية عن أحواله مستخدمة اسمه في حديثها، لظن أن المكالمة خاطئة، وأنه كان يتحدث لامرأة أخرى غامضة، تدفعه إلى المثول لطلبها.

وقبل الميعاد المحدد لكشف هذا الغموض،استقبلته عمته بابتسامة هادئة صغيرة دون اهتمام، ثم عادت لتداعب "حنين" وكأنه غير موجود. نهض وجلس بجوارها فوق الأريكة، وهو يحمل عنها طفلته قائلًا بتوتر:

- ها يا عمتو.. طمنيني أقنعتيها ولا لأ؟

أجادت في رسم الحيرة الممزوجة باليأس على ملامحها، وتناولت ملفًاكان بجوارها،قلبت أوراقه وهي تقول:

- ماكانش في فرصة للكلام خالص، أصلها اتحمست أوي من أول يوم شغل ووقتها بقى ضيق جدًا.. دي حتى لسة داخلة قبلك مافيش عشر دقايق.

شعر بغيظ شديد منهما ومن نفسه.. لماذا يخشى مقابلتها إلى هذا الحد؟.. نهض وهو يقول حانقًا:

- طب عن إذنك يا عمتو أنا هادخللها.

أوقفته على الفور بإشارة من يدها قائلة:

- استنى طيب لما أقول لها الأول، يمكن تكون نايمة ولا بتغير هدومها.

التفت إليها وقد احتقن وجهه وضغط أسنانه، في محاولة منه لكبت غيظه وهو يقول:

- يا عمتو دي مراتي واللي على إيدي دي بنتي منها.. ماشي ؟

أنهى عبارته الساخطة موليًاظهره لها، متجهًا إلى غرفته القديمة، حيث توجد زوجته الغامضة. وما إن فعل، حتى ابتسمت "نور" ابتسامة صامتة وهي تتابع خطواته المضطربة من أسفل نظارة القراءة التي ترتديها، وبداخلها برق أمل جديد.

إن لم يكن على يقين من كونها "حبيبة" زوجته، لظن أنها "حنين" حبيبته. وقف مستندًا إلى حافة الباب، ولأول مرة يراها.. تصلي!

عندما انتهت،التفتت إليه بابتسامة صغيرة، تنم عن راحتها النفسية وليس عن رضاها عنه. ثم اقتربت منه تحمل عنه طفلتها،

وهي تلاحظ تغير تعبيرات وجهه المأخوذة، وكأنه يشعر برهبة جعلته يتلعثم وهو يتفحصها بثوب الصلاة قائلًا:

- إزيك يا "حبيبة" عاملة إيه؟

ابتسمت لطفلتها دون أن تنظر إليه وهي تجيبه قائلة:

- الحمد لله.

ثم نظرت إليه قائلة بجدية، مستغلة تلك الرهبة المقروءة بسهولة فوق ملامحه:

- إنت جيت بدري عن معادك، بس عمومًا مافيش مشكلة ممكن نتكلم دلوقتي

اقترب منها متفقدًا لها وهو يقول بصدق:

- قبل أي كلام، لازم أعتذر عن اللي حصلك بسببي مع والدك. أنا..

قاطعته وهي توقف حديثه بإشارة من يدها قائلة:

- لو قصدك اللي حصل من بابا، فأنا مش حابة أتكلم في الحكاية دي.. لكن لو تقصد تعتذر عن خيانتك ليا فده شيء تاني.

كان وقع كلمة خيانة ثقيلا كالجبل عليه،رغم علمه بأنه كان يخونها بالفعل ولكن الكلمة أضعفته وهذا هو ما كانت تصبو إليه بالضبط.ازدرد ريقه بصعوبة، وهو يحاول انتقاء كلماته، ويعلم أنها استمعت إلى كل كلمة دارت بينه وبين حسام في منزلهما، وتأكدت أن تلك العلاقة قائمة منذ أكثر من سنة كاملة. تنحنح مرتبكًا وهو يقول:

- أنا عارف إن قلبك كبير وهتسامحيني. لو مش علشاني يبقى عشان بنتنا.. مش هيهون عليكي لما تكبر تلاقي أبوها وأمها منفصلين.

وأنا من ناحيتي أوعدك إن الغلطة الفظيعة دي مش هتتكرر تاني والعلاقة دي هتتقطع وتنتهي وأنا هتغير وهابقى واحد تاني خالص.

نظرت بثبات في عينيه مباشرة وهي تقول:

- وإيه اللي يضمن لي كده؟

قال على الفور:

- إطلبي الضمانات اللي تعجبك.

منحته ردا سريعًا إنما قويًا وهي تقول:

- لو حسيت مجرد إحساس في يوم من الأيام إن العلاقة دي أو غيرها لسة مستمرة.. ساعتها ماحدش هيلومني لو منعت بنتي عن أب زاني غير مؤتمن.

رغم جرح كرامته، أومأ برأسه موافقًا وهو يقول:

- حقك.

ابتعدت عنه قليلًا، وبريق الانتصار يلمع بعينيها، ووضعت صغيرتها في مهدها، وشرعت في خلع ثوب الصلاة، لتظهر ملابس نومها التي لم يرها من قبل، ثم وضعت ثوب صلاتها في الخزانة متصنعة الإرهاق وهي تقول برقة:

- كان نفسي بجد نكمل كلامنا بس مرهقة أوي وعاوزة أنام.

تأملها للحظات.. لقد غيرت طريقة تصفيف شعرها وقصته بطريقة مختلفة، جعلتها تبدو أكثر نضجًا، وصبغت بعض خصلاته بشكل مثير. حتى ملابس نومها تغيرت تمامًا، لم تعد تبدو كالأطفال كما في السابق..امرأة جديدة تمامًا، تستفزه.

اقترب منها وتلمس شعرها وهو ينظر إلى عينيها نظرات تعرفها جيدًا، إلا أنها ازدادت توهجًا وشغفًا ولهفة.

قال:

- طب ما احنا اتفقنا خلاص، لازمتها إيه تفضلي هنا، ما نروح بيتنا بقى.

ظهرت ابتسامة جانبية بين شفتيها وهي تقول:

- لأ.. احنا لسة ماتفقناش. أنا لسة عندي طلبات قبل ما أروح معاك.

قال بنفاد صبر وهو يكاد يلتهمها بعينيه:

- طلباتك كلها مجابة من قبل ما اسمعها.

- عربية معقولة لحد ما ظروفك تتحسن وتجيبلي حاجة تليق بيا.

أومأ برأسه موافقًا، فقالت على الفور:

- الطلب التاني.. السجاير.. مافيش سجاير في البيت خالص.

وقبل أن يعترض قالت:

- الطلب ده بالذات مش علشاني ولا عشانك، ده علشان بنتك وصحتها وأنا عارفة انت قد إيه بتحب "حنين" وبتخاف عليها.

تنهد بضيق وقال بضجر:

- ماشي.. في طلبات تانية؟

ابتسمت ببرود وهي تومئ برأسها قائلة:

- أيوة فاضل طلبين.. الأول.. مافيش حاجة اسمها أقعد مع ضيوفك وأقابلهم غصب عني سواء كان "حسام" أو غيره.

كان هذا أسهل ماطلبته، فقال على الفور:

- موافق يا ستي مش هتقابلي حد إنت مش عاوزة تقابليه.

رفعت يدها وتلمست ياقة قميصه بنعومة وهي تقول:

- آخر طلب هو أهم طلب، ومن غيره مش هاينفع أرجع معاك البيت.

قطب جبينه بتساؤل فقالت:

- تعمل تحاليل الأول تثبت لي بيها إنك سليم.. انت كنت بتعرف واحدة بتتنقل بين كل راجل شوية وأنا بصراحة أخاف على صحتي.

شُعر أنه استحال إلى كرة سلة تضع به أهدافًا لصالحها بكلماتها الحاسمة القوية التي تشوبهاالقسوة، ثم تتلقفه بين يديها لتهدهده، وهي تداعب قميصه وتجويف عنقه بأناملها، فلم يملك إلا أن يقول راضيًا:

- حاضر يا "حبيبة"

***

- تفتكري يا طنط أنا كده مادية؟

قالتها "حبيبة" وهي تنتهي من تجهيز ابنتها استعدادًا للعودة إلى منزلها، فقالت "نور" على الفور وبشكل قاطع:

- طبعًا لاء.. وبعدين احنا اتفقنا نضغطه ماديًا علشان مايلاقيش حاجة يصرفها عليها، ولا ناسية إنها هتوصل بكرة!

شاب ملامحها بعض من يأس وهي تتساءل:

- المعلومات دي أكيدة؟

نهضت "نور" واقتربت منها مربتة على ذراعيها وهي تقول بتشجيع:

- مش عاوزه أشوف اليأس ده في عنيكي..إحنا نجحنا لحد دلوقتي وخليناه ينفذ كل طلباتك بالحرف.

انهار فجأة حائط الصمود التي كانت تختبئ خلفه، وهوت جالسة على الفراش قائلة بشرود:

- خايفة مايوفيش بوعده..

أرادت "نور" أن تبثها بعض الصمود لمجابهة ماهى قادمة عليه، فمزجت صوتها بنبرة تحفيزية وهي تقول بحسم:

- خلي عندك ثقة في الله أكتر من كده.. ربنا هينصرك لأنك بتبعدي جوزك عن الحرام وبترجعيه لبيته ولنفسه من تاني.

ثم تابعت بمرح:

- وبعدين انتِ ناسية إني هاساعدك ولا إيه.. ده أنا دماغي دي تودي في داهية.

حاولت أن تبتسم، ولكنها فشلت، بينما طرقت الخادمة باب الغرفة وأطلت برأسها، وهي تخبرهما بتهذيب أن "خالد" ينتظرهما في الخارج. منحتها "نور" نظرات تشجيعية، وهي تتركها لتنهي ارتداء ملابسها، وخرجت لملاقاته حاملة ابنته بين يديها، وتبعتها الخادمة تحمل حقيبتيهما. أخذ ابنته يداعبها، والابتسامة الواسعة محفورة فوق حنايا وجهه تكاد تنطق باللهفة وهو يقول متسائلًا:

-"حبيبة" جهزت ولا لسه يا عمتو؟

أتاه صوتها قادمًا نحوهما وهي تقول:

- أنا جاهزة.

التفت برأسه إليها، فحدق بها مندهشًا وهو يتفحص ملابسها الجديدة التي تخفي مفاتنها، وذلك الغطاء الناعم الذي لفته بعناية حول رأسها يواري جزءً لا بأس به من جسدها برقة وتناسق. وجدت الابتسامة طريقها إلي شفتيه، وهو يشعر بشيء ما يغزو قلبه تجاهها، جعل نبضاته تختلف قليلًا،وقد زُرع بقلبه للتو وهو يقول بإعجاب:

- كده أحلى كتير على فكرة.

تعبيرات وجهه وكلماته زادتها ثقة ويقين في حديث"نور" السابق وقالت برقة:

- يالا بينا.

ظل على صمته طوال الطريق، يختلس إليها النظرات من حين لآخر، وكأنه يشاهدها لأول مرة. حتى وصلا إلى أسفل بنايتهما، فأشار إلى السيارة الحمراء القابعة يمينًا بجوار البوابة الحديدية الكبيرة، وقال مبتسمًا:

- إيه رأيك في العروسة دي؟

ابتسمت وهي تترجل على عجل من سيارته، متجهةً نحو سيارتها الجديدة.. دارت حولها بسعادة حقيقية، حتى لحق بها فهتفت بفرح:

- تحفة يا"خالد".. حلوه أوي.

ثم تابعت بلهفة:

- هتعلمني السواقه إمتى؟ نبدأ من بكره، ماشي؟

تلعثم وهو يقول بحرج:

- بلاش بكرة.. أصلي عندى شغل مهم أوي خليها بعد بكرة.

شعرت بلحظة انهزام جعلتها تتقهقر إلى الخلف خطوات، بينما أطلت من عينيها نظرات منهزمة وكأنها رايات بيضاء مُعلنة فشلها الذريع لمعركة لم تبدأ بعد! صمتها أقلقه، وخصيصًا عندما تركته واتجهت نحو مدخل البناية ومنه إلى المصعد، ثم توقفت أمامه تضغط أزراره بوجه جامد خالٍ من أي تعبير.

دلف خلفها إلى المصعد، وهو يشعر أنه أصبح في ورطة حقيقية. ساد الصمت والمصعد في طريقة إلى الصعود،لم يقطعه سوى صوت محرك المصعد الخافت وضربات "حنين" الصغيرة بكفها الرقيق فوق انعكاس صورتها بمرآته الخلفية.

وعندما توقف المصعد، سبقته إلى المنزل دون حديث، بينما وضع هو مفاتيحه فوق المنضدة الرخامية المقابلة للأريكة،التي جلس فوقها يقلب الأمر برأسه يمنة ويسرة، ويشعر بثقل كاهليه وهو يستمع إلى أصوات تحركها من خلفة ذهابًا وإيابًا، مهيئة طفلتها للنوم

بعد حمام دافئ سريع. لم يعلم كم مر من الوقت أثناء جلسته الحائرة تلك، حتى استمع إلى صوتها القريب منه وهي تقول:

- جهزتلك الحمام.

رفع رأسه ينظر إليها وهو يشعر أنه خذلها منذ البداية. حاول أن يبحث عن كلمات اعتذار مناسبة، ولكنها قطعت عليه الطريق بانصرافها على الفور، مما جعله يوقن بغضبها منه.انتظر قليلًا، ثم توجه إلى الحمام. وما إن فتح بابه، حتى توقفت يده الأخرى في الهواء، والتي كانت في طريقها إلى مفتاح الإضاءة.. لف برأسه في المكان حوله وهو يخطو ببطء للداخل..الحمام مضاء بالفعل، ولكن بالشموع!.. شموع عائمة فوق سوائل ملونة، بداخل كؤوس صغيرة تستقر أوراق الورود أسفلها، موزعة بأرجاء الحمام، وفوق حافة حوض الاستحمام، وتفوح منها رائحة الياسمين المنعشة،التي استنشقها بتلقائية مبتسمًا براحة كبيرة،واستبدت به الدهشة المختلطة بالإعجاب، وعندها سمع همسها من خلفه قائلة:

- إيه رأيك في جلسة مساج منعشة؟

التفت إليها.. وهنا، علت ملامحه مشاعر كثيرة، ممزوجة باللهفة والانبهار، وهو يمشطها بعينيه بذاك الثوب الفاتن، وقبل أن يتحدث أطعمته حبة من العنب الأحمر بيدها وهي تبتسم بإغراء.

بالتأكيد هذه ليست "حبيبة"، المغلوبة على أمرها! مستحيل أن تكون هي!

***

برغم من أنه كان يسبح في أحلامه، إلا أن الابتسامة أبت أن تفارق شفتيه. نظرت في هاتفها، لتعلم كم تبقى من الوقت على

الفجر، فوجدت أنها دقائق فقط، فابتسمت راضية وهي تنهض من الفراش تنوى الاغتسال.وقع نظرها على حُلته الملقاة بإهمال على أرض الحمام،فتذكرت نصيحة "نور" الأخيرة، وهي تؤكد عليها أن تفتش ملابسه عندما تنفرد بها، لعلها تجد ما يدلها على الخطوة القادمة.

قلبت سترته بين يديها وهي تعبث بجيوبها باجتهاد، حتى لامست أناملها ورقة مطوية بعناية بالجيب الداخلي للسترة، فتحتها وقرأت ما بها بعينين مزج فيها الحيرة باليأس.. إنه عقد إيجار شقة مفروشة بالأسكندرية، ولمدة أسبوع كامل يبدأ من الغد!

زوت ما بين حاجبيها حانقة، وهي تتخيله يأخذ عشيقته إلى هناك قاذفًا كل وعوده بمياه مدينتها المتلاطمة. ماذا تفعل الآن؟.. هل توقظه صارخة طالبة الطلاق بلا رجعة، أم تأخذ طفلتها وترحل بهدوء؟، لماذا كلما دقت طبول الانتصار بصدرها، سحقتها بيادق الهزيمة تاركة إياها ترثو غنائمها!

أعادت كل شيء مكانه بعناية، وهي تتحرك كالآلة الصماء.اغتسلت ووقفت تصلي. وبمجرد سجودها، انهمرت عبراتها تشكو إلى الله حالها وما آلت إليه من ضعف ويأس، وتدعوبالبصيرة والعون. أنهت صلاتها ولمعت فكرة برأسها أنعشت الأمل بداخلها من جديد. ولم لا، وهي ساعة التجليات كما علمتها "نور". وبعد أن استطابت الفكرة برأسها واستقرت عليها، لم تستطع أن تغفو ولو لدقيقة واحدة، منتظرة شروق شمس يوم جديد لتبدأ بالتنفيذ !.

- 16 -

استدعت شخصيتها الطفولية من جديد، وهي توقظه معانقة إياه في سريره، مما جعله يستيقظ مدهوشًا وهو ينظر إليها بعدم فهم متسائلًا عن السبب. أخذته من يده لتنهضه بحماس وظلت محتفظة بكفيه بين يديها قائلة:

- مفاجآتك حلوة أوى يا "خالد"، بجد إنت أعظم زوج في العالم.

أنهت عباراتها الحماسية وهي تلوح بعقد الإيجار أمام عينيه اللتين كانتا تحملقان بها ببلاهة وقد رأى عقد إيجار الشقة المفروشة بين أصابعها وذابت الكلمات بحلقه وهو يحاول الهمهمة بكلمات مبتورة، قاطعتها وهي تعانقه مرة أخرى قائلة بمكر:

- بطل بقى حركاتك دي.. المفاجأة اتحرقت وخلاص.

ظلت معانقة إياه وهي تتابع:

- ماتتصورش لما شُفت العقد ده حسيت بإيه.. أسأت الظن فيك إمبارح لما قلتلي بلاش بكره أنا عندي شغل.. لو تعرف حبك زاد في قلبي قد إيه وانت مختار لي اسكندرية اللي باموت فيها.. بجد حبيتك أوي.

ألجمته، فلم يعلم ماذا يفعل أو ماذا يقول وهو يحمد الله أنها ذهبت بتفكيرها إلى هذا الاتجاه، الذي أنقذه. أبعدها برفق وقبل

جبينها، وهو يقول بامتنان حقيقي كان يشعر به تجاهها في تلك اللحظة:

- دي أقل حاجة أقدمهالك ياحبيبتي.. يالا بقي جهزي نفسك على ما أعمل كام مكالمة كدة علشان أظبط الشغل في اليومين اللي هنسافر فيهم دول.

أخذ هاتفه، ودلف إلي الشرفة مستغلًا انشغالها في جمع ملابسهم. وفور أن أغلق باب الشرفة خلفه، لحقت به ووضعت أذنها على النافذة الصغيرة التي تنتصف الحائط الفاصل بين الشرفة وغرفة المعيشة.

كان اسم "حسام" هو أول من لمع برأسه كالعادة. هتف "حسام" بانفعال شديد:

- وأنا مالي ومال القرف بتاعك ده.. أنا مش فاضي يا "خالد" شوفلك حد غيري

أخفض صوته وهو يقول بنبرة أشبة بالتوسل:

- قرف إيه بس اللي بتقول عليه..أنا نويت فعلا قطع علاقتي بيها، بس المشكلة إن في بينا شغل وفلوس،مااقدرش أزعلها دلوقتي خالص.أنا خدتلها شقة في إسكندرية وقلتلها إني مالقتش في القاهرة علشان أرميها هناك وابقى أتحججلها إني مش فاضي أسافرلها كل شوية وكده..وهي اللي هتزهق وتمشي من نفسها، وعلى ما الشهر الجاي ييجي أكون ظبطت أموري وشفتلي مورد تاني.

جاءه صوت "حسام" مضطربا وهو يتساءل:

- كل ده علشان صالحت "حبيبة"؟

أرسل خالد تنهيدة قوية وهو يقول بنشوة:

- "حبيبة" اتغيرت أوي ياحسام..بقت واحدة تانية خالص. شخصيتها اختلفت فجأة،بقت قريبة من ربنا..وبقت أقوى وعارفة بتعمل إيه كويس، حتى شكلها اتغير!

ثم تابع وهو يشرد بذهنه في ليلة أمس، وقد ارتسمت ابتسامة جذلة فوق شفتيه قائلا:

- حاسس إني أول مرة أعرفها.. كأني لسه متجوزها إمبارح بس.

انقطع الاتصال فجأة، مما جعل "خالد" يعقد حاجبيه بضجر وهو يحاول إعادة الاتصال مرات ومرات، والنتيجة واحدة: الهاتف مغلق. زفر بضيق، وهو لا يدري أن هاتف "حسام" الآن قد استحال إلى قطع متناثرة مسحوقة فوق أحد الأرصفة،وسيارته تنطلق بسرعة جنونية على الطريق بلا هدف، بعد أن امتلأ قلبه بغيرة مشتعلة.

بينما لم يكن هناك من هو أسعد من "راغب" في تلك اللحظة، وهو ينصت إلى "خالد" باهتمام شديد، ثم قال بلهفة أقلقت "خالد" رغم محاولة الأول إخفاءها:

- طبعًا طبعًا يا "خالد".. ده إحنا إخوات ولازم أسد مكانك.. عموما ماتقلقش أنا هاقوم بالواجب وهاقولها إنك تعبت فجأة ومراتك وأهلك جنبك دايما علشان كده معرفتش تعتذرلها.

حاول "خالد" أن يشعر ببعض الراحة بعد أن أنهى الاتصال مع "راغب"، ولكن القلق أبى أن يتركه، فهو يعلم مدى شغف راغب وإلحاحه السابق في التعرف عليها.لقد كان يرى بريق عينيه وهما في إحدى سهراتهما الخاصة، وهو يتحدث عن علاقته بها. تنهد بعمق

وهوينفض "راغب" من رأسه، ويتجه للداخل استعدادا للرحلة التي بدأ يتحمس إليها بالفعل.

***

وصلا إلى الاسكندرية عصرًا، وقد بدأت حرارة الجو في الاعتدال قليلًا. تناولا طعام الغذاء في أحد المطاعم المطلة على البحر، مباشرة بعد أن وضعا حقائبهما في الشقة المستأجرة، ثم قامت "حبيبة" بدور المرشدة السياحية، وهي توجه "خالد" وترشده إلى الأماكن الأجمل والأقل زحامًا، وهي تقص عليه ذكرياتها مع كل مكان منذ مراهقتها وحتى ارتحلوا إلى القاهرة.

لفت نظر خالد عدم ذكرها لشيء من طفولتها، وتجنبها الحديث عن تلك الفترة تماما، ولكنه لم يلق بالًا لذلك،وتركها تقود الرحلة بحماس وهي تشير هنا وهناك ضاحكة، وتتذكر صديقتها "ندى" وذكرياتهما معًا.

وأخيرًا تلألأت تلك المدينة الساحرة بأضوائها المتراصة على الجانبين، كعروس ازدانت وتجملت بتاج ماسها اللامع وصوت أمواجها المتلاطم والمتحدي لصخور شواطئها المبتلة دومًا.

شعر "خالد" بإرهاق شديد، وقرر العودة إلى الشقة لاستقطاع وقت من الراحة،قبل ذهابهما في الصباح الباكر إلى أحد الشواطئ الخاصة. وقبل منتصف الليل بقليل، وقبل أن يغفو تمامًا، تسللت من الفراش قاصدة أن تبدو لفتاها مريبة ومثيرة للشك، وأغلقت الباب بهدوء. قطّب حاجبيه، وانتظر قليلًا، ثم نهض خلفها يتبعها. بحث عنها حتي وجدها في أحد أركان غرفة المعيشة تصلي،فظل واقفًا حتى أنهت صلاتها. وعندما التفتت وهي تنهض، وجدته

مستندًا إلي باب الغرفة مستغرقًا في تأملها.التقت عيناهما،اعتدل متسائلًا:

- بتعملي إيه؟

اقتربت منه ووضعت راحتها فوق صدره موضع قلبه تمامًا، وقالت:

- باصلي ركعتين شكر لله علشان رزقني بيك يا "خالد".

ارتجت مشاعره، واستجاب قلبه لموضع راحتها فوقه، فأخذ ينتفض لعله يستطيع لمسها. شعر بغصة في حلقه وهو ينظر إلي عينيها الصافيتين.. كيف لم يلتفت لهذا الصفاء من قبل، وتلك الرقة التي عذبها كثيرًا بإهماله وخيانته؟ أمسك برأسها بين كفيه، وقبل جبينها بقوة،أودع بها كل ما يموج به صدره من اعتذار، ثم نظر إلى عينيها وهو يقول بعاطفة جياشة اجتاحته:

- إطلبي مني أي حاجة أعوضك بيها عن اللي فات؟

ضحكت بخفوت ثم قالت مداعبة:

- أي حاجة؟.. أي حاجة؟

أومأ مؤكدا، فوضعت راحتيها فوق كفيه الممسكين برأسها وقد لمعت عيناها من شدة التأثر وقالت:

- تصلي بيا ركعتين.

كانت المرة الأولى التي يقف فيها مكبرًا للصلاة منذ سنوات.. منذ رحيل "حنين".ها قد عاد مرة أخرى، بعودة "حبيبة"!، وهو لن ينسى لها هذا أبدًا، مادام به قلبٌ ينبض.

***

كانت المرة الأولى التي يداعب فيها ابنته هكذا، مستغرقًا معها يحملها ويشاركها مشاكسة "حبيبة"، التي تجلس على المقعد أمامهما وتضحك بسعادة غامرة، وهي ترى "خالد" يحملها ويقربها من المياه، حتى لامست ركبتيها الصغيرتين، ويؤرجحها للأمام وللخلف، حتى تعبت وبحثت عن الطعام. وضعها خالد بين يدي والدتها وجلس بجوارهما منهكًا وهو يلهث قائلًا:

- بنتك طلعت عيني.

ضحكت "حبيبة" وهي تطعمها بملعقتها المخصصة لها وتقول:

- هو انت لسة شفت حاجة بنتك مشاكسة أوي.

عندما لم يجبها، نظرت إليه، فوجدته يتأمل السماء الصافية والتقاءها من بعيد مع مياة البحر، في أبعد نقطة منها، وأمواج البحر تصبغ على تلك اللوحة الفنية هديرًا متناغمًا مع أصوات الطيور العاشقة. طال تأملها للاسترخاء البادي على ملامحه،وعندما عادت برأسها لطفلتها وجدتها قد ذهبت في سبات عميق، بعد نفاد طاقتها في اللعب، فوضعتها في كرسيها الصغير الهزاز أمامها، ثم سمعته يتساءل:

- نامت؟

ابتسمت وهي تعتدل في مواجهته مجيبة:

- نوم الظالم عبادة.

ابتسم وهو يتناول الكوب البلاستيكي المملوء بالشاي من فوق الطاولة الصغيرة المجاورة له..

تعلق بصره ببعض الفتيات اللاتي مررن أمامه في ملابس السباحة، فقالت على الفور:

- عارف يا "خالد"، أول مايوه لبسته في حياتي كان حلو أوي،بس كنت بابقى مكسوفة وأنا لابساه. كان لونه روز، والصدر كان عليه نجوم لونها أبيض على شكل حلزوني.

استطاعت أن تصنع له صورة ذهنية بديلة، ونجحت في تشتيت ذهنه، فالتفت إليها متسائلًا:

- ياه لسة فاكره تفاصيله للدرجادى؟

أومأت برأسها مبتسمة وهي تتابع:

- تعرف إن طنط "نور" قالتلي إن عمو "مصطفى" - الله يرحمه - كان بيغير عليها موت، وأول مااتجوزوا كان محرم عليها تنزل البحر أصلًا، وهو اللي شجعها تلبس الحجاب وتغير من طريقة لبسها.

ثم ضحكت وهي تتابع بهيام:

- كانت بتحكيلي على المغامرات اللي كانت بتحصل بينهم، والمواقف اللي كانت الناس بتفتكر بيها دماغه صعيدي ولا متشدد، لكن هي من جواها كانت بتموت فيه وهو بيعمل كده ولا بيهمه حد.

رسمت الشرود فوق ملامحها وأعقبت ذلك بتنهيده حارة قائلة:

- قد إيه أنا حبيته وكان نفسي أقابله - الله يرحمه -.

تأملها مندهشًا رافعًا حاجبيه، وقد جمعت قبضتيها وضمتهما إلى صدرها. تفحصها مرة أخرى ثم مال باتجاهها قائلًا بخشونة:

- البلوزة دي ضيقة مااشفكيش لابساها تاني!

هتفت باعتراض:

- لأ مش ضيقة ده الهوا هو اللي بيخليها تلزق فيا.

دنا بوجهه منها وهو يقول متوعدًا:

- بلا هوا بلا مية.. الكلام اللي أقوله يتسمع.. فاهماني؟

ضحكت وهي تحتضن ذراعه قائلة برقة:

- حاضر يا روحي.

***

تفاجأت "نور" بوجود "سليم" والد "حبيبة" في مكتبها صباحًا، فأومأت برأسها بابتسامة مندهشة وهي تقول مرحبة به:

- أهلًا وسهلًا يا"سليم"بيه نورت مكتبي.

نهض وهو يقول معتذرًا:

- أنا آسف إني جيت من غير معاد،وكمان دخلت مكتبك من غير استئذان.

دارت حول مكتبها لتجلس خلفه، وهي تضع حقيبتها الصغيرة فوقه قائلة:

- لأ مافيش حاجة.. زي ما حضرتك شايف ده مكتب في جمعية خيرية، يعني مفتوح للناس كلها.

كان يستمع إليها ولكنه ينظر بفضول إلى الصورة الكبيرة التي تحتل ركنًا قصيًا من سطح مكتبها، لفتاة في عمر الزهور وشابين يجاورانها فقالت على الفور وقد لاحظت نظراته:

- دي"حنين" بنتي - الله يرحمها -.

ابتسم معقبًا:

- شبه"حبيبة" أوي وهي في نفس سنها.

أومأت برأسها موافقة وهي تتكئ بمرفقيها إلى مكتبها قائلة:

- خير يا "سليم" بيه، أكيد في حاجة مهمة قوي اللي خلتك تشرفنا النهارده؟

تنحنح وهو يعتدل استعدادًا للحديث وقال:

- بتعجبني شخصيتك العملية جدًا يا مدام "نور"، وعشان كده هادخل في الموضوع علطول.

أنهى كلماته وهو يخرج ورقة صغيرة مطوية مادًايده إليها قائلًا:

- ده شيك فيه تبرع بسيط للجمعية.

تناولته وهي تنظر إلى المبلغ المدون فيه، ثم رفعت رأسها إليه قائلة بثقة:

- دي لفته كريمة من حضرتك.. بس أكيد مش هو ده الموضوع اللي عاوزني فيه

ابتسم لفطنتها وقال بعملية:

- الحقيقة يا مدام "نور" أنا داخل في مشروع مهم جدًا بالنسبة لي.. المشروع ده مكسبه أضعاف أضعاف الفلوس اللي هتتحط فيه، وأنا محتاج شريك ليه وزنه في السوق زي شركة حضرتك.

شبكت أصابعها بعضهما البعض قائلة:

- بس "حسام" هو المسئول عن الشركة ماكلمتوش هو ليه؟

زم شفتيه باسف بالغ ثم قال بهدوء:

-الحقيقة ابنك ضيع على شركتك قبل كده صفقة مكسبها مهول لما رفض يشاركني فيها، علشان كده أنا جيتلك على طول المره دي وأنا واثق في رجاحة عقلك.

عادت بظهرها للوراء مستندة الى المقعد وهي تقول بثقة:

- أنا كمان واثقه في "حسام"، وعارفه هو بيمشي الشغل إزاي، وموافقة علي كل قراراته.

أخفى سليم حنقه وغيظه بمهارة، وهو يحاول باستماتة أن يقنعها بأهمية تلك الصفقة، والمكانة التي ستقفز إليها شركتها بجوار شركته الصغيرة في سوق الأعمال. ولكن محاولاته باءت بالفشل، فخرج من مكتبها بخفي حُنين وهو يلعن اليوم الذي وافق فيه على زواج "حبيبة" من"خالد"، والذي لم يعد عليه بأي فائدة تذكر، حتى الآن.

***

انحنى باحترام مبالغ فيه وهو يقول مداعبًا:

- اتفضلي يا سمو الأميرة.

ضحكت وهي تخطو داخل شقتهما بالقاهرة قائلة بغرور مصطنع:

- شكرًا يا وزيري.

أغلق باب الشقة مصطنعا الغضب هاتفًا:

- وزيرك!! طب أنا غلطان.. المفروض أقولك ادخلي يا بت.

ضحكت وهي تهوي إلى أول مقعد صادفها، قائلة بإرهاق وهي تدور بعينيها بين جنبات المنزل بحميمة وافتقاد:

- ياه البيت وحشني أوي،رغم إن الأسبوع عدى بسرعة جدًا.

قال بإنهاك متوجهًا إلى غرفة النوم وهو يحل أزرار قميصه:

- إفتحي بقى الموبايلات، تلاقي الدنيا اتهدت واحنا مانعرفش.

كانا قد اتفقا على عزل أنفسهما عن العالم طوال الأسبوع الماضي عن كل شخص يعرفهما. شعرهو في تلك الأيام القليلة بأنه قد استعاد"خالد" القديم بكل ما افتقده إثر الضغوط النفسية التي تعرض لها منذ سنوات، أما هي فقد تولدت لديها ثقة بالنفس لم تكن موجودة من قبل. كانت تشعر بنشوة بالغة وهي ترى في عينيه الإعجاب وهي تتحدث عن عملها الجديد، وحماسها وطموحاتها الكبيرة، وتأثرها بشريحة من المجتمع لم تكن تعلم عنها إلا القليل، ولاحظت تأثره الشديد بطريقتها الجديدة في الحديث، وهي تستخدم معه التواصل بكل أنواعه،وأصبح لها حضور قوي يأسره، وكان هذا الشعور وحده كافيًا لإرضائها وحثها على الاستمرار.

بمجرد أن فتحت الهواتف،انهال عليها كم من الرسائل الصادر معظمها عن "نور"، وجميعها يحمل خبرًا واحدًا فقط.. طلاق حسام وهدى!

جلس"خالد" بجوار عمته وهو يقول بنفاد صبر:

- طب قوليلي انتِ يا عمتو إيه اللي حصل طالما هو مش عاوز يريحني!

زفر"حسام" بضيق، بينما قالت"نور" بصوت حزين:

- والله يابني أنا مااعرفش حاجه أكتر من اللي قالوها هما الاتنين: مافيش نصيب وخلاص.

تدخلت "حبيبة" متسائلة بدهشة:

- فجأة كده؟

وكأنه كان ينتظر كلمتها، انتفض واقفًا وهو يلتفت إليها بجسده كله، وبعصبية جعلتها تنكمش في مقعدها:

- وانتِ مالك؟

نهض "خالد" وجذب "حبيبة" لتقف بجواره، وأحاط كتفها بذراعه مطمئنًا لها وهو يهتف:

- ماتتكلمش مع مراتي كده يا "حسام". مالك طايح فينا كده ليه؟ إنت حر يا أخي إعمل اللي تعمله، إحنا غلطانين أساسًا.

رأت "نور" الشر، تلوح به عينا ولدها، وهو يقبض يده بقوة ويضغط أسنانه وقد احتقن وجهه، فتدخلت واقفةً بينهما وهي تمسح علي ذراع "حسام" بحنان قائلة:

- إهدا يا "حسام" علشان خاطري أنا.

قذف "خالد" بنظرة متوعدة حارقة، قبل أن يستدير مغادرًا للغرفة صافعًا الباب خلفه، بقوة جعلت "حبيبة" تضع كفيها فوق أذنيها وارتجف قلبها، بينما التفتت "نور" إلي "خالد" وهي تقول:

- ماتزعلش منه يا "خالد".. هو بقاله كام يوم مش طبيعي حتي من قبل ما يطلق مراته.

زفر "خالد" بقوة، وهو يخرج ما يعتمل بصدره من سخط على صديق عمره،الذي تغير كثيرا، ولا يريد التفوه بسبب واحد مُقنع، ولا أحد يعلم ماذا حدث له. مسح علي شعره متسائلًا:

- طيب هي ماقالتش إيه سبب الطلاق؟

حركت"نور" رأسها نفيًا وهي تجيبه بيأس:

- اتكلمت معاها كتير يا"خالد"، وآخر مرة قالتلي الطلاق كان كده كده هيحصل؛لأنهم مش عارفين يتفقوا خالص حتي في أوضة النوم يعني لو كملوا مع بعض هيبقوا بيضيعوا عمرهم علي الفاضي.. فيتطلقوا بشياكة ويفضلوا أصدقاء.

رغمًاعنها سالت دمعة على وجنتها، فهي وحدها من تشعر بقلبه وتقرأ بسهولة ما يختلج به. إنه يتألم وبشدة.. نيران الغيرة تلتهمه بلا رحمة، وتحوله إلى شبه حي، فكيف يستطيع أن يحيا حياة طبيعية مع من لا تبذل أدنى جهد في تقبله كما هو؟ لو أنها فقط انتظرت قليلًا، لكانت نقلت إليها ما تعلمته، لعلها تستجلب قلبه.

ولكن هل كانت ستفعل؟!!

***

عادت إلى عملها بالجمعية الخيرية مرة أخرى، وانشغلت بها محاولة الانسلاخ من إحساسها القاتل بالذنب تجاهه، سابحة وسط مشاكل الآخرين، لعلها تنسى مشاكلها معه ولكن، تأبي تلك العلاقة في الخمود !.

تفاجأت يومًا بدخول "راغب" حجرة مكتبها، مغلقًا خلفه بابها مبتسمًا بخبث، وهو يقول متصنعًا الأسف:

- أنا آسف إني دخلت فجأه كده، بس أنا مش غريب برضه.

رفعت حاجبيها وهي تنظر إليه بدهشة، بينما أردف هو ساخرًا وهو يتأمل حجابها:

- ده الكلام اللي وصلني عنك صحيح بقى... تصدقي فرحتلك؟

حملت حقيبتها وهي تنهض قائلة بضيق:

- متشكره أوي..معلش مضطرة أستأذن أصل طنط "نور" مستنياني في مكتبها.

نهض وتحرك بسرعة قاطعًا الطريق أمامها، فابتعدت للخلف وهي تنظر إليه باستنكار وهويقول:

- لسه بدري يا مدام.. مش تستني لما تعرفي أنا عايز منك إيه؟

حاولت السيطرة على انفعالاتها واستعادة رباط جأشها وهي تتساءل بحدة:

- عاوز إيه؟

حدقت به واتسعت عيناها ذهولًا، عندما قال بوقاحة وهو يشير إليها:

- عاوزك.

لم يلتفت إلى الذعر المستعر بعينيها الزائغتين، ووجهها الشاحب وهو يمسك بذراعيها بقسوة متسائلًا بمكر:

- ولا أنا لازم أروح أربيلك عضلاتي الأول؟

وبرغم الارتجافة التي تنطق بها كل خلجة من خلجات جسدها، إلا أنها تمالكت قواها بسرعة، ودفعته بعيدًا متراجعة للخلف محتمية بمكتبها صائحة:

- إنت أكيد اتجننت ولا شارب حاجة!

حرك ذراعيه في الهواء وهو يتراجع ببطء إلى الخلف، رغم أنه لم يترك لها حرية الحركة للخروج من الحجرة، وهو يقول محاولا تهدئة الموقف:

- إهدي.. أنا مش جاي أغتصبك هنا قدام الناس. خليكي هادية عشان نعرف نتفاهم.

انزوت خلف مكتبها أكثر، وهي تقبض على هاتفها النقال وكأنها تستمد منه قوة مواجهته. رغمّاعنها، لمعت عيناها بدموع أبت أن تغادر مقلتيها .

هو كما عهدته منذ زواجه من أختها، بنظراته ذات المعنى البغيض. ورغم شعورها باختراق تلك النظرات لجسدها، إلا أنها كانت دوما تتجاهلها ولم تتصور يومًا أن تتحول رغبة عينيه الصامتة إلى فعل حقيقي وتجرؤكهذا.

ولكن ليس هذا ما أخافها،فهي تدرك أنه لن يجرؤ على لمسها في مكتبها، إنما ما جعل قلبها ينتفض خوفًا هو تلميحه المبتز لها.

لم يتركها تتخبط كثيرا بين ظنونها ونواياه الوقحة.اقترب منها خطوتين وقال مؤكدًا لما يدور بعقلها:

- قبل أي حاجة، لازم تعرفي إني سمعت كل كلمة دارت بينك وبين حبيب القلب على السفينة يوم خطوبته.

ومال برأسه يمينًاوهو يعقد حاجبيه قليلًا ثم يقول:

- شفتي بقى أنا صبور إزاي؟

ازدردت ريقها بصعوبة، محاولة السيطرة على ارتجافة بجسدها قائلة:

- أنا ما فيش حاجة بيني وبينه إنت فاهم غلط.

استند إلى حافة المكتب براحتيه، وهو ينحني قليلًا مبتسمًا بخبث قائلًا بخفوت وكأنه لم يسمعها:

- بيني وبينك أنا مارضيتش أجازف قبل كده.. عشان كنت عارف ان علاقتك بـ"خالد" ماكانش ليها قيمة عشان تخافي عليها.. لكن دلوقتي الوضع اختلف.

جمدت ملامحها وهو يراقب تغير وجهها وتقلصه كمن يدافع الموت.اعتدل وهو يقاوم شعورًا بداخله يأمره بالانسحاب لعلها تهدأ، وقال بجدية مدافعا عن نفسه:

- أنا مش حيوان زي ماانتِ فاكرة..أنا بحبك من زمان وكنت بعمل المستحيل عشان تحسي بيا.

وضع يده على صدره وهو يردف:

- أنا اللي عزمت "بثينة" يوم عيد ميلادك، وكنت متأكد إن "شادي" هيبيعك أول ماهي تشاورله بالشهرة والفلوس اللي كان بيدور عليهم،وبعد ما"سليم" باشا قال لي إن"خالد" صرف ورثه كله على الحريم كان سهل جدًا أتصاحب عليه وأعرف مداخله وبرضه كنت متأكد إنه هيبيعك عند أول ست تشاورله.

هو من سعى دائما إلى تخريب حياتها العاطفية،وها هو الآن وقد نفد صبره يسعى إليها بمعوله مهددًابتحطيم كل شيء، بعدما تعبت وبذلت الكثير حتى استطاعت بناء حياة جديدة، ربما تجد بها ذاتها التي ذهبت ولم تعد.. وجدت نفسها تتمتم بلا وعي:

- مش خايف أروح أقول لـ"حسام"؟..مش خايف "نشوى" تعرف انت عاوز مني إيه؟..مش خايف أقول لـ بابا؟

قهقه ضاحكًا وهو يجلس على المقعد أمامها واضعًاساقًا فوق الأخرى وهو يجيبها بثقة:

- أنا وانتِ عارفين كويس قوي إنك مش هتقدري تقولي لـ"حسام"، خصوصًا وانتِ متأكدة إنه يتمنى إن "خالد" يطلقك. وبرضه عارفه إن "نشوى" عمرها ماهتصدق بغرورها إني ممكن أبص لواحدة تانية غيرها وانتِ اللي هتطلعي كدابة.

ثم لمعت عيناه وهو ينظر إليها كذئب قد ضيق الخناق على فريسته، ويخطو نحوها خطوته الأخيرة القاتلة وهو يقول:

- وأبوكي من مصلحته إنك تتطلقي علشان يشوف زبون تاني يعرف يشاركه، وخصوصا بعد ما اتأكد إن "خالد" وعيلته مافيش من وراهم مصلحة.

هوت إلى المقعد حتى كاد أن ينقلب بها، وقد خارت قواها وتزلزلت الأرض من تحت قدميها، وبداخلها كانت موقنة أنه على حق فيما يقول. ضاق عليها الخناق، فلم يعد أمامها سوى مهرب واحد.. مهرب شائك.

- 17 -

خرجت من حجرة مكتبها، لا تلوي على شيء، ولا تلتفت إلى من يستوقفها، تذرف دمعًا مريرًا يتذوق لسانها ملوحته. استكانت لثوان معدودة خلف المقود داخل سيارتها الصغيرة، شاردة في المرآة التي أمامها، وقد تلطخ وجهها بالدمع ناحتًا خطين أسودين من أثر الكحل فوق وجنتيها.تراجعت برأسها إلى الخلف مغمضة عينيها بقوة، ثم فتحتهما بشدة لعلها تصحو من هذا الكابوس المريع..

خياران أحلاهما مُر، وأفضلهما فضيحة! لمحته يخرج من مبنى الجمعية، فأدارت سيارتها على الفور، وانطلقت هاربة إلى قدرها المحتوم.

وكأن قوة ما توجهها وترشدها إلى طريق سمعت وصفه من قبل، وجدت نفسها تقف وتصف سيارتها أسفل المبنى، الذي يضم النادي الصحي الذي يمتلكه "حسام".انطلقت مسرعة دون أن توصد باب سيارتها إلى الداخل، وكأنها تحتمي بالمبنى ومن فيه. أخرجت محرمة ورقيةً من حقيبتها جففت بها أثر الدمع على وجنتيها، معدلة هيئتها، ووقفت أمام موظف الاستقبال، بعدما قطعت رواقًا قصيرًا انتهى بمكتبه القابع خلف حاجز رخامي، وسألت باقتضاب:

- كابتن "حسام الصياد" موجود من فضلك؟

تفاعل الموظف مع هيئتها البائسة ونهض قائلًا بتعاطف:

- هو يادوب لسة واصل، بس هو مع مهندس الصيانة فوق في ركن حبيبة.

رمشت بعينيها حائرة، وتساءلت بفضول بالغ وبصوت مبحوح من أثر البكاء:

- إيه ركن حبيبة ده؟

قال بتهذيب:

- ده ركن الساونا والتدليك الخاص بالسيدات فوق يا فندم.

أومأت برأسها واجمة، وهي تشعر بشجن قوي يجتاحها، ثم نفضت رأسها بقوة وفركت راحتيها بتوتر شديد، وهي تفكر بجدية في الفرار من هنا. ولكن ماذا ستفعل مع "راغب"؟لن تستطيع مواجهته وحدها. ضمت جسدها بذراعيها، وهي تستغفر وتدعو بالخلاص، حتى سمعته من خلفها متمتمًا باسمها بخفوت. غضت بصرها أرضًا، فأشار إلى حاجز زجاجي مصقول في ركن قصي من صالة الألعاب، وقال وهو يتفحص أثر تلطخ الكحل على وجهها قائلًا:

- اتفضلي في مكتبي.

سارت أمامه بخطوات ضعيفة، وكأنها سيغشى عليها، فتح الباب الزجاجي ودعاها للدخول مرحبًا، وعندما دلف خلفها، وقبل أن يغلق الباب التفتت إليه قائلة:

- من فضلك سيبه مفتوح.

استجاب لها متفهمًا، وترك فرجة منه مفتوحة، ثم جلس أمامها قلقًا، وقبل أن يتساءل عما حدث لها، قالت مطرقة برأسها وهي تنظر إلى كفيها المتشابكين أمامها:

- عاوزاك تسمعني للآخر وبلاش تقاطعني لأي سبب من الأسباب مافيش قدامي وقت كتير.

أومأ برأسه موافقًا، وهو يتأملها شوقًا ولوعة، وهي تقص عليه وتتحاشى نظرات عينيه التي تحولت من الشوق والقلق، إلى الدهشة والاستنكار،ثم الغضب العارم. صمتت وهي تبتلع ما تبقى من ريقها الجاف منتظرة منه إجابة أو رد فعل، فلما لم تجد قالت بخفوت:

- راغب اتحداني إني مش هاقدر أجيلك وأبلغك باللي حصل منه معايا، وقاللي إنك هتستغل الموقف لصالحك، ورغم كده أنا جيتلك عشان واثقة إنك هتحميني وتقف جنبي مهما كان وجعك.

حرك رأسه بوجوم وهو يقول متألمًا:

- للدرجة دي متمسكة بـ"خالد"؟

قالت:

- عاوزة بنتي تتربى بين أبوها وأمها من غير مشاكل ولا قلق..نفسي أنجح يا "حسام"، عاوزة أحافظ على بيتي..عاوزة ألاقي نفسي..وبعد اللي "راغب" عمله ده مش هاقدر أعمل أي حاجة من كل ده، إلا إذا وقفت جنبي وساعدتني.

زمَّ شفتيه بقوة، حتى كاد يعتصرهما، وهو ينهض واقفًاكليث أصابته طعنة غادرة برمح صديق،وقال بنبرة ذبيحة:

- خلاص أنا هاعملك اللي انتِ عاوزاه وأوعدك إنه مش هيتعرضلك تاني أبدًا.

قضى "راغب" أمسيته المعتادة في أحد شقق أصدقائه الفاخرة، غاب فيها جزءًا من عقله وآدميته بصحبة النساء والمخدرات والأضواء النارية، حتى أوشكت ليلته على الانتهاء، مودعة إياهم ساخطة عليهم. وقبل بزوغ الفجر بقليل، وقف أمام سيارته يترنح، والهواء البارد يصفع وجهه بقوة،في تلك الساعة المتأخرة من الليل، وبصعوبة بالغة استطاع فتح باب سيارته الموصد. ارتطم رأسه بالباب وهو يحاول احتلال مقعد القيادة، وأخيرًا نجح في غلق الباب وتشغيل موتور السيارة وهو يدندن بكلمات مبعثرة من أغنية مبتذلة رخيصة. وفجأة وبدون مقدمات، فُتح الباب مرة أخرى، ودُفع بقوة نحو المقعد المجاور له، وعندما اعتدل ساخطًا وهو يسب من فعل به هذا، والتفت بجسده ليواجه مهاجمه الذي احتل مقعده خلف مقود السيارة، صافعًا الباب خلفه مخرجًا سلاحه واضعا إياه فوق صدغ "راغب"، بعد أن سحب صمام الأمان، وباليد الأخرى جمع تلابيبه في قبضته.

انتفض "راغب" وهو يحدق بوجه "حسام" برعب، وقد استيقظ عقله دفعة واحدة،وكأنما أُفرغ فوق رأسه دلو مياه مثلجًا أعاده إلى وعيه سريعًا، ثم صرخ مستجديًا:

- لأ لأ أرجوك ماتموتنيش أبوس إيدك يا "حسام" بيه.

كانت عينا "حسام" المتجمدة، ويده تعتصر الزناد ببطء وبلا رحمة، كفيلة بأن تقتله رعبًا وهو يتخيل نفسه وقد أصبح جثة هامدة في لحظة، فأغمض عينيه وبكى كالأطفال، حتى علا نحيبه وهو يصرخ برجاء:

- أبوس إيدك بلاش... أنا آسف.. أنا حيوان.. أوعدك عمري ماهتعرضلها تاني

دنا بوجهه منه ناظرًا إليه نظرة أرعبته وهو يقول بصوت بارد كالثلج، وكأنه قاتل محترف بلا قلب:

- المرة اللي فاتت لما جيتلي المكتب وابتزتني باللي سمعته على المركب افتكرت إنك طمعان في قرشين وخلاص، عشان كده اكتفيت بطردك من مكتبي وقلتلك اعمل اللي تعمله أي حاجة هتعملها هتصب في مصلحتي..لو كنت أعرف إنك عاوزها هي ما كنتش سيبتك تعيش لحظة واحدة بعدها..دلوقتي بقى بعد ما عرفت...

أنهى كلمته الأخيرة وهو يرفع سلاحه من فوق صدغ "راغب"، ويصوب فوهته بين عينيه وهو يتابع:

- عينيك دي اللي بصيتلها بيهم هاحرمك منهم.

صرخ "راغب" وهو يحاول فتح الباب المجاور له، إلا أنه كان موصدًا، ولم يستطع أن يخلص تلابيبه من بين قبضة "حسام"، فوضع رأسه بين يديه وهو يهزي بتذلل:

- إرحمني يا "حسام" بيه أبوس رجلك.. جربني مرة واحدة بس وهتشوف. لو قربتلها تاني ابقى اقتلني.

تصنع "حسام" التفكير لثوان، كانت كفيلة لتجميد الدماء في عروق "راغب" وهو ينتظر مصيرهً. ثم قال وهو يعيد صمام أمان مسدسه لما كان عليه:

- ماشي..هديلك فرصة كمان بس بعدها تحضر كفنك.

بكى "راغب" بقوة، وهو لا يصدق أن مازالت أمامه فرصة للنجاة، وهو يبدي وعوده بعدم الاقتراب منها مجددًا. ترك "حسام"

العنان لقبضته تلكم أنف غريمه بقوة، جعلت الدماء تتطاير منها، فوضع "راغب" كفيه فوقها صارخًا، وهو يستمع إلى "حسام" الذي قال ببرود:

- دي حاجة بسيطة بس عشان كل ماتيجي على بالك تفتكر اللي هيحصلك مني

أنهى عبارته وانسحب برشاقة من السيارة، مختفيًا فجأة كما ظهر فجأة،حتى خُيل لـ"راغب" أنه يحلم، لولا تلك اللكمة، إلا أنه لم يفكر كثيرًا، خائفا من أن يعود مرة أخرى،فانطلق بالسيارة هاربًا من المكان وكأن وحوش الأرض تطارده.

***

جافاها النوم في تلك الليلة، وظلت تعاني سهادًا طويلًا قض مضجعها وأنهك قواها الذهنية، وأخيرًا نهضت من فراشها، بعد أن ألقت عليه نظرة حانية، ودلفت إلى الشرفة ووقفت تراقب ظلام الطريق أمامها، وكأنه انعكاس ليأس تغلغل رغمًا عنها إلى قلبها، فأطفأ به أنوار الأمل.

هبت نسمة باردة لفحت وجهها، وحركت الستار من خلفها، تبعها صوت الكروان الشجي سابحا في الكون الشاسع، مما جعلها ترفع رأسها إلى السماء وتتمتم بخفوت:

-"حسبي الله ونعم الوكيل".

عادت إلى الداخل،فوجدت هاتفها يضيء برسالة كانت تنتظرها دون ميعاد.

كلمات قليلة كانت من المفترض أن تعيد إليها التفاؤل مجددًا، يخبرها أن "راغب" لن يتعرض لها مرة أخرى.إلا أن شيئا ما بداخلها ظل يخبرها بأن ابتلاءً ما قادمًا قريبًا، فهل ستصمد؟لم تنم سوى سويعات قليلة،ثم استيقظت فزعة على صوت صياح "خالد" بجوارها فزعًا، وهو ينتفض محاولًا ارتداء ملابسه، هاتفًا بمحدثه على الطرف الآخر من المكالمة:

- بلغتو المطافي والبوليس ولا سايبنها تولع.. أنا جاي حالًا.

هتفت به وهي تنهض جالسة في الفراش:

- فيه إيه يا "خالد".. هي إيه دي اللي بتولع؟

لم يلتفت إليها وهو يغادر الغرفة هاتفًا:

- المحلات بتولع يا "حبيبة".

شهقت وهي تنهض مسرعة مهرولة نحو هاتفها، لتتحدث مع "نور" وتبلغها بما قاله "خالد"، ثم انهت الاتصال وشرعت في ارتداء ملابسها وتجهيز طفلتها للمغادرة واللحاق به.

***

تحولت المحال بما كان بداخلها إلى كومة من الرماد. لم يستطع أحد إطفاء تلك النيران المتأججة في كل مكان.. حتى الجدران احترقت،وذهب كل شيء يملكه أدراج الرياح.الغريب، أن النار لم تطل المحال المجاورة له، والتي لا يفصل بينها ومحلاته سوى جدار واحد فقط.. السوق التجاري الكبير لم يتضرر به أي شيء سوى المحلين المملوكين لـ"خالد"!

مضت الأيام بعد هذا الحادث ثقيلة، وهو يهرول بين أقسام الشرطة وتحقيقات النيابة، معه ومع العاملين بالمكان. ورغم التقرير

الذي أكد أن الحريق تم بفعل فاعل، إلا أن التحقيقات لم تستطع أن تصل إلى الجاني، وقيدت القضية ضد مجهول!.

لم يكن "خالد" يشعر بما حوله. كان شاردًا لأبعد مدى، وهو يتأمل حاله وما وصل إليه. ها قد أصبح مُفلسًا، لا يمتلك سوى جدرانا محترقة وديونا لم تُسدد بعد، ولن يرحمه أحد.

دفن رأسه بين كفيه واجمًا، وقد أسقط في يده، ولم يستفق إلا وذراع زوجته تحط فوق كتفيه، لتحيطه بهالة من الحنان والاطمئنان وهي تقول برجاء:

- ماتعملش كده في نفسك يا "خالد"، كل شيء هيتدبر بإذن الله، احنا ممكن نبيع العربيات والدهب ونبدأ من جديد.

لم يمنحها ردًا.. ظل واجمًا لدقائق بعدها، مما أقلقها بشدة، ولكنها لم تجرؤ على قطع صمته، فاكتفت بوجودها بجواره تدعمه نفسيًا، وتخفف عنه، حتى دلفت "نور" إلى الغرفة واقتربت منه وهي تتبادل النظرات المتسائلة مع "حبيبة"، ثم وضعت راحتها فوق رأسه بحنو قائلة:

- قوم يا "خالد".. "حسام" جه بره وعاوزك في كلمتين.

أطرقت "حبيبة" برأسها، بينما قال "خالد" بصوت مبحوح:

- مش عاوز أشوف حد يا عمتي من فضلك.

ربتت على رأسه وهي تقول بتشجيع:

- قوم يا بني شوفه عاوزك في إيه، ده برضه في بيتك.

نهض متثاقلًا تحت إلحاحها، متوجهًاإلى غرفة المعيشة حيث ينتظره "حسام". تبعته "حبيبة" بصحبة "نور"، التي تفاجأت بنظرة

عاطفة غابت عن عيني ولدها منذ شهور طويلة وقد عادت من جديد وهو يربت على كتفي "خالد" بقوة ويقول بحسم:

- ولا يهمك، المحلات هترجع أحسن مما كانت، ماتشيلش هم طول ما أنا موجود

نظر له "خالد" بحيرة ممزوجة بالشجن، وهو يستمع لكلمات صديق عمره التي غابت عنه طويلًا، فترك لدموعه العنان بمرارة بالغة. نسي "حسام" ابن خاله الذي سرق منه محبوبته، والتي تقف خلفهما دامعة العينين إلى جوار والدته، وهو ينظر لدمعات "خالد" الحارقة، وتذكر صديق عمره الذي كان لا يتورع عن الدفاع عنه بحياته، ففاضت عاطفته تجاهه، وشعر بغصة وهو يرى ضعفه وألمه وسكونه.

لم يشعر بنفسه إلا وهو يجذبه إليه محتضنًا إياه، مواسيًا له، مربتًا على كتفيه من الخلف، وقد لمعت عيناه بدمعه.

وبتلقائية شديدة وجدت "نور" نفسها تحتضن كتفي "حبيبة"، التي ابتسمت باكية بصمت، وهي ترى هذا المشهد الصادق وتلك المشاعر الفياضة التي غلفتهما من جديد، وكأن وجودها بينهما لم يعد له أي تأثير بعد الآن.انتقلت مشاعرها بشكل عفوي إلى "نور"، التي أرسلت تنهيدة حارة وهي تراقبهما متمتمة بخفوت:

- وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم.

أمسك "حسام" بكتفيه، وأبعده قليلًاعنه ناظرًا إلى عينيه بثبات وقوة وهو يضغطهما برفق قائلًا:

- توافق ابقى شريكك ونرجع كل حاجة أحسن من الأول؟

مسح "خالد" عبراته الثقيلة متمتمًابتلعثم وحرج:

- أيوة بس....

لوح"حسام" بقبضته مهددًا أمام وجهه مداعبًا:

- لو سمعت بس دي تاني هابوظلك وشك ده.

ابتسم "خالد" بامتنان، وتبعته "حبيبة"، بينما ضحكت "نور" بسعادة حقيقية غابت عنها طويلًا، ثم قالت:

- بالمناسبة الحلوة دي أنا عازماكم على الغدا بره النهارده، وأهو فرصة نتجمع قبل ما أسافر للعمرة.

تنحنح "حسام" محاولًا تلافي النظر إلى "حبيبة"، وهو يقول معتذرًا:

- معلش يا ماما اعفيني أنا عندي شغل كتير النهارده.

ثم غادر، بعد أن اتفق مع "خالد" على موعد قريب لبداية مرحلة جديدة وسريعة في العمل بينهما، وبجدية تامة.

***

وقفا، كل من "خالد وحسام" بين العمال يشرفان على عملية إعادة ترميم الجدران وطلائها من جديد.بحث خالد في جيوبه عن علبة سجائره،وفتحها،فوجدها فارغة،فعلت وجهه دهشة ورفع حاجبيه عندما وجد بداخلها ورقة صغيرة قرأ الكلمات المنمقة الرقيقة بداخلها، بخط زوجته الصغير..

-"صحتك مش ملكك لوحدك.. بحبك وباخاف عليك"

ارتسمت على شفتيه ابتسامة عريضة جذبت نظر "حسام" إليه،فقال متسائلًا:

- بتضحك على إيه؟ طلعلك اليانصيب في الهباب اللي بتشربه ده.

حرك "خالد" رأسه نفيًا، وأعاد قراءة كلماتها مرة أخرى بصوت مسموع، ولم يلحظ تشنج عضلات وجه "حسام" والضيق الذي نطقت به خلجاته وهو يشيح بوجهه بعيدًا، بينما قذف "خالد" بالعلبة في سلة المهملات، وطوى الورقة مرة أخرى واضعًا إياها في جيب بنطاله متمتمًا:

- هاحاول أبطلها خالص عشان خاطرك.

اتخذ ركنًا بعيدًا عن الجميع وهاتفها، وظل يتحدث إليها باسمًا، وبين الحين والآخر يطلق ضحكاته، ثم أنهى مكالمته واتجه نحو "حسام" واضعًا يده على كتفه من الخلف قائلًا:

- بقولك إيه..أنا رايح ألحق صلاة الظهر، تيجي معايا؟

رفع "حسام" حاجبيه متعجبًا وهو يلتفت قائلًابسخرية:

- إيه ده هي الأوامر جاتلك ولا إيه؟

قال "خالد" بعفوية وهو يشير للسماء قائلًا:

- يا عم الأوامر جاتلنا من زمان بس إحنا اللي ماكناش هنا.

ثم لوح بيديه مبتعدًا، متجهًا نحو المسجد القريب،فعقد "حسام" ذراعيه فوق صدره مراقبًا إياه متعجبًاكيف استطاعت أن تغير من "خالد" بهذه الطريقة! هل أحبته؟ وهل أحبها؟ أم أن هناك قوة أخرى تعينها وتوفقها وتسدد رميتها في قلبه وعقله معا؟! هل تغيرت "حبيبة" إلى هذا الحد دون أن يشعر؟!

قطع رنين هاتفه تساؤلاته، وتحدث إلى والدته التي وبخته على انشغاله عنها وعدم سؤاله عن احتياجاتها وهي تستعد للسفر خلال أيام قليلة، فاعتذر بحرج وهو يقول:

- أنا آسف والله ياماما، هاكون عندك بكرة إن شاء الله وننزل نجيب اللي انتِ عاوزاه كله.

- إنت كمان ناسي إن معاد الطيارة بكرة الصبح؟

ضرب جبينه براحته بقوة، معنفًا نفسه على نسيانه أمر كهذا، محاولًا استرضائها بشتى السبل، معتذرًا بانشغاله مع "خالد" غارقًا حتى أذنيه معه، فقالت آمرة:

- تكون عندي بكرة سبعة الصبح يا افندي عشان توصلني المطار..أنا هاسامحك بس عشان خاطر "خالد" ووقفتك جانبه.

****

في صباح اليوم التالي،استيقظ "خالد" كما يفعل يوميًا قبيل الفجر بدقائق، وقد اعتاد على البرنامج اليومي الذي كتبته "حبيبة" معلقة إياه فوق خزانة ملابسه، والذي يبدأ في تلك الساعة. نهض من الفراش، ولكن لم يبحث عنها، فهو يعلم أين يجدها دومًا. ركنًا اتخذته للصلاة، حجبته عن بقية الشقة بستار شفاف، وله ضوء خافت يميزه.

استطاع تمييز جسدها الساجد خلف الستارالشفاف، وكانت مستغرقة تمامًا في سجودها، ولصدرها صوت لاهج اختنق من البكاء، وهي تهمس في أذن الأرض فيسمعها من في السماء. اختنق حلقها بغصة مريرة، وعلا نشيجها، مما جعل صوتها يعلو قليلًاوهي تبكي داعية ربها:

- يا رب طلعه من قلبي..يارب عاوزه أنساه..ما تخليش حد في قلبي غير جوزي.. طهرني يارب من الحب ده.

إلتقطت أذنه هذا الدعاء الباكي المتضرع، فعقد حاجبيه بشدة، وانقبض قلبه وتراجع إلى الخلف ببطء، لا يعلم ماذا يفعل. هل مازالت تحب "شادي" إلى هذا الحد؟ هل تخونه بقلبها؟ ألم تحبه كما قالت؟

انتهت من صلاتها، وذهبت لتوقظه عند سماعها آذان الفجر، ولكنها وجدته يغلق باب الشقة خلفه بهدوء، فعلمت أنه متوجه للصلاة في المسجد.

هاتفت "نور" لتودعها قبل سفرها، ولكنها شعرت بشيء غريب ينغز قلبها من نبرة "نور" الهادئة المطمئنة، وهي توصيها بـ"خالد" خيرًا!

عاد "خالد" بعد شروق الشمس بنصف الساعة، بوجه غير الوجه الذي ودعته بالأمس قبل أن ينام. كان يتحاشى الحديث معها، ويمنحها ردودًا مقتضبة، وقد غابت ابتسامته التي اعتادت عليها في الأيام الماضية. تعلل بذهابه لوداع "نور" مع "حسام" قبل سفرها، رافضًاتناول إفطاره معها كالمعتاد، وغادرها تاركًا إياها حائرة في تصرفاته، تتساءل عما طرأ عليه من تغيير مفاجئ.

***

اصطف "خالد" بجوار "حسام" يتلقيان العزاء من آخر رجل غادر بهو الفيلا،بعد أن ربت على كتف "حسام" مواسيًا إياه في أمه الغالية،"نور". أغلق "خالد" الباب والتفت إلى صديقه وأخيه، الذي ارتسم على ملامح وجهه البؤس، ووقف بجواره تمامًا قائلًا له:

- ادخل ارتاح شوية يا "حسام" انت واقف على رجلك من الصبح.

نظر إليه "حسام" بعينين غائمتين، ثم خطا نحو أقرب مقعد له وهوى عليه بثقله كله دفعة واحدة جالسًا، ثم دفن رأسه بين كفيه مغمضًاعينيه المحتقنتين بالدموع الحارقة، لا يستوعب بعد ما حدث فجأة وبدون أية مقدمات. ذهبت "نور" بلا عودة!

لقد ظنها نائمة، عندما طرق باب غرفتها عدة مرات دون إجابة، فدلف إلى غرفتها بحرج وهو ينادي عليها برفق. كانت مستلقية على فراشها بسكون وطمأنينة، مرتدية لملابس الإحرام البيضاء، تعلو ملامحها ابتسامة وضاءة مطمئنة، فلمس كتفها برفق موقظًا إياها، فلم تستجب، هطلت دموعه بغزارة قبل حتى أن يتأكد من مفارقتها للحياة.شعور قوي بداخله أنبأه بأنها لن تستيقظ ثانية..أمسك كفيها، فشعر ببرودة الموت تُشيع له خبر رحيلها عن الحياة. ها هي ترحل في سلام وهدوء، يتناسب مع رقتها وإيمانها، الذي طالما حقق لها السلام الداخلي، وانتشر بين كل المحيطين بها بلا حدود.

لم يكن إيمانها ظاهراً في ملابسها ومظهرها الخارجي فقط، بل كان نابعًا من أعماق قلب جعلها دائمًا ترى سعادتها في مساعدة كل من يحتاج إليها، ولذا أنشأت تلك الجمعية الخيرية، لتستطيع من خلالها ممارسة هذه السعادة في خدمة الناس، في محاولة منها لتدُلهم إلى طريق الإيمان، الذي منحها السعادة الحقيقية، ليفهموا ما فَهِمت ويعلموا ما عَلِمت، فصارت قدوة يحتذي بها كل من عرفها، وكل من تعامل معها صَعُبَ عليه فراقها.

هاهو قد أصبح وحيدًا تمامًا.. ذهبت آخر من له في هذه الدنيا البائسة، وأغلى من فيها؛ لم يتبق له سوى "خالد"!

ما هذا؟، مستحيل! ألن يصطنع الألم ثانية عندما تضربه على كتفيه موبخة إياه على أمر ما؟ ألن يهرب من نظراتها التي تتغلغل بداخله فتفضح ما أراد أن يخفيه في قلبه وتعري روحه؟ ألن تعاتبه مرة أخرى على تقصيره في الصلاة؟ ألن تعود لترجوه ليعيد التفكير مجددًا في عودة زوجته؟..

لم يصدق نفسه عندما هوى على ركبتيه بجانب فراشها ممسكًا بيدها الباردة ينطق باسمها بخفوت دون مجيب.ناداها بهمس مرققًا اسمها"نونّ" .. أنا عارف إنك سامعاني.. كان نفسي تستنيني..كان نفسي أسلم عليكي أوي". أغرقت دموعه كفها الصغير وهو يقبله قبلات متتالية بلا توقف، ويرجوها أن تسامحه على تقصيره معها نادمًا على كل مرة أغضبها فيها. لو كان يتخيل هذا اليوم، لما فعل ما يغضبها أبدًا.

لو كان مدركًالحقيقة الموت، وكيف يأتي بدون أية مقدمات، لتوقف فورًا عن تهوره ورعونته.كان يشعر بندم شديد، فأمسك كفها ووضعه على جبينه، وهو يعدها أن يفعل كل ما كانت ترجوه منه دومًا.."فقط عودي"!.

سيحاول أن ينسى حبيبته، سيفكر بعودة "هدى"مرة أخرى، سيجعل علاقته بـ"خالد" أقوى مما كانت، سيعود نادمًا خاضعًا إلى ربه قاطعًا عهودًا بعدم العودة لمعصيته مرة أخرى.."فقط عودي".

جلس"خالد" على المقعد الذي أمام"حسام"، ينظر إليه بشرود، لا يعلم كيف يواسيه وهو الآخر مكلوم ومجروح في آن واحد، فهي كانت أمه قبل أن تكون عمته، كانت بالنسبة إليه الحضن الدافئ الذي يلجأ إليه حينما يشعر بوحشة روحه، حينما يهفو إلى عبير حبيبته التي سبقتها بسنوات. كانت أمه بعد وداع أمه،التي غرقت مع

أبيه وأخيه منذ سنوات.. كانت عائلته، وخِزانة مشاعرة البديلة، وصديقته التي تقتحم أسراره دومًا رُغما عنه. موتها المفاجئ أصابه في مقتل، ونزيفه منها لن يتوقف أبدًا.

رأى "هدى" وهي تقبل "حبيبة" مودعة إياها، ثم تقترب من "حسام" جالسة بجواره تعزيه وتواسيه بكلمات قليلة حانية.لم يكن قد نفض عنه تراب قبر أمه حتى هذه اللحظة، وكأنه يحاول أن يحتفظ ببعض من بقاياها على جسده وملابسه، حتى ولو كان مجرد ثرى معبأ برائحة الموت.

قطعت "حبيبة" تأملات "خالد" وهي تلمس ذراعه قائلة بخفوت:

- لو تحب تبات مع "حسام" النهارده، وأنا اروح مع "هدى" وهي ماشية.

أجابها دون أن يلتفت إليها وهو يومئ برأسه موافقًا:

- زي ما تحبي بس لو سمحتي روحي عزيه قبل ما تمشي.

أومأت موافقة، بينما أقبلت "هدى" تتحدث إلى "خالد" معزيةً إياه.اتجهت "حبيبة" نحو "حسام" وعيناها تشع بالإشفاق عليه وعلى حاله،ووقفت أمامه قليلًا ثم قالت هامسة:

- البقاء لله يا "حسام"..أنا عارفة إنك أقوى من كده بكتير.

رفع رأسه إليها في صمت.. لم يكن في حاجة للحديث، بل لم يكن يقدر عليه.التفت إلى "حنين" ابنتها، وأخذها من بين ذراعيها واحتضنها بشدة، وهو يدفن وجهه لدى عنقها الصغير. رؤيتها له على تلك الحالة حطم قلبها وأسال دموعها فورًا، فهي تعلم جيدًا كم هو محتاج في هذه اللحظة إلى العناق الشديد.. إلى حضن دافئ

يرتمي فيه ليبثه همومه وأحزانه. سمعت صوته المختنق وهي مطرقة الرأس يقول لها برجاء:

- ممكن تسيبي "حنين" معايا النهارده؟

كانا "خالد" و"هدى" قد اقتربا منهما في هذه اللحظة، واستمعا إلى طلبه الباكي، بينما تبادلت "حبيبة" مع "خالد" النظرات الدامعة، ثم قالت مسرعة:

- أنا ماعنديش أي مانع بس إنت محتاج ترتاح وهي متعبة في نومها.

وكأنه لم يسمعها نظر إلى "خالد" قائلًا:

- لو سمحت يا "خالد" إبقى طلعلي شنطتها.

تركهم وصعد بـ"حنين" إلى الطابق العلوي من المنزل. وضعت "هدى" يدها على ذراع "حبيبة" تمسح عليها قائلة:

- ماتقلقيش مش هتتعبه، وحتى لو حصل أهو "خالد" موجود يلا عشان أوصلك معايا.

قال "خالد" متسائلًا وهو ينظر إلى "حبيبة" بجفاء:

- هم أهلك مشيوا بسرعة كدة ليه؟

أطرقت بحرج بالغ قائلة:

- معلش، بابا كان عنده شغل مستعجل وخدهم معاه في سكته.

أومأ برأسه ساخرًا، فشعرت "هدى" بالحرج، فقالت وهي تستعد للمغادرة:

- هاستناكي بره في العربية.

لم يكن شعورها بالحرج فقط لما دار من حوار جاف وساخر بينهما، ولكن أيضًا لعدم حضور أي من عائلتها للعزاء، وكأنهم لم يكونوا يومًا أصهارًا وعائلة واحدة. وعندما استقلت "حبيبة" المقعد المجاور لها،انطلقت وكل منهما شاردة في عالمها الخاص صامتتين، حتى فوجئت بـ"حبيبة" تقول لها بدون مقدمات، وكأنها تلقي الكلمات من فمها قبل أن تتراجع عنها:

- "هدى"، "حسام" دلوقتي بقى لوحده ومحتاجلك جنبه إنتو لسة في العدة وسهل أوي ترجعوا لبعض.

لم تمنحها ردًا مباشرًا. ظلت تتابع الطريق أمامها، وأخيرًا قالت حائرة:

- مش عارفة يا "حبيبة".. بجد مش عارفة!

عاد الصمت المطبق بينهما من جديد، حتى توقفت السيارة أسفل منزل "حبيبة"، التي ترجلت من السيارة وهي تودعها باقتضاب.انطلقت هدى بسيارتها، بينما صعدت "حبيبة" إلى منزلها، وبمجرد أن انفردت بنفسها، كُسر الغشاء الخارجي الذي كانت تُحيط به نفسها أمام الجميع، وإنهار جبل الثلج الذي كان يلفها. لم تتحرك من خلف باب شقتها، بعد أن أغلقته خلفها.. هوت إلى الأرض جالسة بانهيار شديد، وأخذت تبكي بكاءً مريرًا،يعتريها فقدان وخواء سكن فؤادها.

عندها، لفت جسدها بذراعيها وهي تنادي باسمها وتناجي روحها. ولم لا، وقد فقدت أمها الحقيقية، التي وضعت يدها على مفتاح سعادتها وأرشدتها إلى الطريق الذي لم تسلكه من قبل، بل وعبَّدت لها قلب زوجها، ومنحتها خريطة قلبه وعقله، والطريقة التي

تمتلكهما بها. هي فعلًا أمها الحقيقية، التي شعرت بالدفء والحنان بين أحضانها، وبالتضاؤل أمام إيمانها وخبرتها وهي تعلمها سبل الحياة.. منحتها ثقتها، وحفظت سرها، ورفعتها في مكانة كبيرة؛ بل وعندما تتحدث عنها أمام الناس كانت تقول بعفوية شديدة "دي بنتي".

ها هي قد ذهبت سريعًا، وتركت مكانًا خاويًا، لا يستطيع أحد أن يملأه غيرها.. تركت الجدار ينهار، والزجاج يتهشم، والرياح تهب، والرعد يضرب كل شيء. رحلتِ سريعًا أماه، وتركتِ نفوسًا تتخبط ودموعًا تسيل وأعمال خير متعلقة بوجودك، وقدرًا محتومًا سيعيشه الجميع بدونك.. جميعًا حُرمنا وداعك.

- 18 -

في اليوم التالي، عاد "حسام" إلى شقة والدته مستقرًا في غرفتها، يشتم رائحتها العطرة ويتحسس مواضع لمساتها بداخلها. وعندما وقف أمام سجادة الصلاة الخاصة بها، سمع صوتها آتيًا من ذكرياته وهي تقول له معاتبة:

- تعرف يا "حسام" لو ما واظبتش على الصلاة، ربنا هيسألني عليك!

خرج من غرفتها لدقائق، ثم عاد مرة أخرى والماء يقطر من وجهه وساعديه من أثر الوضوء. وضع قدميه موضع قدميها تمامًا، كبر ودخل في صلاة فارقها وفارقته منذ سنوات. مرت نصف ساعة كاملة وهو في سجوده صامتًا، لا يعلم ماذا يقول وبماذا يدعو، وكأن لسانه قد عُقد ووُئِدت الكلمات في حلقه. كلما أراد التوبة تجسدت خيانته لـ"خالد" أمام عينيه. ماذا يفعل بقلبه، ربما يقتله يومًا،ولكن هل سيتركه يرديه في الجحيم؟ بكى وبكى، وأخيرًا أُفرج عنه وتحرر لسانه، واندفعت الكلمات من بين شفتيه متضرعَةً، وقد شعر بسجود قلبه وهو يناجي ربه:

- يا رب سامحني، يارب طلعها من قلبي.

أسبوعا مضى والحال كما هو لم يتغير، لم يفارقه "خالد" إلا عندما طلبت "حبيبة" أن ترى ابنتها، فأخذها إليها ثم غادر بعد حديث قصير مقتضب.

توتر ما بدأ يعم البلاد، وشخصت الأبصار أمام شاشات التلفاز في كل مكان.. في البيوت وعلى المقاهي والشركات، الجميع يشاهد ما يحدث، ما بين مؤيد ومعارض، بعضهم يقول بأنها ثورة، والبعض ينفعل بأنها خيانة وأجندات خارجية تنفذ بحرفية في مصر.اضطر "خالد" إلى العودة للمنزل، بعد أن شاع الانفلات الأمني وخاف الناس على أرواحهم وبيوتهم وأبنائهم.

تململت في فراشها وهي تحاول تجاهل رنين هاتفها المتواصل، ولكن دون فائدة.اضطرت في النهاية أن تجيب المتصل اللحوح، الذي لم يكن سوى والدتها، والتي هتفت على الفوروقد فقدت تحفظها:

- إلحقيني يا"حبيبة".. إلحقي"سلمى" أختك.

نهضت فزعة من فراشها وقد طار النوم من عينيها متسائلة:

- مالها"سلمى" يا ماما؟

أجابتها باكية:

- النهاردة الصبح لقيتها سيبالي ورقة بتقول فيها إنها نزلت تساعد الجرحى في التحرير.

زاغت نظراتها، لا تعلم ماذا تفعل.. دارت حول نفسها حائرة وهي تقول:

- ده بيقولوا في ناس بتموت هناك وناس بيتقبض عليهم وماحدش فاهم حاجة .

أجفلت عندما صرخت فريدة بانفعال:

- هو أنا باكلمك عشان تشوفيلي حل في المصيبة دي ولا عشان تتعبيلي أعصابي.. كلمي جوزك حالًاخليه يروح يجيبها.. باباكي رافض ينزل و"راغب" مسافر.

حاولت تهدئتها وهي تعدها بالتصرف في الأمر. على الفور هاتفت "خالد"، وقصت عليه ما دار بينها وبين والدتها، فاعترته دهشة بالغة، فلأول مرة يعرف أن هناك في هذه الطبقة الثرية من يشارك في تلك الأمور والاحتجاجات. كان يتصور أنها تقتصر على من يعانون الفقر والغلاء والظروف السياسية غير المرضية.

أفاق من شروده على صوت "حبيبة" القلق وهي تناديه:

-"خالد" انت معايا؟

أجابها على الفور:

- خلاص يا "حبيبة" أنا هاتصرف.

أنهى المكالمة، والتفت إلى "حسام" الذي كان يقف بجواره قلقًا، وقد سمع جانبا من المحادثة وأجاب دون أن يسأله:

- دي "سلمى" أختها نزلت المستشفى الميداني في التحرير ومامتها قلقانة وعاوزانا نرجعها.

أنهى عبارته وهو يلتقط مفاتيحه الشخصية من فوق المنضدة، ويتحرك نحو الباب الخارجي،فاستوقفه "حسام" بيده وهو يقول:

- إستنى يا "خالد" أنا جاي معاك.. ليا سكة هناك سهل توصلنا بيها.

وعندما خرج "خالد" من المبنى، وقبل أن يفتح باب سيارته، لفتت نظره لفافة متوسطة الحجم منتفخة قليلًا ومثبتة على الزجاج الأمامي للسيارة.اقترب منها بترقب وانتزعها، ثم فضها ببطء وفضول، ثم رفع حاجبيه متفاجئًا، وقد وجدها مفكرة صغيرة الحجم. في تلك اللحظة، كان "حسام" قد غادر المبنى هو الآخر متوجهًا

إليه.فتح "خالد" المفكرة.. إنها مذكرات فتاة، فلماذا ثبتها أحدهم بزجاج سيارته؟! شعر بيد "حسام" توضع فوق كتفه، وسمع صوته يخرجه من تساؤلاته:

- إيه اللي معاك دي؟

رفع رأسه إليه وهو يضعها في جيبه وينفض الحيرة من رأسه قائلًا:

- مش عارف، يلا بس نشوف هنعمل إيه وهنروح التحرير إزاي؟

انطلق بالسيارة، وانشغل "حسام" بعدة اتصالات يجريها لتسهل عليهم الوصول إلى هناك والعثور على "سلمى" دون عناء طويل. أما "خالد" فقد انشغل عقله بتلك المفكرة التي تحتل جيب سترته، ولمن تنتمي تلك الكلمات المتسائلة التي كُتبت في بدايتها بخط مضطرب.

عندما وصل إلى هناك بحثا عنها وأخيرًا، وجداها في إحدى الخيام البسيطة التي يطلق عليها المستشفى الميداني. كان حديث "سلمى" مفاجئا لهما، وهي تصر على البقاء والقيام بواجبها المهني، الذي شق على ضميرها التخلي عنه خوفًا على حياتها الشخصية. أخبرتهما أنها لن تغادر معهما أبدًا، فإن آثرا الرحيل فليرحلا، وإن أرادا البقاء ليعلما ما يحدث على أرض الواقع بعيدًا عن شاشات التلفاز التي تبث النيل الهادئ فقط، فلهما كل الحرية في ذلك.

خرجا من الخيمة وهما ينظران لبعضهما البعض، وقد تملكتهما حيرة شديدة، هل يرحلان بدونها أم يبقيان بجوارها.

عند أذان المغرب،اصطف المسلمون واتخذ المسيحيون أمكانهم في لجان مراقبة مداخل الميدان، حتى لا يحدث هجوم

عليهم والمواقع خاوية. تغلغلا بين الناس على اختلاف ألوانهم وتوجهاتهم وطوائفهم، الشاب والفتى والعجوز، واللحى والشوارب، ووقفت الفتيات بأمان، فتاة تلوح بيدها لصديقتها، تطلب منها شيئا تضعه على شعرها لتصلي، والأخرى تعدل غطاء وجهها وهي تنهض من السجود، وامرأة في ركن بعيد تضرب حجرًا كبيرا بالأرض، فتسحقه ليستحيل إلى حجارة صغيرة يستخدمها الشباب في الدفاع عن أنفسهم.. وعندما حل الظلام،أضاءت الأعمدة الكبيرة الميدان، وعلت الهتافات بحماس،وأخذتهما "سلمى" في جولة صغيرة.

تعجب "خالد" من هؤلاء الذين يفترشون الأرض إنهاكًا، وينامون فوقها ملتحفين بغطاء خفيف لا قيمة له أمام موجة البرد التي تجعله يدس يديه في جيبيى سرواله، بل وينهض أحدهم إلى آخر يرتعش بردًا، فيدثره بغطائه الشخصي ليدفئه، ثم ينزوي أسفل إحدى الشجيرات متكوما على نفسه.. وفتاة تقترب من مجموعة نساء تقدم لهن بعض الجبن والخبز، الذي يكفيهن بالكاد، وعندما تبتعد تخرج من حقيبتها تمرتين تأكلهما لتسد بهما جوعها.

لحقت بهم صديقة "سلمى" التي لا تفارقها، وهمست لها أن تعود للخيمة، فهناك من ينتظرها.التفتت "سلمى" لهما قائلة:

- معلش يا جماعة مضطرة أرجع،وصاحبتي هتفضل معاكم وهتوديكم الخيمة بتاعتنا.

أومأ لها "حسام" موافقا، بينما اقتربت منهما صديقتها،التي كانت ترتدي قميصًا مطبوعًا عليه صورة "جيفارا"، وأخذتهما إلى طريق خيمة الرجال الخاصة بمجموعتهم. أشارت لهما أن يستديرا للاتجاه الآخر، فهنا تقبع خيام النساء، وغير مقبول اقتراب الرجال منها.

وأخيرًا، حسما أمرهما بعد ليلة طويلة،وقررا البقاء.رأيا في أيام قليلة ما لم يروه في سنوات عمرهما، تعلما ثقافة الحرية وإن دوت الرصاصات فوق الرؤوس، تعلما أن الذليل سيبقى ذليلًا وإن ركب أفخم السيارات وتمرغ في النعيم وامتلك كل شيء إلا كرامته!.

انقطعت الاتصالات، ولم يستطع أحد التواصل عبر شبكات المحمول والانترنت، ولم تكن هناك وسيلة للاتصال سوى الهواتف الأرضية فقط.

عمت فوضى متعمدة، فخشيت "حبيبة" على نفسها وعلى طفلتها، فقررت الذهاب إلى بيت أبيها، في انتظار مجهول لا تعلمه، ولكن تشعر به قادما نحوها بأقصى سرعة.

***

في صباح يوم من أيامهم هناك، انشغل "حسام" مع "سلمى" والأطباء داخل المستشفى الميداني، بحكم خبرته في المساعدة في علاج الإصابات والرضوض البسيطة؛ بينما انزوى "خالد" خلف خيمة الجرحى، بجوار أحد الأعمدة الحجرية، منغمسًا في قراءة تلك الذكريات المدونة، والتي استطاع التعرف على صاحبتها بسهولة عندما عثر على اسمها بين صفحاتها، إنها زوجته، بدأت تساؤلات أخرى تغمر عقله وتطرقه بمطرقة الدهشة والفضول والصدمة،بدأت دقات قلبه تتسارع أكثر وأكثر وعينيه تلتهم السطور والصفحات، من له مصلحة في أن تصل إيه تلك المعلومات التى دُفنت وإنهال عليها تراب السنوات الماضية حتى أصبح الزيف حقيقة، حقيقة طفت فوق مياة الحاضر والمستقبل بعد أن غمرت صاحبتها وأفقدتها ماضيها. لقد كانت هناك في المشفى بالبحر الأحمر،عندما عاد إليها وعيها الذي فقدته عند غرق السفينة.. نعم عاد إليها

الوعي، ولكنها جهلت من حولها.. حدقت في الوجوه فأنكرتها، وتساءلت" انتم مين وأنا فين".

أغمض عينيه بقوة،وعقله يصرخ باسم واحد،"حنين"!

يا إلهي! التشابه الكبيرالذي يجمع بينهما،صوتها.. أتكون هي؟!، ولكن كيف لم يدله قلبه عليها؟ وكيف لم تتعرف "نور" إليها؟! سيطرت الأفكار والذكريات على روحه وفؤاده، ربما لشوقه الكبير لعودة "حنين" إلى الحياة، فصدقها وآمن بها على الفور. نبتة أمل زُرعت بداخله، جعلت الحقيقة الأخرى التي بدأ يقرأها في مذكراتها أخف وطئا،"حسام"!.

لا يعلم لماذا تبلور الأمر بداخله بهذا الشكل. دفعته الحقيقة الثانية لتصديق الأولى. نعم لقد كانت علاقة "حنين" بـ"حسام" قوية للغاية، فمن الطبيعي أن يحدث بينهما انجذاب لا يستطيعان تأويله. تأكد لديه هذا، عندما قرأ بين سطور كلماتها..

(هناك رباط خفي يربطني به، لا أعلم ماهو ولا كيف لف خيوطه حولنا، منذ أن توهمت صورته أسفل المياه وأنا أغرق فيها)

تغرق!، عقلها جسَّم أمامها صورته وهي تغرق!. استند برأسه إلى الخلف، مغمض العينين، وقد انتهى من قراءة آخر كلماتها المعذبة، وقد عادت الذكريات تهاجمه من جديد.

سمع هتاف "حسام" آتيًا من بعيد، ففتح عينيه التي لمعت روحه القلقة من خلف زجاجها، وهو يراقب اقتراب "حسام". وما إن دنا منه حتى هتف بقلق وقد تمكن الاضطراب من صوته:

- إنت فين يا "خالد" دورت عليك في كل حته خضتني يا أخي؟

لاحظ "حسام" الوجوم الذي سيطر على ملامح صديقه، وهو ينظر إليه وإلى عينيه الزائغتين، اللتين تصرخان بأن قلب هذا الرجل سابح في عالم آخر مواز لعالمنا، عالم يحبه ويتمناه مع من يعشق. وضع يده على كتفيه متسائلًا:

- مالك يا "خالد"؟

اعتدل "خالد" في وقفته، وقد دس مفكرة "حبيبة" في جيبه، ثم عقد ساعديه فوق صدره ونظر إلى عيني "حسام" نظرة مخترقة، شعر بها "حسام" تتغلغل إلى روحه لتكشف أسراره، بينما قال "خالد" بجمود:

- تعمل إيه لو عرفت إن مراتك متعلقة براجل تاني؟

لم يكن الأمر يحتاج إلى كثير من الذكاء لكي يفهم "حسام" ما يرمي إليه. وفي نبرة صدق، عقد ذراعه فوق صدره وهو ينظر إليه بثبات قائلًا:

- أقتله.

ابتسم "خالد" بغموض وهو يقول:

- بس أنا بقى شايف إنه كفاية عليه الصدمة اللي هياخدها.

ثم ضحك وهو يستدير ليغادر المكان هاتفًا:

- تخيل لما واحد يكتشف انه كان بيحب أخته!

ثم قهقه عاليًاوهو يبتعد، وتركه خلفه متعجبًا مندهشًا، وقد شك أنه فهم مقصد "خالد" خطأ منذ البداية.. ربما كان يقصد شخصًا آخر.. ربما!.

***

هرولت تعدو قاطعة رواقًا طويلا، وصدرها يتلجلج بالدعاء، تتلفت يمنة ويسرة باحثة عن أي أثر لهما. استوقفت إحدى الممرضات بلهفة وهي تسألها عنهما، فأشارت لها إلى المصعد وهي تقول:

- في العمليات فوق.

عندما صعدت إلى الطابق الثاني، وبإرشادات ممرضة أخرى، قطعت رواقًا آخر. وأخيرًا وجدته.. أصابها الهلع من هيئة "حسام" التي نبأتها بما حدث، فقميصه ملطخ بالدماء، وذراعه الأيسر معلق إلى كتفه من الجهة الأخرى، بداخل رباط طبي عريض. قميصه المفتوح يظهر ضمادة أخرى أسفله، ولاحظت الألم البادي على وجهه وهو جالس على أحد المقاعد القريبة من غرفة العمليات، ورجل آخر يقف قبالته ويتحدث بحنان يمتزج بالعتاب قائلًا:

- قلتلك لازم ترتاح يا "حسام" إصابتك مش بسيطة ووجودك هنا مش هيعمله حاجة.

في هذه اللحظة رآها، فنهض متحاملًا على صديقه "علي"، واقتربت منه وهي تنقل بصرها بينه وبين غرفة العمليات وتسأله:

- فين "خالد"؟

قال مسرعًا وهو يحاول طمأنتها:

- ما تخافيش هيبقى كويس إن شاء الله.

حركت رأسها نفيًا، وانسكبت العبرات من عينيها بلا توقف.هوى إلى المقعد مرة أخرى، وأطرق بشرود وهو يتذكر ما حدث.. لا يزال يستمع إلى دوي الرصاصات فوق رؤوسهم، ويراه والدماء تتفجر من

صدره.. لا يزال يشعر بثقل جسده فوق كتفه وهو يحمله ويهرول به بعيدًا..اخترقت الرصاصات كتفه الآخر وذراعه، ولكنه لم يعبأ وقتها بهذا الألم الذي أصابه، ساعدته بنيته القوية على الصمود حتى يعبر بـ"خالد" إلى بر الأمان، قبل أن يرى "سلمى" تسقط على ظهرها متألمة، ويحملها أصدقاؤها إلى عربة الإسعاف. لن يتركه ولن يتخلى عنه لينجو بحياته، بل كان يتمنى لو كان هو من أصابته تلك الرصاصة، فلن يترك خلفه من يبكيه.

عندما خرج الطبيب من غرفة العمليات، أنبأهم أن حالته مازالت خطرة، ويجب وضعه تحت الملاحظة الشديدة حتى تستقر.

ثم ذهبا لزيارة "سلمى"، وهناك علما من الأطباء بضرورة سفرها للخارج. ولما استمع "حسام"إلى مناوشات أبيها مع الأطباء وأمها، ورفضه لسفرها متهمًا إياهم بالتهويل والمبالغة، واتهام "فريدة" له بالبخل على مرأى ومسمع من الجميع،تدخل متكفلا بعلاجها على نفقته الخاصة، فمستقبل الفتاة لا يقبل مجازفة ربما تفضي بها إلى كرسي متحرك!.

ثلاثة أيام أخرى مرت ثقيلة على الجميع.. لم يتركه "حسام" لحظة واحدة، رغم ما به من إصابات وألم شديد، إلا أن ألم رؤيته هكذا بين الأسلاك على فراشه بلا حراك كانت أشد أيلامًا وعذابًا له.

أما "حبيبة"، فقد كانت تمكث بالخارج أحيانًا، وأحيانًا أخرى تطلب الإنفراد بزوجها،لتجلس على المقعد المجاور لفراشه ممسكة بيده، تسكب ندمها في كفه وترويه بدمعها المتدفق دومًا.

وضعت الممرضة يدها على كتفها طالبة منها المغادرة من الغرفة قبل عودة الطبيب،فانصرفت مستجيبة لها، وكل ما تفكر به في تلك اللحظة أن ترى زوجها واقفًا على قدميه مجددًا، وإن لم يحبها، وإن لم يتمناها، لم يعد لهذه الرفاهيات أهمية تذكر أمام شبح الموت. وقبل أن تصل إلى المقعد المواجه لزجاج الغرفة،انتبهت متوقفة عن السير، عندما سمعت"حسام" وهو ينادي من خلفها:

- استني يا"أم حنين".

استدارت إليه متعجبة؛ فتلك هي المرة الأولى التي يكنيها فيها، وكأنه قد حرم على نفسه مجرد النطق باسمها. أطرقت أرضًا عندما وقفت أمامه، فقال متسائلًا:

-"سلمى" أخبارها إيه؟

حركت رأسها وقد بدا الامتنان على وجهها وهيتقول:

- الحمد لله.. وبتشكرك على اللي عملته معاها وعمرها ما هتنساه أبدًا.

أطرق بحرج بالغ.. أما هي فقد كانت تفكر بالانصراف حتى يرحل هو من المكان، فلم تعد تطيق تواجدهما في مكان واحد، وعلى نفس الأرض.ربما أيضًا أرادت مغادرة كوكبه بالكامل فهو الآن خطيئتها الكبرى، ذنبها الذي تغرق الأرض يوميًا بدمعها وهي ساجدة متضرعة إلى الله بغفرانه، متمنية أن ترفع رأسها من السجود فتجد نفسها قد نسيت اسمه ومُحيت كل ذكرى له من قلبها.ودون كلمة،التفتت لتغادر، فقال يستوقفها:

- استني من فضلك يا "أم حنين"..أنا عاوزك في كلمتين ضروري.

وقفت كما هي تنظر إلى الرواق الخالي أمامها:

- خير؟

اقترب منها خطوة، ليصبح حديثهما أكثر خصوصية، وبدا أكثر هدوءًا وثباتًا، وقال وهو يشعر بكل حرف يخرج من بين شفتيه متذوقًا لمرارته:

- سامحيني، وأوعدك من اللحظة دي إنت بالنسبة لي مرات أخويا وبس.

انسابت الكلمات من بين شفتيها رغمًاعنها وهي تقول:

- مش أنا اللي المفروض أسامحك.

أومأ برأسه بتسامح قائلًا:

- عارف..أنا بس حبيت أرفع الحرج اللي ممكن تحسي بيه لو احتجتيني في وقت من الأوقات.

قبضت على حزام حقيبتها المعلق بكتفها قائلة بلمحة من التحدي قبل أن تنصرف مباشرة:

- ربنا مايحوجنيش لحد غيره.

ابتلع كلماتها القاسية راضيًا، مستمعًا إلى خطواتها الصارمة نحو المصعد. نظر إلى الغرفة التي يقبع بها "خالد" عبر الزجاج، وأخذ يتأمل ملامحه الشاحبة، ومساعدة الطبيب تعتني به، متمتمًا بالدعاء له بالشفاء.

وفجأة تبدل حاله معتدلًا بانتباه، عندما التفتت إليه الممرضة بابتسامة كبيرة، وهي تتوجه لخارج الغرفة مغلقة الباب خلفها، متوجهة نحوه مباشرة وهي تقول بسعادة بالغة:

- المريض حرك إيده وبيحاول يفتح عينيه، ودي علامة تحسن كويسة أوي، هاروح أبلغ الدكتور.

أخرج هاتفه على الفور،هاتفها مخبرًا إياها بما حدث، مما جعلها تعود أدراجها وهي تركض، وقلبها يخفق بقوة الأمل يتجدد بداخلها. وعندما وصلت إلى الحجرة،وقفت بجواره خلف زجاجها تحدق بالطبيب الذي انحنى بجسده وهو يفحص زوجها باهتمام شديد، وصوت أنفاسها المتلاحقة يملأ أذنيه.اعتدل الطبيب واقفًا، مستديرًا إليهما بابتسامة متفائلة.

مر بهما الوقت وهما في وقفتهما تلك خلف الزجاج، يراقبان جفون عينيه لعلها تنفرج قليلًا، وقد أخبرهما الطبيب أن وعيه في طريقه إلى العودة. وبرغم تجاورهما، إلا أن كلًا منهما كان في جزيرة منعزلة عن الآخر،هذا التقارب البعيد الذي انسحبت منه الحياة رويدًا رويدًا، عائدة إلى جسد"خالد" الذي بدأ يصدر أنّات ضعيفة، ويفتح عينيه بوهن محاولًا تحريك رأسه، بألم بالغ يظهر جليًا على وجهه الشاحب. تسللت بهدوء متجنبة نظرات الممرضة المعاتبة وهي تجلس بجوار فراشه، تتلمس أصابعه بأناملها منادية باسمه بهمس.

كان من الممكن أن يشيح بوجهه من خلف الزجاج بالخارج، حتى لا يرى ما يؤلم روحه وقلبه، إلا أنه أراد أن يرى، أراد أن يتألم، أراد وأد حبها بداخله.لم يتحرك قيد أنملة، حتى ارتعش فؤاده عندما شاهد ابتسامه باهتة ارتسمت بضعف فوق شفتي"خالد"،فخرج عن جموده ودلف خلفها إلى الغرفة.

نهضت الممرضة تشير له بالخروج ناهرة إياه أن يفعل، فاستجاب لها وهو يعود خطوات إلى الخلف دون أن تترك عيناه

وجه "خالد"، ولكن أشار الأخير نحوه،مما جعله يتفادى جسد الممرضة ويصل إلى فراشه الأبيض،وجثا أمامه على ركبتيه ممسكًا بيده،يطلب منه الغفران.

أدار "خالد" رأسه بضعف تجاه "حبيبة"، التي تعلق بصرها به بشيء من الأمل،وأشار لها بوهن ويبلل شفتيه الجافتين أن تكفكف دمعها، فاستكانت ملامحها وهي تبتسم مجففة دموعها كطفلة تطيع أمر والدها العائد من سفر بعيد.أشار بيده يعني الصغيرة "حنين"، فأومأت برأسها طابعة قبلة أخرى على جبينه. أخرجتهما الممرضة معا، وأتى الطبيب، وراقباه من الخارج، يسحب أنبوب التنفس من حلقه، ليسعل كثيرا، ثم يهدأ، ويبدأ في تحريك شفتيه بالكلام مع طبيبه. ذهبت "حبيبة" لتحضر "حنين" كما طلب، ودخل "حسام" إليه، يحمد الله على سلامته.التفت "خالد" إلى "حسام"، مبتسمًا بلطف قائلًا بخفوت:

- أنا هاسامحك بس على شرط، تخلي بالك من بنتي.

خفق قلبه بقوة بين أضلعه، وهو يرفع رأسه إليه بعينين زائغتين..فتابع "خالد" بضعف أكبر، ولكن بابتسامة صافية:

- هتخلي بالك منها غصب عنك، لما تعرف إنها "حنين".

تمكن منه الفضول، وقد تحولت نظراته إلى علامة استفهام كبيرة، فقبض "خالد" على أصابع "حسام" وهو ينظر أمامه مباشرة، ولا يزال محتفظًابابتسامته الصافية الضعيفة، وقد تفصد جبينه بعرق غزير متمتمًا:

- حنين.

***

وقفت أمام خزانة ملابسه، وهي تلتقط قطعًا من ثيابه بخفة وسعادة ،كأنها أميرة الزهور تتجول في بستانها تقطف بعض الورود اليانعة لتهبها لأميرينتظرها فوق جواده، لتقدم له حياتها، لعله يسامح انحراف قلبها رغمًاعنها. حملت حقيبته الصغيرة، ومرت ببيت والدها لتأخذ ابنته إليه، وعادت إلى المشفى تتقافز خطواتها لتصل سريعًا إليه، فما زال بعض القلق يساورها.

عندما مرت بالحاجز الزجاجي، خطفت إلى داخل الحجرة نظرة سريعة، جعلت أصابعها تتخلى عن حقيبة يدها لتسقط أرضًا بجوارقدميها، اللتين تجمدتا بلا حراك، وكأنهما صارتا والأرض قطعة واحدة.هذه المرة لم يكن شرخًا فقط.. لقد انكسرت الإيماجو،وطاش نصفها متبعثرًا، تجرح شذراته كل من يقترب منه!

- 19 -

أربعة أشهر وأيام قليلة مرت عليها في بيت والدها، خارج حدود الزمن، تسكن غرفتها منكمشة فوق فراشها محتضنة طفلتها، تخشى فقدانها هي الأخرى. آخر ما تبقى لها، آخر ما ينتمي إليها وتنتمي إليه. منذ أربعة أشهر وهي تبكي تاركة العنان لدمعها، كلما تركتها "حنين" مع"أمل" أو لمرافقة"حسام" ليومٍ أو اثنين في منزله.

تجنبت النظر في مرآتها، فهي تعلم ماذا سترى..امرأة هشة منكسرة في أضعف حالاتها إلى أبعد مدى، لن تستطيع التعرف إلى روحها داخل سجن جسدها الضعيف.

عادت قابلة للكسر، بل كسرت بالفعل.. هل تبكيه أم تبكي ثقتها التي علقت به؟لا يهم.. لم يعد شيء يهم على الاطلاق.

انتفضت فجأة مغمضةً عينيها بألم، وهي تخبئهما بظهري كفيها، حينما فُتح باب غرفتها، فارتطمت أشعة المصباح القوية الآتية من الخارج بالظلمة حولها، مخترقة باب الحزن الذي يفصلها عن بقية المنزل بما فيه من أحياء. وهل ظل هناك أحياء في نظرها؟

وعندما سمعت صوت والدها الذي يقف على عتبة بابها قائلًا بنزق وهو يضغط زر المصباح الداخلي ليضيء الغرفة:

- إيه ده.. لسة ماجهزتيش نفسك لحد دلوقتي؟

نهضت وهي تحاول تفادي النظر إلى الضوء مباشرة متسائلة:

- أجهز نفسي لايه مش فاهمة؟

زفر"سليم" بعصبية، وهو يكرر ما أنبأها به هذا الصباح. أومأت "حبيبة" برأسها متذكرة، وقالت بذهن مشوش:

- أيوة افتكرت..

مط شفتيه بضيق ثم قال بحزم:

- قدامك ساعة تجهزي فيها.

أنهى "سليم" كلماته، وهو يطلق من عينيه نظرات تحد وتحذيرمشتعلة،اخترقت حزنها، فاستحال إلى خوف حقيقي وترقب، فهي تعرفه جيدًا، لا ينفق ببذخ هكذا إلا ومصلحة ما في الطريق، فإن تجاسرت ووقفت عائقا في طريقه، نالتها ناره بلا رحمة. هل هي سجينة منزله أم سجينة ضعفها الذي عاد أشد مما كان؟!.

غادر وتركها تدور كالرحى حول مكتبها، تفرك كفيها المتعرق باضطراب.. هل تستسلم لتعود سلعة قابلة للتصفح مجددًا،أم ترفض وتتحمل ما سيحدث لها ولابنتها معها. ابنتها التي ظلمتها بضعفها عندما وقعت بذهول على عقد بيع شقتها، ووالدها يقف بجوارها يشير إليها بإصبعه إلى مكان التوقيع وكأنه يشيرإلى قبرها.

لقد ابتاعها بلا مقابل، ولم ينتظر كثيرًا، فقد استغل ثمنها في شركته دون أن يعطيها منه مليمًا واحدًا، ولم يتبق لها سوى محال "خالد" الفارغة، التي توقف العمل بها قبل أن ينتهي طلاؤها. ولكن كيف تستفيد من بيعها هي الأخرى دون أن يتدخل والدها، فيأخذ ما تبقى لها ولابنتها، التي أصبحت الآن يتيمة مثل والدتها تمامًا.

لماذا كل هذا الحصار؟ منذ وفاة" خالد" تشعر أن أنفاسها تكاد تحصى من كل شخص حولها، سواء كان والدها أو "نشوى" أو حتى خادمتهم "أمل".

لولا مكالمات "سلمى"،التي لم تعد بعد هي ووالدتها لماتت كمدًا، واختنقت حزنًا ووحدة.

لحظات اضطراب مرت بها، تكاد تسمع فيها طرقات قلبها التي وصلت بها إلى حد الألم، وكأنه سيهرب من بين أضلعها وهي تضع الهاتف على أذنها، بعد أن طلبت رقمًا تحفظه جيدًا.تستمع إلى الرنين المتواصل الذي كاد أن ينقطع معلنًا فشله في جذب انتباه الطرف الآخر، لولا أن استجاب له في اللحظة الأخيرة،فسارت موجة من التوتر عبر الأثير لثوان معدودة، حسمها هو قائلًا:

- خير يا "أم حنين" في حاجة؟

اضطربت كلماتها وهي تقول:

- عاوزة منك خدمة.

أنصت لها وهي تقص عليه أمر بيع شقتها، وما حدث من والدها، ورغبتها في بيع محال زوجها لتستطع الهرب بابنتها من المزادات الأسبوعية التي ستبدأ من اليوم للمتاجرة بها ولن تنتهي،إلا بعد حصول أبيها على عريس آخر مناسب يشاركه صفقاته.

ما إن انتهت من حديثها حتى قال غاضبًا:

- وانتِ إيه اللي يجبرك على كده؟

قالت بضعف:

- مش عاوزة مشاكل يا "حسام" .

انتفضت حينما هتف بانفعال:

- هاتفضلي جبانة لحد إمتى؟ وأنا اللي افتكرتك اتغيرتي؟ أتاريكي اتغيرتي عشان "خالد" مش عشانك انتِ، ولما راح أديكي راجعة ألعن من الأول.

اختنق صوتها من الدمع، وشعرت بغصة تؤلم حلقها وتمنع عنها الهواء. بالكاد تتنفس، لا تريد أن يسمع نشيجها عبر الهاتف.. عندها سمعته يقول بازدراء:

- عمومًا ده مايخصنيش. أنا هساعدك في موضوع المحلات عشان خاطروصية "خالد" ، يالا إتزوقي وإخرجي معاه يمكن حد تعجبه البضاعة ويشيل.

لم ينتظر منها ردًا، فقطع الاتصال في الحال بغضب. لو كانت أمامه في تلك اللحظة لطالتها نيرانه.

***

كانت تستقل السيارة بجوار والدها باستسلام شديد، يدوي صوت "حسام" بداخلها، يذبح كرامتها بلا رحمة (انتِ إتغيرتي عشان "خالد" مش عشانك انتِ، إتزوقي وإخرجي معاه يمكن حد تعجبه البضاعة ويشيل). نفضت كلماته عندما شعرت بتوقف السيارة أمام الفندق، في اللحظة التي التفت إليها والدها محذرًا:

- مش عاوز قلة ذوق مع الناس..فاهمة؟

أومأت برأسها موافقة بضجر، فتابع وهو يترجل من السيارة:

- أكيد"راغب ونشوى" وصلوا، عربيتهم أهي.

التفتت بلا حماس تجاه إشارة والدها، فارتطمت عيناها بسيارة أخرى تعرفها.اعتقدت أنها تتوهم، وتابعت السير بجوار والدها، حتى دلف إلى داخل الفندق الكبير، فمرا بالرواق العريض الذي يضم قاعة الاستقبال، ومنه إلى المطعم في الداخل. وضع يده بهدوء خلف ظهرها وهويميل قليلًا نحوها ويشير بعينيه إلى الطاولة، التي بدأت المسافة تتقلص بينهما وبينها وهو يقول:

- الباشمهندس "كرم سرور"..أكيد تسمعي عنه واللي جنبه ده ابنه حاتم.

كانا قد اقتربا من الطاولة بالفعل، فنهض "راغب" على الفورمدعيا التهذيب، وتبعه بلياقة "حاتم "ووالده، بينما أطلت ابتسامة ساخرة من عيني "نشوى".جذب "حاتم" سترته يجمع أطرافها مغلقًا أزرارها، وهو يبتسم ابتسامة واسعة ويتفحص "حبيبة" من رأسها حتى أخمص قدميها، وشرع في مد يده لمصافحتها مقدمًا نفسه إليها، ولكن يده توقفت في الهواء دهشة، عندما وقف فجأة بجوارها جسد ضخم يقول بابتسامة جذابة وهو ينظر للجميع:

- مساء الخير يا جماعة.

احتقن وجه "نشوى" وزوجها، الذي هربت الدماء منه، ووضع يده على أنفه بحركة تلقائية، بينما التقط "حسام" يد حاتم مصافحًا إياه بدلًا منها، وقدم نفسه بثقة كبيرة قائلًا:

-"حسام الصياد" رجل أعمال وخطيب "حبيبة".

عقد "سليم" حاجبيه بشدة واستنكار. ماذا يهدف "حسام" من وراء ذلك؟ وماذا سيستفيد هو من وراء زواجه بابنته؟، لم ينس بعد

أن"حسام" رفض الدخول معه في صفقاته أكثر من مرة هو ووالدته، فماذا سيجني منه الآن؟..

تابع "حسام" ترحيبه بالجميع، بينما ابتسم لـ"راغب" ابتسامة صفراء وهو يجذب أحد المقاعد أمام"حبيبة"، التي تمكنت البلاهة من وجهها وهي تنظر إليه بذهول.. ما هذا التناقض؟ أهو مجنون؟!

لقد تغير شكله عن آخر مرة رأته فيها،أصابه النحول، شعره أصبح قصيرا للغاية، ونبتت لحيته قليلًا، وكأنه لم يعد يهتم. من الواضح أنه قضى الشهور السابقة مكتئبًا.

لم يجلس "سليم" كما فعل الباقون، بل افتعل مكالمة هاتفية هامة، وربت على كتف "حسام" قبل أن يبتعد عن الطاولة ليتبعه. أومأ "حسام" برأسه له، قبل أن ينهض معتذرًا منهم، ولحق به وهو يعرف بالضبط ماذا سيفعل وكيف سيستميله إلى جانبه. بمجرد أن أقبل عليه ووقف بجواره قال"سليم" حانقًا:

- ممكن أفهم بقى إيه اللي انت قلته ده يا كابتن؟

ابتسم"حسام" بهدوء قائلا:

- خلينا ندخل في المفيد يا"سليم" باشا..الصفقة الأخيرة اللي ناوي تدخلها كبيرة على شركتك وانت محتاج شريك يحط فيها فلوس أكثر منك لكن في نفس الوقت تبقى حسابات الصفقة في ايديك انت لوحدك. وده مستحيل حد هيقبله حتى لو قبل يشاركك. هيقعد ينطلك كل شوية في الحسابات وانت مش عاوز كده.

ثم أشار إلى صدره واضعًاراحته فوقه متابعًا:

- أنا بقى هاوفر عليك الوقت اللي هتضيعه وانت بتحاول تقنع المهندس كرم بالموضوع ويا عالم هيوافق ولا لأ.هاديلك الفلوس اللي إنت عاوزها ومش هاسألك عن تفاصيل غير اللي عاوز تقولها وبس.

شعر "سليم" للحظة أن لعابه قد سال بالفعل.. العرض مغرٍ إلى أبعد مدى كان يطمح إليه. تساءل وهو يحاول الظهور بمظهر الواثق:

- إشمعنى موافق تشاركني دلوقتي؟

مال "حسام" برأسه قليلًا وشرد بعيدًا وهو يتمتم:

- عشان أقدر أنفذ وصية "خالد" - الله يرحمه -.

ثم صمت لثوان ونظر لـ"سليم" قائلًا بلا تردد:

- أنا عاوز أتجوز "حبيبة".

عاد إلى الطاولة بصحبة والدها، وهو ينظر إليها نظرات خاوية يفتش عنها بقلبه فلا يجد سوى الألم والذكرى الملبدة بالغيوم. حاول والدها تجنب الحديث عن الصفقة، متهربًا بلباقة من أي سؤال وجه إليه بشأنها، بينما استطاعت "حبيبة" أن تلمح الرضا في كلمات والدها عما ادعاه "حسام" بشأن خطبتهما، وتيقنت أن الحديث الجانبي بينهما انتهى لصالح "حسام"!.

تناقضت مشاعرها بشدة.. لا تعلم لماذا يفيض قلبها غضبًا منه. مازالت تذكر كلماته الجارحة، مازالت تذكر صمته المزدري لها ونفوره منها ومن ضعفها، ثم يأتي فجأة معلنا خطبتهما أمام الجميع. هل يغار؟ هل مازال يحب؟ أم هناك أمر آخر؟

أنهى "كرم" وولده اللقاء سريعًا وهما يشعران بسخط بالغ، وبمجرد انصرافهما نهض "حسام" موجهًاحديثه إلى "سليم" قائلًا:

- هاستأذن أنا يا "سليم" باشا وهاكلمك بكرة إن شاء الله عشان نحدد معاد.

كانت تتوقع أن يحدثها، أن يقول أي شيء، ولكنه انصرف دون حتى النظرإليها. احتقن وجهها بشدة، عندما سمعت والدها يتحدث إلى "راغب" قائلًا:

خلاص يا "راغب" "حسام"هو اللي هيدخل معانا شريك في الصفقة وبالمبلغ اللي هنحدده، خد إجراءاتك وادخل المناقصة بقلب جامد.

مالت "نشوى" تجاه "حبيبة" هامسة بمكر:

- أتاريه قال على نفسه خطيبك بمنتهى الثقة..واضح إن المبلغ اللي هيندفع فيكي كبير.

تجمعت الدماء بوجنتيها غضبًا وسخطًا عليه. هل أصبح يعاملها كدمية كما يفعل الجميع؟! نهضت بانفعال شديد، وهي تقول حانقة:

- أنا مش هاتجوز "حسام" ولا غيره.

تنهد "راغب" خفية بارتياح، بينما رقص قلب "نشوى" بداخلها، ولكن "سليم" لم يترك لهما مجالًا للراحة، فنهض وأمسكها من ذراعها بقسوة قائلًا:

- قدامي على العربية.

أسمعها وابلًا من الكلمات الجارحة، محذرًا إياها أنها ليست مخيرة، سترضى به شاءت أم أبت، نزع منها حق الرفض وهو يصرخ

بها أن تصمت ويضرب المقود أمامه، بقوة جعلتها تخشى على نفسها وآثرت السكوت.باتت ليلتها تتقلب على جمر غضب التهم قلبها. هو من عاملها كلا شيء ولن تنسى له هذا أبدًا، وستجعله يندم وترد له الصاع صاعين. قبضت يدها وهي تدور حول الفراش بتنمر وسخط، ستهشم وجهه المبتسم هذا، ستمزقه إرباً إرباً , ستقتله وترتوي من دمائه ، ثم هوت إلى الفراش باكية.

***

- إنت بتقول إيه يا "سليم"! جواز إيه و"سلمى" لسة بتتعالج، مش لما نرجع مصر الأول؟

أجابها بضيق:

- الشغل مافيهوش عواطف يا "فريدة"، الفلوس لازم تتدفع خلال أسبوع وهو شارط إنه يكتب الكتاب الأول.

طرقت"أمل" باب حجرة مكتبه، ثم دلفت بعد أن أذن لها قائلة:

-"حسام" بيه منتظرحضرتك في الصالون.

نهض على الفور من خلف مكتبه الخشبي الكبير وهو يقول لها آمرًا:

- روحي إندهي"حبيبة" وخليها تحصلني بسرعة.

خرج إليه مبتسمًا بحماس، وهو يرحب به ويتبادل معه أطراف الحديث حول عملهما معًا.

- بالنسبة لمعاد كتب الكتاب..زي مااتفقنا ولا فيه تأجيل؟

أجابه"سليم" على الفور مؤكدًا:

- زي ما اتفقنا طبعًا.. بس "حبيبة" عاوزة تتكلم معاك شوية واعتقد ده حقها.

ابتسم "حسام" ساخرًا، وهو يومئ برأسه محدثًا نفسه: وهل لها حقوق في هذا البيت وهي حتى لا تملك حق القبول أو الرفض؟! شعر بنفور شديد من المكان ومن فيه، وتجاهل وجود "سليم" وأخذ يداعب "حنين" وهو يحملها على قدميه، ليقدم لها هداياه التي أحضرها معه مشاكسًاإياها. وعندما سمعا خطواتها قادمة، تركهما سليم وحدهما وعاد إلى مكتبه.

جلست أمامه تتابع مداعبته لطفلتها بصمت، حتى انتهى متذكرًا أخيرًا أنها جالسة أمامه، فالتفت إليها متهكمًا:

- إزيك يا عروسة؟

ظلت تنظر إليه ببرود ولم تمنحه ردًا، فاستطرد قائلًا:

- حمايا العزيز قاللي إنك عاوزة تتكلمي معايا..إتفضلي أنا تحت أمرك.

أخذت نفسًا عميقًا ثم قالت بحسم:

- أنا موافقة على الجواز بس بشرط واحد.

مط شفتيه وهو ينظر إليها بشفقة كرهتها قائلًا:

- تصوري كنت فاكرك هتقاومي أكتر من كده؟

إبتلعت شفقته وأعادتها إليه سخرية وهي تنهض قائلة :

- وفَّر الشفقة دي لنفسك لما تعرف إيه هو الشرط

وضع "حنين" في مقعدها،ونظر إلى عينيها بتأمل استحال إلى غضب وقد قرأ ما يدور بعقلها. قالت بصرامة وتشفٍ، وقد أيقنت أنه علم الطريقة التي تنوي ذبحه بها:

-أنا مش هاسمح لأي راجل غير "خالد" - الله يرحمه - إنه يقرب مني. ده شرطي الوحيد.

اشتعل غضبًا، وصعدت حِمَمَهُ إلى مقلتيه، وهو يقول هادرًا:

-إنت مش مخيرة هتوافقي على الجواز غصب عنك.

التفتت لتغادر وهي تقول:

-مستنية ردك.

وما إن اختفت بالداخل حتى قال بتحدٍ:

- ماشي يا "حبيبة" إنت اللي بدأتي والبادي أظلم.

خرج من منزلها غاضبًا وخطواته ثقيلة على الأرض.استقل سيارته عائدًا إلى عمله، وما هي إلا ثوانٍ ومرت بجواره سيارة مكشوفة تطلق بوقها لتلفت انتباهه، فألقى نظرة عابرة عليها، فوجد قائدتها تلوح له بابتسامة. توقف على مهل بجانب الطريق وقد عرفها، أوقفت سيارتها خلف سيارته تمامًا، وترجلت منها وهي تنظر إليه مبتسمة، وتوجه نحوها..

- عاش من شافك يا كابتن؟

تجاهل يدها الممدودة إليه وهو يجيب ببرود ساخر:

- عاش من شافني ايه يا "سمر" ده أنا بشوفك صدف يوميًا.

احتقن وجهها بحرج وهي تعيد يدها إلى جوارها قائلة:

- المهم انت كويس يعني؟

أومأ برأسه وهو يضع يديه بداخل جيبي بنطاله الجينز مجيبًا:

-الحمد لله تمام.

حاولت تجاوز سخريته،فهو على حق أنها تطارده في كل مكان منذ أن عاد إلى عمله، وفي كل مرة تدعي أنها صدفة.ألقى نظرة إلى ساعة يده بملل وهو يقول:

-معلش يا "سمر" عندي شغل مهم مش هينفع أتأخر عليه.. إبقي سلميلي على والدك ووالدتك و"هدى".

استدار ليغادر، وعندما أمسك بمقبض باب سيارته أوقفته منادية:

- استنى يا"حسام".

ظل ممسكًا بالمقبض دون أن يلتفت، فأقبلت عليه بخطوات واسعة حتى توقفت أمامه مباشرة وهي تقول بتردد:

- في موضوع كده بقالي فترة عاوزة أقول لك عليه بس مترددة ومش عارفة لو خَلَفتْ وعدي وقُلتلك هيبقى صح ولا لأ.. بس مقابلتنا دلوقتي هاعتبرها إشارة من ربنا عشان أقول لك.

رفع رأسه إليها عاقدًاحاجبيه بتساؤل، فقالت مضطربة:

-"هدى" حامل.

***

- خفت تردني غصب عني عشان الحمل.

نهض متقدمًا نحو مقعدها في بيت والدها هاتفًا:

- بقى تخبي عليا إنك حامل عشان خفتي أردك؟ يعني كنتي مستنية لما تولدي وبعدين تقوليلي؟

تدخلت والدتها لتهدئته، عندما لمحت الدموع تترقرق في عيني ابنتها قائلة:

- مش كده يا حسام.. التفاهم بهدوء. هي كانت خايفة من رد فعلك مش أكثر

حدق بها مستنكرًا وهو يهتف بانفعال:

- وماحدش فيكم قاللي ليه؟.. انتوا كمان خايفين من رد فعلي؟

نهضت "هدى" مقاطعة ثورته وهي تقول:

- ماما وبابا لسة عارفين إمبارح، وزي ما إنت شايف الحمل مش باين عليا. أنا ماقلتش لحد غير "سمر".

فرك يديه بقوة وهو ينظر لها بغيظ شديد من حماقتها وسوء تصرفها. لقد حرمته من سعادة كانت ستخفف عنه الكثير في محنه، وتمنحه الطاقة للتصدي لذاك الانهيار الذي بدا يلوح له بعد فراق والدته وموت "خالد".. لمجرد خوفها من رد فعله؟!.

يعرف "هدى" ليست مترددة ولا تخشى المواجهة، فما الذي حدث لها؟ رغم كل هذا السخط الذي يشعر به الآن، فهو لا يساوي شيئًا أمام تلك الفرحة الخفية التي بدأت تدب بين جنبات قلبه الجريح. سيكون له ولد من صلبه يشارك "حنين" في إشباع إحساس الأبوة لديه، وربما يجعله يعيد حساباته من جديد. كان شعوره أنها مكافأة من الله وعلامة لقبول توبته، التي بذل فيها الشهور السابقة روحه، ليجعلها مخلصة.

لملمت أشياءها، وأعدت حقيبتها استعدادًا لمغادرة منزل والدها إلى منزل الزوجية الجديد، ورجفة تسري بأوصالها لكونها ستصير زوجته بعد سويعات قليلة. لم يكن وعده لها بتنفيذ مطلبها كافيًا لإشعارها بالأمان؛فنبرة صوته لم ترحها على الإطلاق.

بدلت ملابسها بثوب أبيض حريري،منسدل حتى كعبيها، يعلوه وشاح من نفس لونه، تحده خيوط فضية لامعة، تغطي به شعرها.طرق والدها الباب ودخل متسائلًا باضطراب:

-"حسام" ماتصلش بيكي يا"حبيبة"؟

التفتت إليه وهي تحرك رأسها نفيًا، في اللحظة التي سمعا "نشوى" تقول وهي مستندة إلى باب الغرفة:

- العريس اتأخر وشكله مش جاي.

اقترب منها والدها متسائلًا بدهشة، فرفعت كتفيها متابعة وهي تنظر في عيني"حبيبة":

-يمكن غير رأيه لما عرف إن "هدى" حامل، وجايز ناوي يرجعها.

إحمر وجه"سليم" وهو يقول بانفعال:

- عرفتي منين إنها حامل؟ وإزاي أصلا وهو مطلقها من كام شهر؟

قالت"نشوى" ببرود:

-هي دي حاجة تستخبى؟ وبعدين دي حامل في خمس شهور تقريبًا وبيقولوا إنه ولد كمان.

لم تكن "حبيبة" أقل صدمة من والدها، إلا أنها وجدت نفسها تبتسم رغمًاعنها، وهي تتخيل ملامح "حسام" المصدومة عندما علم بالخبر، وشعوره بالغضب لإخفائها الأمر عليه كل تلك الشهور الماضية.

قطعت "أمل" حالتهم قائلة بأدب:

-"حسام" بيه وصل يا فندم ومعاه المأذون.

خرج والدها وقد تنفس الصعداء، ثم أرسل في طلبها على الفور،فخرجت إليهم بخطوات ثابتة، مجاهدة ألا تظهر ما يعتمل بداخلها من خوف وتوتر، وهي تراه يجلس بجوار المأذون منتظرًا إياها لتوقع على عقد زواجهما.قاومت الدوار الذي كاد يلفها وهي تجلس أمامه على طرف المقعد، مستقيمة الظهر بشموخ كاذب، ممسكة بالقلم بين أصابعها المرتعشة، وألم شديد يضرب معدتها بلا سبب. خشيت أن تنظر إليه فتبتلعها نظراته المتملكة، خافت من أن تُسقط راية حربها فيتناولها هو معلنًا إنتصاره ومن الجولة الأولى!

وقف "حسام" مصافحًا "سليم" بعد إنصراف المأذون، ومن خلفه "راغب" الذي قدم إليه تهنئته على مضض. أما "نشوى" فقد وقفت عاقدة ذراعيها فوق صدرها، وقد أطل الحزن والغضب من عينيها، متعللة بغياب والدتها و"سلمى" في يوم كهذا. وعندما حاول "سليم" التأكد من خبر حمل "هدى"، أكد "حسام" الخبر بسعادة بالغة أقلقت "سليم" كثيرًا، وخصيصًا عندما أفصح "حسام" عن رغبته في بقاء "حبيبة" في بيت والدها مؤقتًا، وهو الذي كان حريصًا على انتقالها إلى بيته في أسرع وقت.!

حملت "أمل" الصغيرة"حنين" وهي تداعبها منصرفة من الحجرة، تاركة العروسين وحدهما، بعدما انسحب "سليم" وتبعه"راغب" و"نشوى" وكل منهم يفكر في الخروج من المأزق بطريقة مختلفة.

هي الوحيدة التي كانت تفهم أنه يرسل لها رسالة مضمونها أنه هو أيضًا لا يريدها. سرت قشعريرة خفية بين جنباتها، عندما اقترب منها وأمسك راحتيها بين كفيه مقبلًا إياهما بشوق كبير،جعلها تشك في تفسيرها السابق. ثم رفع عينيه إليها متأملًا إياها متفحصًا عينيها تارة ووجنتيها المتوردتين تارة أخرى، ثم همس لها:

- مبروك يا حبيبتي تعيشي وتاخدي غيرها.

نفضت يديه متراجعة خطوات إلى الخلف، وقد ضيقت عينيها باستنكار. ضحك بشدة وهو يومئ برأسه مؤكدًا لظنونها، وعندما هدأت ضحكاته قال:

-مش انتِ عاوزاني مالمسكيش.. خلاص بقى خليكي هنا أحسن.

عقدت ذراعيها فوق صدرها وهي تقول بتحدٍ:

-ما يفرقش معايا، حتى لو رديت "هدى" تاني برضه ما يهمنيش بالعكس هابقى مبسوطة إن الولد هيعيش بين أبوه وأمه.

اقترب خطوات منها وهو يقول بجدية تتنافى مع ضحكاته السابقة:

- ده لما يكون في حب وتفاهم بين الأب والأم..لكن لو كل اللي بينهم تناقض ومشاكل مش هيبقى من مصلحته انه يعيش معاهم، بالعكس هيفضل مش حاسس بالأمان ومتوقع الانفصال في أي لحظة.

صمتت قليلًا وهي تقرأ صدق كلماته في عينيه، التي تدقق بهما في سكون شديد، ثم ترددت قبل أن تحسم أمرها قائلة:

- طيب بغض النظر عن الإحراج اللي سببتهولي، ممكن أطلب منك طلب؟

ابتسم لتغير حالها سريعًا، وهو يومئ برأسه موافقًا، فقالت:

- أنا عاوزة ميراثى أنا و "حنين" في محلات "خالد" بعد ما تاخد نصيبك طبعًا

نسي مشاكسته لها وقال باهتمام:

- لو محتاجة فلوس اطلبي مني،انتِ بقيتي مراتي؟

هي أيضًا دُهشت من تقلب مزاجه السريع من التحدي والسخرية إلى الجدية والاهتمام، فقررت أن تبوح له بما عقدت عليه العزم في الأيام السابقة،وهوأن تستقل بحياتها، ثم تبدأ بالبحث عن عمل بعيدًا عن سطوة أبيها، فلا يستطيع إجبارها على شيء بعد الآن.

مط شفتيه مبتسمًا بتفهم وهو يقول:

- أولا لازم تعملي حساب إنك مراتي، يعني ما ينفعش تسكني لوحدك. ثانيًا تدوري على شغل ليه وشغلك في الجمعية الخيرية موجود؟

مداولات عدة هادئة دارت بينهما، وفي نهايتها منحته وعدًا بعدم الانتقال من بيت والدها، في الوقت الحالي على الأقل، ووعدًا آخر بأن تبدأ في مباشرة عملها في الجمعية في اليوم التالي على الفور دون تأجيل.

هذا هو ما كان حريصا على أن يشعله بداخلها.. تحدي الظروف والضغوط.. كان يريدها محاربة لا تستسلم مهما كانت العوائق ومهما علت الأمواج. أما هي، فلقد أرادت أن تبدأ بقيادة سفينة

حياتها بنفسها، فلم تعد تتحمل ترك دفتها بيد أحدهم يسوقها حيث يشاء، ويضعها في مرفئه حيث يريد.

***

ارتمت "سلمى" بين ذراعيها وهي تبكي بحرقة وألم، معاتبة "حبيبة" على إتمامها الزواج وهي في الخارج تحت الرعاية الطبية. ترقرق الدمع بعيني "حبيبة" وهي تربت على ظهرها وتضمها بقوة إلى صدرها بحنان قائلة:

- غصب عني والله يا سلمى، لما تعرفي الظروف هتعذريني

"سلمى" هي الوحيدة التي تشعر معها "حبيبة" بالراحة والاطمئنان، ورغم الفارق الصغير بينهما، إلا أنها تعاملها كابنتها الصغيرة، فهي طفلة في نظرها ولن تكبر أبدًا. كثيرًا ما أشفقت عليها وتألم قلبها وهي تستمع مرارًا وتكرارًا إلى شكواها وهي تقول بحزن: "هو أنا ليه مش حلوة زيك يا "حبيبة"؟ ليه مش شبه بعض خالص" ! هو مش إحنا إخوات؟! لم تكن "سلمى" تعلم أن جمال "حبيبة" هو سر شقائها مع والدها، فلقد كان يتوقع أن اصطحابها في حفلات صفقاته سيساعده على فرض شروطه، وإن كانت دائمًا تخيب ظنه بتحفظها وارتباكها وبعدها عن الناس، في تلك المناسبات التي كانت تحتاج إلى ذكاء من نوع خاص! حتى وصل الأمر بها فى يوم ما إلى صفع أحدهم على وجهه مما جعل والدها يسجنها فى غرفتها شهراً كاملاً لا تخرج منها إلا للحمام وفقط .

عادت "حبيبة" من شرودها مبتسمة، عندما رأت ضحكة تلقائية ممزوجة بحيرة بالغة ارتسمت على شفاه "سلمى" وهي تقول:

- عارفة يا "حبيبة" أنا كنت متصورة إن "حسام" ده آخر واحد ممكن تتجوزيه وخصوصًابعد اللي حصل بينه وبين "خالد" في التحرير.

انتبهت حواسها دفعة واحدة ناظرة إليها بتساؤل كبير يطل من عينيها بضراوة، مما جعل "سلمى" تضطرب وتتوتر، وقد أيقنت أن أختها لا تعلم شيئا مما حدث،فخالد لم يسعفه الوقت لإخبارها، وبالتأكيد لن يفعلها "حسام".

نهضت وهي تعتذر بارتباك معلنة رغبتها في النوم، ولكن "حبيبة" لم تتركها. سكن الشك عقلها وقلبها، فأوقفتها وهي تجبرها على البوح بما تخفي، فهي الشاهد الوحيد الآن.

ذهول تام سيطر عليها وهي تستمع إلى كلمات "سلمى" التي كانت تتحدث بارتباك، ومعالم الندم بادية على وجهها متجلية بوضوح.سقطت فوق فراشها مُتهاوية.. لقد مات "خالد" وهو يظنها تخونه، دون فرصة للدفاع عن نفسها، بَكته وكأنه قد فارق الحياة الآن ولكنه هذه المرة لم يرحل وحده لقد أخذ وفاؤها معه، رحل وترك لها الخطيئة والندم .. إرث مُحرم.

- 20 -

بمجرد أن وضعت يدها على إرثها من "خالد"، بعد أن بيعت محاله كما أرادت، بدأت في البحث عن شقة جديدة لتنتقل إليها هي وابنتها. كانت غاضبة ويائسة للغاية، ولم يخبُ غضبها وحزنها عندما علمت بأنه قد تنازل عن نصيبه لصالحها هي وابنتها. حدثتها نفسها أنه ربما فعل ذلك ليكفر عن ذنبه تجاه "خالد" وما حدث بينهما قبل إصابته مباشرة.

بعد رحلة بحث قصيرة عن شقة مناسبة، وجدت واحدة، واتفقت مع مالكها أن تأتيه خلال أيام لكتابة العقد، وقد قررت ضرب اتفاقها مع "حسام" بعَرَضَ الحائط.دخلت غرفتها وبدلت ملابسها، وقد كان الوقت قد شارف على الظهيرة، ووالدها في شركته ووالدتها كالعادة تتسوق بصحبة صديقاتها، و"سلمى" ما زالت نائمة.ألقت عليها نظرة حنونة، وربتت على شعرها بهدوء حتى لا توقظها من سُباتها العميق، ثم خرجت مغلقة الباب خلفها بهدوء،متجهة إلى المطبخ حيث "حنين" بصحبة "أمل".

دلفت إلى هناك بابتسامة واسعة، فاتحة ذراعيها لابنتها التي ضحكت لمجرد رؤيتها، مرفرفة بيديها في محاولة للنهوض من الأرجوحة الصغيرة التي امتلأت بالدمى من حولها، وهي تهتف (ماما).

استدارت إليها "أمل" بابتسامة مرحبة ومهذبة، وهي تراها تلتقطها حاملة إياها تقبلها بشوق كبير.

ثم جلست على المقعد المجاور للأرجوحة بداخل المطبخ الكبير، واضعة "حنين" فوق الطاولة المستديرة أمامها تحيطها بذراعيها، مداعبة إياها مقبلة أنفها الصغير تارة،مدغدغة رقبتها تارة أخرى. ترقرق الدمع بعيني "أمل" وهي تتابع تصرفات "حبيبة" البسيطة، التي هي جزء من شخصيتها، ورغم علمها أنها مختلفة عن جميع من في المنزل إلا أنها في كل مرة تأسرها بفضلها ومعاملتها الحسنة لها، تقبلها على وجنتها وتداعبها وعندما يخلو المنزل إلا منهما تجلس بصحبتها في المطبخ وتتسامر معها أوقاتاً طويلة وفي كل مرة كانت تتمتم بصوت مكتوم "دي مش ممكن تكون بنتهم أبداً"!

شعرت "أمل" بنصل السكين ينغرس في إصبعها، فشهقت من المفاجأة والألم. وضعت "حبيبة" طفلتها في الأرجوحة، واقتربت منها، وقطبت جبينها وهي تمسك بيدها المجروحة قائلة بعتاب:

- مش تِخلي بالك من نفسك يا"أمل"، حطي منديل عليها لحد ما أجيبلك بلاستر.

فتحت أحد أدراج المطبخ الذي يحوي بعض الأشياء الطبية البسيطة، وأخرجت منها اللاصق الطبي.كانت "أمل" قد كتمت الجرح بمحرمة ورقية، أزالتها "حبيبة" وقد توقف النزيف، ووضعت اللاصق حول الجرح بعناية وتمهل في تلك اللحظة علا رنين جرس الباب، فقالت"حبيبة" على الفور وهي تربت على كتف"أمل":

- خليكي انتِ أنا هاروح أفتح دي أكيد ماما.

عندما أدارت مقبض الباب وفتحته،ازدردت ريقها بصعوبة وهي تتراجع إلى الخلف متمتمة:

-"حسام"!

ملابس المنزل، وشعرها المنسدل بحرية، كانا كافيان لإسكات غضبه وإثارة روح المشاكسة بداخله. أغلق الباب خلفه وهو يتأملها بشغف مقبلًا نحوها، قائلًا بلهجة آمرة:

- ماتفتحيش الباب كده تاني.

لملمت خصلات شعرها إلى الخلف بارتباك، محاولة اجتناب النظر إليه وهو يتفحصها مبتسمًا وعيناه تحيط بها من كل اتجاه، فإلى أين المفر؟استدارت وهي تقول بنزق محاولة تخطي ارتباكها أمامه:

- أنا أصلًا مش بافتح الباب، ده بس علشان مافيش حد هنا و"أمل" إيديها مجروحة..عن إذنك هاروح أغير هدومي.

أوقفها بنبرة صارمة، شعرت معها أن صوته اخترق ظهرها..

- مابتروحيش الجمعية ليه، هو ده برضه إتفاقنا؟

قالت دون أن تلتفت:

- مش هاروح وهانقل قريب في شقة تانية.. أنا حرة.

تألمت عندما أمسكها من رسغها وجرها خلفه قسرًا إلى داخل غرفة المعيشة. وقف أمامها وقد احتقنت عيناه بالدماء وهو يهتف غاضبًا محذرًا إياها:

- عاوزة تمشي من هنا يبقى تمشي على بيتي، غير كده لأ، ولا انتِ فاكرة نفسك متجوزة طرطور؟

هتفت صائحة:

- إنت عاوز إيه..عاوز تاخد كل حاجة؟ لأ.. أنا مش هاسمحلك.. كفاية خالد مات وهو فاكرني خاينة..إنت إيه يا أخي، إيه كمية الأنانية اللي جواك دي؟

ظل محدقًا بها وشعلة الغضب تنطفئ في عينيه رويدًارويدًا، حتى سكنت تمامًا وحل مكانها الحزن والعتاب. لحظات صمت تبعت إعصارها، لا يشقها سوى صوت لهاثها. بلل شفتيه بلسانه وقال بصوت متهدج:

- أنا لو كنت أناني ماكنتش قررت أبعد عنك بعد ما جالك انهيار عصبي بسببي..لو كنت أناني كنت استغليت تهديدات جوز أختك لصالحي..ماكنتش وقفت جنب "خالد" في محنته.. أنا من يوم ما أمي ماتت وأنا خدت عهد على نفسي قدام ربنا مااجبش سيرتك حتى بيني وبين نفسي طول ما انتِ مرات راجل تاني، وكل يوم كنت بادعي ربنا يشيلك من قلبي.

تنفس بعمق ثم قال متابعًا:

- ماتخليش إحساسك بالذنب يخليكي عدوانية معايا.

لم يكن في الإمكان البقاء أكثر من هذا. تحركت على الفور للخروجِ من الغرفة وهي تشيح بوجهها و تصيح بضجر:

- إحنا مافيش بينا حاجة تخليني أحس بالذنب.

شعرت بقبضته تحيط بذراعها، ثم تجذبها إليه في حركة خاطفة محيطًا خصرها بذراعه الحرة وهو يقول بتحدٍ:

- مُتأكدة إن مافيش حاجة بينا؟

حاولت التملص منه،فقبض على شعرها من الخلف وهو يردف مبتسمًا بتملك:

- على فكرة شعرك كله أنوثة.

لحظات عنيفة صامتة أغضبتها، ثم أربكتها، وأخيرًا أحبتها فاستكانت لها، وقد أيقنت بأنه يستطيع إسكات غضبها دون أن يبادلها الصراخ.

إلا أن ما مرت به كان ولا بد أن يكسبها بعض التمرد، ففتحت عينيها، وفاجأته بدفعة قوية، مستغلة حالة الارتواء التي يمر بها، وفرت هاربة من بين ذراعيه. لملم شتات نفسه وتابعها بعينيه وهي تركض بالخارج، وكل خلجة بداخله تنتفض شوقًا لها، ورغمًا عنه ابتسم وهو يتذكر تلك الرشفة السريعة!.

أغلقت غرفتها خلفها، وصوت أنفاسها يعلو وقلبها يطرق بداخل صدرها بجنون، فوضعت يدها عليه مهدئة لارتجافته بداخله، وهي تقترب من المرآة. وما إن وقفت أمامها وهي تتفحص شعرها المشعث من فرط عدوانه عليه، واضعة أناملها الأخرى فوق شفتيها، وقد توردت وجنتيها، وصوت "هدى" ينبعث من ذكرياتها له صدى خفيض وهي تشتكي من عنفه معها حتى في لحظاتهما الخاصة، وتقول "انتِ مش متخيلة ده عنيف إزاي يا "حبيبة" ده شرس في كل حاجة..كل حاجة"،ابتسامة جذلة وجدت طريقها إلى جانبي شفتيها..نعم عنيف ولكن ليس سيئًا على الإطلاق!

خرج "حسام" من المنزل غالقًا الباب خلفه بهدوء منتشيًا، وهو يعلم ماذا يحدث لها الآن بغرفتها، التي هربت منه إليها محتمية

بجدرانها من ذراعيه، ولكنه كان غافلًا عن تلكما العينين اللتين كانتا تراقبان ما يحدث عن كثب ونيران الغيرة تشتعل بهما بلا هوادة.

طرقات خفيضة على باب غرفتها أعادت إليها اتزانها، فتركت المرآة وتنحنحت قليلًا وهي ترتب شعرها، قبل أن تفتح باب غرفتها لـ"أمل" التي كانت قد انتهت من إعداد الطعام، وجاءت تسألها عن رغبتها في تناوله الآن بصحبة والديها، وقد حضرا توًا إلى المنزل. حملت طفلتها قائلة بابتسامة عذبة:

- ماشي..روحي انتِ أنا هاروح أصحي "سلمى".

أومأت "أمل" برأسها ممتنة، بينما توجهت "حبيبة" إلى غرفة أختها الصغرى لتوقظها، فهي تعلم أنها تقضي الليل في تحصيل دروسها التي تعشقها، وتنام بعد صلاة الفجر وقبيل الضحى، ولابد وأن اليوم ليس لديها محاضرات في الكلية لذلك تنام حتى تلك الساعة من الظهيرة.

لم تسأم وهي تحاول إيقاظها مرارًا وتكرارًا، واضعة "حنين" بجوار رأسها لتلعب بيدها الصغيرة في وجهها، وكان ذلك كافيًا لتستيقظ بضجر متورمة العينين تفركهما بشدة قائلة بصوت ناعس:

- خلاص يا "نشوى" صحيت إبعدي عني بقى.

ضحكت "حبيبة" وهي تجلس بجوارها على الفراش قائلة:

- "نشوي" مين.. انتِ كنتي بتحلمي بيها ولا إيه؟

بحثت "سلمى" بأصابعها عن نظارتها الطبية الملقاة فوق الوسادة، وعندما ارتدتها دققت النظر بـ"حبيبة"، وقالت وهي ترتب شعرها الذي شعث من أثر النوم:

- سمعت صوت "نشوى" بتصحيني من شوية.. بس شكلي كدة كنت باحلم.

أنهت عبارتها وهي تنهض من الفراش وتتناول منشفتها لتلحق بهم على الغداء كتعليمات والدتها الصارمة، وقبل أن تخرج من الغرفة تساءلت عن وجود والدها في المنزل، فابتسمت "حبيبة" وهي تقول بمرح:

- شكلك كده عاوزة فلوس؟

لوت "سلمى" شفتيها بسأم وهي تفتح باب الغرفة ممازحة:

- إيه الذكاء الحاد ده؟

***

وبعد أيام قليلة، مر "حسام" بمنزل عائلة "هدى" مصطحبًا إياها هي ووالدتها، كما اتفق معها من قبل إلى العيادة النسائية التي تتابع فيها "هدى" حملها. كان يريد أن يطمئن على صحتها وصحة جنينها كأب متحمل مسؤلياته الجديدة. التفتت "هدى" إليه وهي تجلس بجواره في سيارته متسائلة:

- صحيح يا "حسام" اللي سمعته ده؟..انت اتجوزت "حبيبة" فعلًا؟

لاحت ابتسامة جذلة فوق شفتيه، وتحركت عيناه وهو يتذكر تلك اللحظة التي مرت به معها وهو يومئ برأسه مؤكدا الخبر:

- أيوه.

رفعت حاجبيها دهشة وهي تتمتم:

- غريبة!

تنحنحت والدتها بطريقة تعرفها "هدى" جيدًا، والتي تعني بها ألا تتدخل في شئونه الخاصة، فلم يعد هناك ما يربطها به غير حملها فقط. صمتت "هدى" كعادتها عندما تتلقى تعليمات صارمة من والدتها، والتفتت برأسها إلى الاتجاه الآخر بعيدًا عنه، تنظرعبر الزجاج المجاورلها.عندما أخبرتها "سمر" بزواجه من "حبيبة" ضحكت ساخرة، ولم تأخذ حديث أختها على محمل الجد، كيف ذلك؟! شخصيتهما مختلفة تمامًا، هي رقيقة وحالمة وهو عنيف وشرس، فهل يجتمعان تناقضًا أم تكاملًا؟

الآن فقط علمت لماذا كل هذه الاتصالات المتوالية من "حبيبة" في الأيام السابقة على وجه التحديد، وهي التي كانت تخشى أن تجيب مكالماتها فتتفلت منها كلمة هنا أو هناك تستشف منها خبر حملها، لكنها اكتشفت الآن أنها كانت تريد إخبارها بزواجهما أو ربما استئذانها في ذلك.

حركت رأسها وهي تتنهد شاردة.. عندما كانت علاقتها قوية بـ"حبيبة" بعد شفائها من الانهيار العصبي الذي أصابها، وزياراتها المتوالية لها في بيت "نور".. كانت تجالسها أوقاتًا كثيرة، ودائمًا كانت "حبيبة" تستأذنها وتقوم لتؤدي الصلاة، وقد أصبحت أكثر تدينًا، فكيف توافق على الارتباط بـ"حسام" ألم يكن أمامها خيارآخر، أم أن "حسام" قد تغير بالفعل؟ جاءتها الإجابة سريعًا عندما وصلوا في تلك اللحظة إلى العيادة وسمعته يقول متعجلًا:

- اسبقوني إنتوعلى ما أصلي المغرب وأحصلكم.

***

صعد خلفهما بعد دقائق ليست بالقصيرة، فوجدهما مازالا ينتظران دروهما في الكشف. جلس بجوارهما بابتسامة صغيرة، فمالت نحوه"هدى" قليلًاهامسة له:

- عشر دقايق وندخل.

أومأ بتفهم، ثم أخرج هاتفه وأخذ يعبث بشاشته، فوجد أصابعه تبحث عن رقمها الذي يسكن قلب هاتفه كما سكنت هي قلبه، وما إن وجده حتى ضغط حروفًا اجتاحها الشوق اجتياحًا، ثم ضغط زرالإرسال مبتسمًا، وهو يتخيل رد فعلها عند قراءتها لكلماته. أغلق الرسائل وفتح تطبيقًا آخر، وبدأ بالهمس مرتلًابعض الآيات القرآنية، مما جعل "هدى" تقطع حديثها مع والدتها وترهف سمعها وهي تنظر إلى الهاتف بيديه، ثم تحرك رأسها بتعجب وتعود لتميل باتجاه والدتها مرة أخرى استئنافًالحديثهما.

أما هناك فوق فراشها، فقد كانت تعرض رسالته على هاتفها وتقرأها هامسة بحروفه النابضة:

- سيني سيفيوروم.

وضعت الهاتف فوق الفراش، وتناولت المشط من جديد بأصابع مرتبكة، وعادت لتمشط شعر ابنتها التي تجلس في حجرها، محاولة فقأ عين دميتها الجديدة، لاهية عن الابتسامة الواسعة التي شقت طريقها بسهولة وبطء فوق شفتي أمها، وظلت محتفظة بها لساعة أخرى.. حتى اختفت عندما انتفضت مجفلة في اللحظة التي دخل والدها غرفتها يناديها.

اعتدلت ونهضت واقفة وهي تضم ابنتها، وتنظر في عينيه بترقب.. ثورته تبدو في أحداقه.. بالتأكيد علم بأمر بيعها لمحال "خالد" دون الرجوع إليه، وأصبحت في ورطة حقيقية الآن!.

***

المشهد يتكرر للمرة الثانية أمامه، وهو يقترب من سيارته ويدقق النظر في تلك الورقة التي تم تثبيتها بلاصق فوق زجاجها الأمامي. انتزعها بحدة، وكأنه شعر بما تحويه من كارثة قبل أن يقرأ ما بها.. فضها سريعًا ومرر عينيه على الكلمات القليلة المطبوعة بداخلها:

("حبيبة" هي نفسها أختك "حنين"، ارجع لمذكراتها اللي كانت مع "خالد" وانت تتأكد زي ما هو اتأكد بالظبط).

عقد جبينه وهو يطبق على الورقة بداخل قبضته حتى كاد يسحقها، ونظرات الدهشة والحيرة تحتل مقلتيه وهو يحدق في الطريق أمامه قاطعًاإياه بسرعة بالغة إلى منزله، حيث حقيبة "خالد" التي استلمها من المشفى بعد وفاته، ولم يجرؤ على فتحها حتى هذه اللحظ.، صفق باب المنزل خلفه وانطلق يقفز الدرج المؤدي إلى غرفة النوم بالأعلى. دخل غرفته وفتح خزانة ملابسه على عجل، وأخرج الحقيبة لأول مرة منذ أن وضعها هنا.اتجه إلى الفراش وأفرغ محتوياتها فوقه بعصبية والتقط مفكرة متوسطة الحجم، تناولها على الفور وفتحها والتهمت عيناه السطور وصوت "خالد" يدوي بعقله يكاد يشجه ويقذف بقلبه فيرديه إلى الهاوية وينفث رُفاته رسالة إلى الماضي، إلى "حنين": "كفاية عليه صدمته لما يعرف إنه كان بيحب أخته"، "هتخلي بالك منها غصب عنك لما تعرف انها "حنين"!.

***

طرقات عنيفة على الباب جعلت "أمل" تترك ما بيدها وتهرول لترى من ذلك المجنون الذي كاد أن يحطم الباب تحت ضربات يده. كانت العائلة مجتمعة في غرفة المعيشة، ولكن تلك الطرقات القوية جعلتهم ينهضون فزعين، وقال"سليم" بغضب:

- مين المجنون اللي بيخبط كده؟

وكأنه قد استدعاه بسؤاله عنه، ظهر "حسام" على باب الغرفة المفتوحة كمارد خرج لتوه من قلب الجحيم، محدقًا بعينين حمراوتين في"حبيبة" وهو يقول بغضب مكتوم:

- بقالي نص ساعة بحاول أتصل بيكي مابترديش عليا ليه؟

صاح "سليم" غاضبًا:

- جاي من غير ميعاد وبتخبط بالطريقة دي عشان مابتردش عليك إنت مجنون ولا إيه؟!

بينما قالت"نشوى" ببرود:

- دي مش أصول خالص.

زفرت "فريدة" بضيق، وعادت تجلس مجددًا وهي تقلب في قنوات التلفاز بضجر، ثم تنحنح"راغب" وتحرك نحو الباب قائلًا:

- طيب هننزل إحنا يا جماعة..تصبحوا على خير.

مرا بجواره، فرمقته"نشوى" بنظرة ساخرة، ولكنه أشار لهما بيده يمنعهما من الخروج قائلًا:

- ماحدش هيمشي غير لما أعرف مين له مصلحة وعاوز يقنعني إن"حبيبة" تبقى هي نفسها أختي"حنين".

أنهى كلماته ونشر أمامهم الورقة التي وجدها على زجاج سيارته، وقرأ ما دون بها بصوت مسموع. همهم الجميع بدهشة واستنكار وتساؤل، وهي تنظر إليه وكأنها قد تساوى لديها في تلك اللحظة الحياة والموت.

أخرج المفكرة العالقة بين خصره وحزامه، وتقدم نحوها بعينين جامدتين وهو يتساءل بخشونة:

- المذكرات دي بتاعتك؟

تحولت بنظرها إلى المفكرة متمتة:

- أيوه.. جبتها منين؟

كانت "سلمى" هي أول من ظهرت انفعالاتها على الفور هاتفة باستهجان:

- إيه الكلام الفاضي ده.. "حبيبة" أختك إزاي يعني يا أبيه.. إنت هتعمل زي أبيه "خالد" ولا إيه؟

إلتقت العيون حول "سلمى"، التي اضطربت بمجرد أن أصبحت محط أنظار الجميع، فهي ليست معتادة على هذا. استدارت برأسها نحو "حبيبة" التي تقف بجوارها وقالت وهي تطرف بعينيها بحرج:

- خالد لقى المذكرات بتاعتك على عربيته لما جاني في التحرير هو و"حسام" عشان ياخدوني معاهم..ولما قرا فيها كلام انتِ كاتباه عن حادثة السفينة،افتكر إن انتِ و"حنين" شخصية واحدة، وخصوصًا انهم مالقوش جثتها مع اللي غرقوا وقتها..جالي المستشفى الميداني وسألني في الحكاية دي،وأنا قلتله إنك كنتى على السفينة فعلا بس الحمد لله أنقذوكي.. لكن هو كان شكله

غريب أوي وهو بيكلمني، زي مايكون متأكد، وبالذات لما عرف إنك مش فاكرة حاجة عن حياتك قبل الحادثة. حاولت أقنعه، لكن هو كان مصمم جدًا وقاللي إنه بمجرد ما يرجع هيعلن ده قدام كل الناس مش أنا وبس، وكان برضه عاوز يعرف مين له مصلحة إنه يوصل له المذكرات دي؟

التفت "حسام" تجاه "راغب"، متوعدًا وهو يقول ببطء:

- لأ، أصل اللي بعت المذكرات لـ"خالد" ماكانش يقصد حكاية السفينة، كان يقصد حاجة تانية موجودة برضه في المذكرات.

ازدرد "راغب" ريقه بصعوبة وشحب وجهه، بينما هتفت "فريدة":

- ايه الكلام الفارغ ده هو إحنا مش هانعرف بنتنا ولا إيه؟

فاستطرد "سليم" متابعًا:

- وبعدين الدكاترة قالوا إن ذاكرتها هترجع مع الوقت ومن غير علاج.

ثبت عينيه في عيني "حبيبة"، التي أغرورقت بالدمع، وتساءل بخفوت:

- ويا ترى رجعت ولا لأ؟

حركت رأسها نفيًا بصمت، وهوت جالسة مكانها، وقد عجزت قدماها عن حملها وساد صمت مطبق على المكان ومن فيه. ولكن صوت "نشوى" أبى إلا أن يشقه كسهم اندفع بقوة وسرعة مخترقًا لوحًا من الخشب المتهالك قائلة بتفكير:

- فعلا "حبيبة" بعد الحادثة كانت متغيرة أوي، كأنها واحدة تانية خالص.. أنا كنت فاكرة وقتها إن عملية التجميل اللي عملتها هي السبب في الإحساس ده؟

التفت إليها متسائلًا:

- عملية تجميل!!

أومأت برأسها، بينما خرج صوت "حبيبة" كعصفور جريح يتألم وهي تتمتم بأنين:

- الحادثة سابتلي تشوهات في جزء من وشي، فعملت عملية تجميل وآثارها راحت خالص.

استدار نحو "فريدة" آمرًا:

- أنا عاوز صور "حبيبة" قبل الحادثة.. أكيد ليها صور، ولا إيه يا مدام "فريدة"؟

حركت "فريدة" رأسها وهي تزفر بنفاد صبر قائلة:

- لما سيبنا اسكندرية وجينا هنا ماجبناش معانا الألبومات.

وضع يديه في جيبه وهو يقول:

- بسيطة نروح إسكندرية.

هتف "سليم" من خلفه بضجر:

- إنت مكبر الموضوع كده ليه إيه شغل الأفلام اللي انت عايش فيه ده؟

استدار "حسام" إليه بجسده كله صائحًا بحنق:

- معاك حق يا باشا، وأنا أكبر الموضوع ليه بس.. كل الحكاية إن مراتي ممكن تبقى أختي.. الموضوع بسيط أوي مش كده؟

ارتمت "حبيبة" على كتف "سلمى" وهي تبكي بقوة، وجسدها كله يهتز ويرتجف، أحاطت "سلمى" كتفها بحزن وهي تربت عليها، وفجأة نظرت إلى "حسام" قائلة، وكأنها وقعت على كنز ثمين للتو:

- أنا عندى اقتراح هيريحك يا أبيه، اعملوا تحليل DNAانتم الاثنين وده هيحسم الموضوع إن شاء الله، وأنا أعرف مكان كويس بس التحليل ده بياخد وقت.

عاد الصمت يطبق على الغرفة مجددًا، لا يقطعه سوى صوت بكائها المتواصل على كتف أختها، التي تربت عليها بحنان مدعمة إياها بكلمات مطمئنة.

وفي صباح اليوم التالي، مر بها مصطحبًا إياها هي و"سلمى"، وملامح كل منهم متجمدة خالية من أي تعبير، وكأنهم الأموات يرحلون من قبورهم في إجازة قصيرة. سويعات قليلة وانتهى كل شيء، في انتظار نتيجة ربما تقتلهم وربما تحييهم،أوربما هي تحصيل حاصل عند أحدهم!.

أصر "حسام" على السفر إلى الإسكندرية ليعاين أشياءها القديمة هناك، ويرى صورها قبل الحادث، ربما يجد دليلًا يبحث عنه، واضطرت"فريدة" إلى الاستغناء عن "أمل" لليلة ويوم واحد، فالمنزل هناك مقفل منذ شهور طويلة.

وفي عصر اليوم التالي، كان والدها يفتح بوابة المنزل الكبيرة ويدفعها للداخل. مروا بالحديقة الصغيرة، ومنها إلى الباب الداخلي للمنزل.. دلفت "حبيبة" خلف والدها، وهي تعقد ذراعيها وتلفهما

ممسكة بمرفقيها مطرقة برأسها للأسفل، وكأنها مساقة إلى غرفة إعدام خاصة بها وحدها.. إعدام من نوع جديد، لكنه ينتهي نفس النهاية، مفارقة الروح!.

كانت "أمل" قد سبقتهم إلى المنزل الليلة الماضية لمجيئهم، حتى تعد البيت لاستقبالهم بشكل مناسب. قلَّب حسام جميع الألبومات التي وُضعت أمامه، فلم يجد لها سوى بعض الصور القليلة التي تجمعها بعائلتها في بعض المناسبات وفي الحفلات التي كانت تقيمها والدتها، وفي مراحل عمرية مختلفة.. تظهر دائمًا منزوية لا يتبين ملامحها تماما، إلا أنها كانت كافية لمعرفة مدى قرب ملامحها مما هي عليه الآن.

زفر بقوة وهو يرمي بآخر ألبوم كان ممسكًابه فوق الطاولة المقابلة له، واضعًارأسه بين كفيه مغمض العينين لدقيقة كاملة.جلست "سلمى" بجواره،ورغم أن القلق مستبد بها قالت بهدوء:

- اتطمن يا أبيه أنا متفائلة.

رفع رأسه إليها باسمًاوهو يقول بإنهاك شديد:

- إنت الوحيدة اللي متفائلة يا"سلمى" !

ثم ابتسم ساخرًا وهو يردف:

- أبوها وأمها نفسهم مش متأكدين، وواضح كده إنهم ما عندهمش مشكلة إنها تطلع مش بنتهم.

إشرأبت برأسها تراقب الغرفة التي ولج إليها والدها خلف "حبيبة" مباشرة، ثم عادت برأسها إليه قائلة بهمس:

- تصدق بالله..لو أنا صحيت الصبح وقلتلهم أنا مش"سلمى" أنا واحدة تانية هيصدقوا ومش هيفرق معاهم.

عقد حاجبيه وهو يتابع حديثها بإنصات واهتمام وهي تستطرد:

- من إمتى وهما بيعرفوا عننا حاجة؟ إحنا كل واحد فينا في أوضة منعزل عن الباقيين، مش بنتجمع غير على الغدا بس وبناكل في صمت حسب تعليمات ماما..هيعرفونا إمتى وإزاى وهما بيشوفونا وبيتكلموا معانا صدفة؟

شرد قليلًا ثم عقب على حديثها قائلًا:

- كلامك ده المفروض إنه يطمني لكن هو في الحقيقة بيزود شكوكي.

ضحكت وهي تقول مداعبة:

- أنا صيدلة مش فلسفة يا كابتن.

ابتسم مجاملًا لها،ثم أدار رأسه ينظر إلى الداخل قائلًا:

- هما بيعملوا إيه كل ده؟

نهضت وهي تقول:

- ثواني أشوفهم.

طرقت باب الغرفة، فخرجت إليها "حبيبة" وهي تحمل أحد الأثواب بين يديها، ثم مرت بجوارها قاطعة المسافة القصيرة إليه، فاستدار ينظر إليها ناهضًا وهي قادمة نحوه. مات نظره فوق الثوب الذي تحمله بين يديها وهي تعرضه أمامه متسائلة:

- ده الفستان اللي كنت لابساه لما فقت في المستشفى يوم الحادثة.. تعرفه؟

انتزع الثوب منها بعنف، وقلبه بين يديه.. تحسس القلادة الكبيرة التي تتوسط حزاما من القماش الناعم ملتصقًابعناية عند منطقة الصدر، ثم تمتم مبهوتًا:

- الفستان ده بتاع"حنين"!

كان والدها قد لحق بها، وتبعته"سلمى" التي هتفت من خلف كتفه:

- ما يمكن واحد شبهه؟

هز رأسه نفيًاوهو يتحسس القلادة التي تتدلى منها سلاسل صغيرة، بها فصوص فضية وهو يجيب:

- أنا اللي جايبهولها بنفسي قبل ما تسافر عشان تاخده معاها!

- 21 -

سرت ذبذبات متوترة بينهما وهما ينظران إلى بعضهما البعض باضطراب. فوقفت "سلمى" بينهما وهي تحدث والدها قائلة بتساؤل:

- وبعدين يا بابا.. هنعمل إيه دلوقتي؟

رد عليها "سليم" دون أن يطرف له رمش أو يهتز من وقع المفاجأة:

- كدة تقريبا الأمور بقت واضحة.. نرجع مصر بقى.. مافيش داعي لوجودنا هنا

رمقه "حسام" بنظرة ساخطة.. إلى هذا لحد يتساوى لديه أن تكون "حبيبة" ابنته أم لا؟!، لو أنها "حنين" بالفعل، فمعنى هذا أن ابنته هي التي غرقت وضاعت جثتها بين الأعشاب في قاع البحر، أو بداخل سمكة قرش مفترسة،فهل حرصه على الأموال من الممكن أن يحوله إلى نوع مختلف عن البشر، بين الجماد والشياطين، لا يحمل قلبه أي مشاعر رحمة أو رأفة لأحد؟! لقد كان والده رجل أعمال هو الآخر، حريصا على أمواله ونجاح صفقاته، ولكنه على الرغم من ذلك كان إنسانًا، كان رجلًا بمعنى الكلمة، جعل الدنيا في يده لا في قلبه.

لم يعد لبقائهم داع بعد الآن،فتحركوا جميعًا للخارج تجاه سياراتهم. تحركت "حبيبة" بتلقائية خلف "سليم"، ولكن "حسام" جذبها وهو يقول:

- انتِ هتيجي معايا أنا.

التفتت إليه لا تدري ما تقول، فقال"سليم" على الفور:

- تروح معاك فين؟

قال بحسم:

- تروح بيتها.. ولا إيه يا"سليم" باشا؟

فوجئ"سليم" بالأمر، وقبل أن يجيب قاطعه"حسام" بصرامة:

- ما هي يا إما مراتي يا إما أختي، وفي الحالتين هتيجي معايا.

حاول "سليم" كثيرًا أن يثنيه عن قراره،على الأقل حتى ظهور نتيجة التحليل وجمع أشياءها وتوديع "فريدة" و"نشوى"؛ ولكن "حسام" كان عنيدًا للغاية، ففتح باب سيارته وجذبها إليها برفق لتستقلها، وهو يقول ببرود:

- أنا هابقى أجيبها بكرة تلم حاجتها اللي محتاجاها وتسلم عليهم براحتها.

أغلق الباب برفق، ودار حول السيارة، وما إن احتل مقعد القيادة حتى فتحت "سلمى" الباب المجاور لـ"حبيبة"، واستقلت السيارة إلى جانبها ناظرة إليها بتعاطف قائلة له برجاء:

- معلش يا أبيه خليني معاها هي محتاجالي جنبها.

أومأ برأسه موافقًا بتسامح، وانطلق عائدًا إلى القاهرة التي لم تعد قاهرتها وحدها، بل أصبحت ثقلًا فوق كاهل الجميع.

***

سرت قشعريرة بجسدها وهي تخطو بداخل فيلته للمرة الثانية. ألقت نظرة لا إرادية نحو الأريكة التي تجاور المدفأة.. هذا ما تبقى من الأثاث العتيق الذي رأته في الحفل، مما يوضح أن "هدى" حصلت على حقوقها كاملة، وها هو أثاثه الجديد يتوافق مع روحه المتمردة وطبيعته البسيطة، التي لا تميل إلى التكلف ولا النظام. بدا المكان حيًا أكثر من ذي قبل.

أخرجها من شرودها قائلًا:

- ما كانش ينفع أفرط في الركن ده أبدًا.

لم تستدر.. سكنت كما هي، وعندها قالت "سلمى" بمرح:

- أنا هاموت من الجوع..إنتو بخلا ولا إيه؟

ابتسم معتدلًاوهو يلتفت نحوها قائلًا بحماس:

- لا ياستي مش بخلا ولا حاجة..على ما تطلعوا تشوفوا المكان فوق يكون الأكل وصل.

لم تستطع أن تشاركهم الطعام، متعللة بألم في معدتها. تركت ابنتها بصحبتهما، وصعدت للطابق الأعلى لترتاح، ولكنها ظلت تتقلب في سريره، وقد ترك لهما غرفته ونام هو بالأسفل في حجرة مكتبه، فالغرف الباقية لم تكن مجهزة لاستقبال سكان جدد.

وفي الصباح، ترنحت وهي تعتدل مستلقية على شقها الآخر وتوقظ"سلمى" التي تنام بجوارها، والتي وضعت الوسادة فوق رأسها قائلة بضجر:

- ماعنديش محاضرات مهمة النهاردة سيبيني أنام.

ألقت جسدها فوق الفراش مجددًا، وأغمضت عينيها المرهقتين بصعوبة، شعرت بدوار يلفها لثوان، ثم ذهبت في نوم عميق، وكأنما ألقيت في بئر عميق مظلم.

وكما ألقيت فجأة، خرجت أيضًامنه فجأة، عندما انتفضت مستيقظة على صوته يهمس بجوار أذنها مدللًا شعرها بين أصابعه. شهقت وهي تجلس مرتبكة متسائلة عن الوقت، فأجابها مراقبًا إحمرار وجنتيها حرجًا:

- العصر قرب يأذِّن يالا عشان نتغدا وأوصلك عند والدك. أنا مأجل شغلي بسبب سيادتك يا هانم و"سلمى" قاعدة من بدري في الجنينة لوحدها.

تحاشت النظر إليه، كما تجاهلت نبرة صوته الدافئة الحنونة والمشاكسة وهي تنهض قائلة:

- حاضر.. بس لو سمحت ما تدخلش تصحيني تاني.

رفع حاجبيه وهو يقف أمامها باعتراض قائلًا:

- ليه بقى هو انتِ مش أختي ولا إيه؟

هتفت باستنكار وهي تلملم شعرها:

- حتى لو كنت أختك ما ينفعش تدخل من غير استئذان.

زم شفتيه وقال باستسلام معتذرًا:

- في دي معاكي حق، غلبتيني.. أوعدك مش هاعملها تاني.

استدار منصرفًا مغادرًا الغرفة بأكملها، لتجلس مترنحة فوق سريره وهي تزفر بقوة وارتياح.

***

أوقف السيارة أسفل منزل "سليم"، واعتدل يحدثها قائلا قبل أن تفتح الباب:

- ساعتين بالظبط وهارجع أخدك.. ما تتأخريش.

قبل أن تترجل من سيارته،استأذنته في أن تصحب "سلمى" معها لأيام أخرى، فهي تحتاج لوجودها بجانبها، حتى تتأقلم على وضعها الجديد بحياته. وافق بدون تفكير، معطيًا إياها جميع الصلاحيات لتفعل ما تشاء، فهو منزلها أيضا في النهاية.

وعند عودته، كانت تتوقع أن يقلها إلى منزله مجددًا، إلا أنه أخذهما إلى بيت والدته قائلًا:

- وجودك هنا هيساعدك تفتكري ذكرياتك القديمة..انتِ ليكي هناك ذكرى في كل ركن من البيت.

تنفست الصعداء وأغمضت عينيها بارتياح، وخصيصا عندما أعلن عن رغبته في تركهما وحدهما في منزل "نور"، إلا أنه سيمر من حين لآخر للاطمئنان عليهما.

كان من المفترض أن تستقر في حجرة "نور"، إلا أنها تراجعت في اللحظة الأخيرة وهي ترقب الغرفة برهبة بالغة ووجه متألم وهي تقول:

- طنط "نور" كانت بتعتبر أوضتها مكان مقدس ليها هي وعمو "مصطفى" بس

اقترب "حسام" رافعًا حاجبيه باندهاش مكررًا وراءها:

- طنط و عمو!

ترقرق الدمع بعينيها وهي تقول مصححة:

- قصدي ماما وبابا

أرسل تنهيدة حارة وهو يومئ برأسه متفهمًا حالتها، ثم غادر المنزل منصرفًا. وفي الصباح الباكر، كان واقفًا أمامها مبتسمًا وهو يقول:

- صباح الخير يا أختي العزيزة.

ثم مال برأسه بالاتجاه الآخر ملقيًا التحية إلى "سلمى"، التي ابتسمت قائلة بحماس:

- كويس انك جيت بدري يالا عشان تفطر معانا.

وبعد الإفطار الذي سيطر عليه حديث أختها عن دراستها وتعقيداتها، وتجاوبه معها مجاملًا، أخذ "حبيبة" إلى الشرفة مشيرًا إلى مقعدين في ركن منها، متقابلين يجاورهما منضدة مرتفعة في نفس مستوى المقعدين، وضع فوقها حوض أسماك ملونة صغيرة، ويفصلهما طاولة مستديرة، وتساءل باهتمام:

- المكان ده مش بيفكرك بحاجة؟ ركزي كويس.. المكان ده كان المفضل ليكي انتِ وماما، دايمًا كنتم بتقعدوا فيه وتشربوا القهوة سوا وبتحكيلها كل أسرارك أو أي حاجة مضايقاكي.

اقتربت بوجل متحسسة المقعدين وهي تهمهم بخفوت:

المكان فعلًا مش غريب عليا.. حاسة إنه قريب من قلبي.. غريبة أوي،ماخدش بالي منه قبل كده لما كنت قاعدة هنا!

برقت عيناه وهو يتفحصها قائلًا:

- ممتاز..شفتي بقى كان معايا حق إزاي لما صممت إنك تيجي معايا..أهو كده على ما نتيجة التحليل تطلع تكوني افتكرتي كل حاجة.

***

ثلاثة عشر يومًا مرت من عمرها، رفضت خلالها أن تعود إلى عملها، بل حتى رفضت أن تخرج من المنزل. سكنته، أو ربما هو من سكنها.. كان "حسام" يأتيها كل صباح، يتناول معهما طعام الإفطار، ويحاول أن يقص عليها ذكرياته معها في الصغر، ثم يتركها ويرحل مصطحبًا "سلمى" معه ليوصلها إلى الجامعة. وأخيرًا، جاء اليوم الذي ينتظره، واستلم نتيجة التحليل، وانطلق بها ساخطًا إلى صديقه الطبيب "علي" في المشفى التي يعمل بها. توترت عضلات وجهه باضطراب وحنق وهو يناقش معه نتيجة التحليل والذي أكدها له قائلاً :

- النتيجة إيجابية زى ما كنا متوقعين.

أخته لا محالة.انتظر أسفل العقار داخل سيارته يطرق بأنامله فوق المقود، وهو يفكر بعمق محاولًا الهدوء والاسترخاء قبل الصعود إليها.

وعلى غيرعادته،استعمل مفتاحه لأول، ولم يطرق الباب، وولج الشقة يبحث عنها بهدوء.

جذبه نشيج بكائها إلى غرفة والدته المتوفاة، فأطل برأسه من زاوية منفرجة بالباب، فرآها تجلس فوق سجادة الصلاة تضم ركبتيها إلى صدرها وقد انتهت من صلاتها، جسدها يرتج من أثر البكاء،وتهز رأسها يمنة ويسرة رافضة غاضبة يائسة، يرتعش الألم فوق شفتيها والدمع على خديها.لم تلحظ تقدمه البطيء نحوها، ولم تسمع صوت أقدامه.. فقط اشتمت رائحته!.

بظهري يديها جففت دمعها على الفور،وتنحنحت وهي تحاول النهوض، إلا إنها تعثرت في ثوبها الطويل.استندت بيدها اليمنى إلى الأرض، قبل أن تشعر به يمسكها من كتفيها ويساعدها على الاعتدال واقفة.ابتلعت ريقها مقاومة غصتها وألم معدتها، الذي ضرب أركانها فور رؤيته، واغتصبت ابتسامة باكية فوق شفتيها، وهي تقاوم نظرته المتفحصة قائلة:

- مش اتفقنا تستأذن قبل ما تدخل؟

لم يجبها.. ظل محدقًّابها بصرامة، محاولًا اختراق عقلها.. حاربت، قاومت، رسمت صورة لجدار أمامها، وصارت تضع فوقه لوحات مختلفة ألوانها بمخيلتها. غضب بشدة وضغط ذراعيها دون وعي، محاولًا اقتحام الجدار والولوج إلى أفكارها، ولكنها كانت محاربة صلدة أصرت على منعه. حدت الجدار بقضبان حديدية لها أقفال كبيرة، وهي تتحمل ضغطات أصابعه القوية تؤلم ساعديها، حتى نفذت طاقتها فتأوهت بضعف، جعله ينتبه إلى ما يفعله بها.

- لما بلغتك الخبر في التليفون كنتي عادية جدا، ليه بتبكي دلوقتي؟

أخفضت رأسها وولته ظهرها وهي تقول بصوت مبحوح:

- افتكرت ماما "نور".

قبض على ذراعها وأدارها إليه مرة أخرى:

- انتِ مخبية إيه ومش عاوزاني أعرفه؟

دفعت يده متقهقرة إلى الخلف، لتستجمع رباط جأشها قابضة راحتيها باضطراب وهما يرتعشان رغمًاعنها، هاتفة:

- اسمع بقى، مش معنى إني طلعت أختك فاكر نفسك هتتحكم فيا. وعشان نبقى على نور من أولها، وبعد ما تأكدت إني أختك فعلًا، سلمني ميراثي وكل واحد يعيش زي ما هو عاوز.

رفع حاجبيه باهتمام، وصمت قليلًا ليستوعب كلماتها، ثم أومأ برأسه عدة مرات مكررًا:

- ميرااااثك !!

التفتت تفتح نافذة الغرفة وتشد ستائرها دون أن تنظر إليه قائلة بسخط:

- آه ميراثي.. أنا عاوزة فلوسي تبقى في إيدي في أقرب وقت،اتصرف.

اعتدل وهو يزفر بقوة، وقد انتهى صبره، وجذبها لتواجهه.أمسك وجهها بقسوة آلمتها وهو يقول بغضب مكتوم:

- هو ده بقى اللي سايرتك انتِ وأهلك المدة اللي فاتت دي كلها علشان أعرفه.

دفعها نحو الجدار وهو مازال ممسكًابوجهها، وقد برقت عيناه بوحشية وهو يستطرد غير عابئ بالألم المستبد بها..

- الفلوس..الميراث..عملتوا عليا فيلم عربي قديم،إبتدا بورقة على عربيتي وانتهى بتحليل مضروب. في الأول كنت فاكرك مجبرة، لكن لما خرجتي من أوضتك ماسكة الفستان اتأكدت إنك شريكة معاهم. بس استنيت لما أمسك في إيدي ورقة مزورة أعرف أسجنكم بيها.

كانت ترتجف بين يديه وهو يهزها بقوة قائلًا:

- الشغالة اللي بتيجى تنضف بيت ماما هنا، واللى دفعتولها فلوس علشان تسرق فستان من فساتين أختي،اعترفتلي بكل حاجة لما سبتكو تباتوا في الفيلا وجيت أنا هنا علشان أعرف إزاي قدرتم توصلوا لدولاب أمي وتفتحوا شنطة هدوم "حنين" من غير ما أنا أحس بحاجة. ولما أخدتك الفراندة وقلتلك إنك كنتي بتقعدي مع ماما هناك، كدبتي كالعادة وقلتي المكان مش غريب عليا.. بس اللي انتِ وأهلك ماتعرفهوش لحد دلوقتي إننا نقلنا في الشقة دي بعد ما أختي غرقت - الله يرحمها -.

اتسعت عيناها بذهول وتحجر الدمع بعينيها، تريد أن تتكلم، تريد أن تصرخ .. ولكنه أكمل صائحًا:

- كنت عارف من أول يوم إنكم هتزوروا التحليل و"علي" صاحبى أكدلي الكلام ده لما عرف اسم الدكتور اللي خلتونا نعمل التحليل عنده.

توقف لثوان يلتقط أنفاسه، وضغط أكثر على ذراعها هاتفًا بانفعال:

- وحتى لو ماكانتش الشغالة اعترفت، وحتى لو "علي" ماقاليش على الدكتور المزور ده،ماكانش في حاجة في الدنيا هتخلينى أشك

ولو للحظة إنك ممكن تكونى أختي.. عارفه ليه حاجة واحدة بس "خالد" نفسه ماكانش يعرفها، وأختي طلبت إننا نخبيها عليه لما اكتشفناها قبل ما تسافر بكام شهر.. أختي كان عندها سرطان والعلاج الكيماوي وقع شعرها، لكن الحجاب اللي كانت لابساه ماخلاش "خالد" يحس بحاجة.

شعرت بوعيها يتخلى عنها، فأغمضت عينيها وقد تشوشت صورته الهادرة أمامها، واستمعت إلى صوته الغاضب آت من بئر سحيق، له صدى مخيف.

ولفحتها أنفاسه الحارقة وهو يقول:

- بعد كل اللي بيننا.. اخترتي تبقى أختي مش مراتي علشان مستعجلة على الفلوس.. زي أهلك بالظبط.. أنا بقى هاجبرك تبقى مراتي لليلة واحدة، وبعدها هاطلقك وأرجعك لأهلك تاني..أصل أنا مش متعود أعوز حاجة وماخدهاش..حتى لو حاجة مالهاش قيمة.

***

استردت وعيها ببطء شديد، وفتحت عينيها بوهن، فاصطدم ناظراها بسقف الغرفة، وتذكرت كلماته الأخيرة آتية من بعيد كقطار يتحرك ببطء نحوها.اعتدلت فزعة في الفراش، وهي تُزيح الملاءة التي تغطيها. لم يتغير شيء، مازالت بثوب الصلاة، وهذا لا يعني إلا شيئًا واحدًا.. إنه أنبل من أن يجبرها، ليس وهي فاقدة الوعي على الأقل. لن يفعل كالبقية وينتزع منها خياراتها كما فعلوا، أو هكذا ظنت!

فتحت "سلمى" الباب في تلك اللحظة، ودلفت إليها وهي تحمل "حنين" بين يديها قائلة بلهفة:

- حمدلله على سلامتك يا"حبيبة" إيه اللي حصل؟

لم تجبها، فجلست بجوارها ممسكة بهاتفها تضغط أزراره وهي تقول:

-"حسام" قاللي لما تفوقي أكلمه على طول.

حدثته لثوان، ثم ناولتها الهاتف بحركة آلية. رفعت "حبيبة" الهاتف على أذنيها وبصوت مكلوم قالت:

- نعم ؟

كان رده عبارة عن ثلاث كلمات فقط لا رابع لهم إلا القسوة: "ورقتك هتوصلك بكرة". أغمضت عينها بألم، جاذبة طفلتها من بين يدي"سلمى"، وقد سقط الهاتف من يدها.ضمتها بقوة إلى صدرها، ودفنت وجهها كما يفعل هو دوما في طيات عنق الصغيرة، تستنشق آخر ما تبقى من رائحته التي مازالت عالقة بها.

***

استقلت القطار وجلست بجوار النافذة وهي تحمل طفلتها النائمة بين ذراعيها، وقد قررت الابتعاد، الهروب بلا عودة. وعندما بدأ القطار بالتحرك، أخرجت سلسلة مفاتيحها من حقيبتها ووضعتها أمامها، وأخذت ترقب كريستالة الإيماجو المشطورة نصفين، وتحدق بها. قطبت جبينها وهي ترى صورتها المعكوسة عليها ناقصة.. نصف وجه فقط، هناك نصف ضائع، مفقود، والآخر ممتلئ بالشروخات الكثيرة فاستحال إلى أطراف حادة قابلة للقطع.

***

- انت السبب..غصبت علينا كلنا نلعب معاك اللعبة الهبلة دي، فاكره ساذج ولا أهبل بمنتهى البساطة هيرمي ميراث أخته. وآدي النتيجة.. ياترى هيسكت لحد كده ولا هيفضحنا قدام الناس؟

هكذا صاحت "فريدة" وهي تلوح بكلتى يديها موجهة حديثها إلى زوجها حانقة، بينما قالت"نشوى":

- يا ترى "حسام" ليه دخل بالاستدعاء اللي جه لـ"راغب" من النيابة؟

زفر "راغب" بقوة وهو يعقد ذراعيه فوق صدره بقلق بالغ وهو يقول:

-كله هيبان لما أروح بكرة .

ثم وجه حديثه إلى "سلمى" متسائلًا باهتمام شديد:

- المهم دلوقتي "حبيبة" فين؟ ماجتش معاكى ليه..مش طلقها خلاص؟

جلست"سلمى" إلى المقعد وهي تجيب بشرود:

- صممت تاخد "حنين" وترجع إسكندرية لوحدها وقالتلي مش راجعة هنا تاني

صاح"راغب" بانفعال دون وعي:

- ده كلام فاضي.. يعني إيه مش هتيجي هنا تاني؟

ضيقت "نشوى" عينيها وهي ترمقه بنظرة شك، بينما بدا على "سليم" أنه خرج توًا من عالمه الخاص وهو يلتفت إلى "راغب" قائلًا بجمود:

- لازم نلحق قبل ما يطلقها رسمي.

اعتدلت "فريدة" بقلق وتساؤل وهي تقول:

- تلحق إيه يا "سليم" ؟

نهضت "سلمى" بدورها وهي ترقب عيني "راغب"، التي لمعت وهو يومئ برأسه موافقًا، ثم تحرك على الفور وهو يضغط أزرار هاتفه بيد ويفتح الباب بالأخرى. أنهى مكالمته التي لم تتعد ثلاث ثوانٍ، والتي لم تكن سوى كلمة واحدة:

- نفذ.

وفي صباح اليوم التالي، تجمع جزء من العائلة أمام مكتب وكيل النيابة المسئول عن التحقيق في قضية حرق محال "خالد"، والتي أُغلق التحقيق فيها منذ شهور، ثم أعيد فتحه بناء على طلب من "حسام"،بعد ظهور أدلة جديدة قدمها للنيابة،متهمًا فيها "راغب" وأحد العمال الذين كانوا يعملون مع "خالد".تمتمت "نشوى" وقد ترقرق الدمع بعينيها محدثة والدها:

- يقبضوا عليه ليه هو إيه علاقته أصلًا بحرق محلات "خالد"؟

وقبل أن يربت والدها على كتفها مطمئنًا، توقفت يده في الهواء وقد اشتعل الغضب في عينيه، عندما استمعا إلى صوت "حسام" الآتي من خلفهما وهو يقول مجيبًاعلى سؤالها:

- أقولك أنا إيه علاقته بالموضوع ؟

التفتا إليه، فوجداه يقترب منهما وهو يتابع بصرامة:

- جوزك يا مدام سرق مذكرات "حبيبة"، وقرا فيها الكلام اللي كاتباه عني، حب يستغل الفرصة ويبتزني عشان مايقولش لـ"خالد" -

الله يرحمه -. ولما ماطلعش مني بمصلحة راح لـ"حبيبة" عشان يبتزها برضه.

ثم غمز بعينيه وهو يردف شامتًا بها:

- بس ماكانش عاوز منها فلوس كان عاوز حاجة تانية.

اتسعت عينا "سليم" بغير تصديق، بينما شهقت "نشوى" واضعة راحتها فوق شفتيها، ثم هزت رأسها نفيًاقائلة:

- كداب.. إنت َكداب.

تابع "حسام" حديثه وكأنه لم يسمعهما، وهو يقص عليهما ما حدث في تلك الليلة التي وقف فيها ينتظر مغادرة "راغب" لبيت صديقه، فلاحظ دخول شخص ملامحه مألوفة لديه، وكأنه قد رآه من قبل ولكنه لا يذكر متى وأين، لأن تركيزه في هذا الوقت كان منصبًا على "راغب". حتى حدث الحريق الهائل في محال "خالد"، وأثناء التحقيقات رأى نفس الشخص مرة أخرى، وعلم أنه أحد عمال "خالد" الذين يعملون لديه. لم يشأ "حسام" في هذا الوقت أن يخبر "خالد"، ولا أن يثيره في التحقيقات، حتى لا يزج باسم "حبيبة" فيه، ولكنه عين من يراقب هذا العامل لحظة بلحظة. وهكذا علم بطبيعة العلاقة التي تربطه بـ"راغب"، والتي تربط "راغب" بالفتاة التي تعرف إليها "خالد" في تركيا، وقد أصبحت عشيقة لـ"راغب" بعد أن تركها "خالد" وأصرت على الإنتقام، فاتفق مع هذا العامل على حرق محال "خالد"، والذي اعترف بكل شيء إلى "حسام" وفوهة سلاحه موجهة إلى رأسه.

حركت "نشوى" رأسها غير مصدقة وهي تهذي:

- مش ممكن..؟ "راغب" جوزي كان عاوز أختي، مستحيل!

حرك"حسام" كتفيه ساخرًا وهو يجيبها:

- مستحيل ليه ؟أنا أعرف واحدة ساعدت واحد إنه يوصل لأختها المتجوزة وماكنش فيه حاجة تهمها غير مصلحتها وبس.

ثم حول نظره نحو"سليم" متابعًا حديثه:

- وأعرف واحد كان عاوز يبيع بنته بأي ثمن المهم هو يستفيد.

انسابت الدموع على وجنتيها مصدومة، بعد أن ألقى عليهما نظرة يملؤها الاحتقار والتشفي، قبل أن يَلج إلى داخل غرفة التحقيق ليدلي بأقواله، بعد أن ناداه الحارس الذي يقف على باب وكيل النيابة، بينما تأججت ألسنة اللهب بقلب "سليم"، متوعداً إياه بالإنتقام.

غريبة هي أحوال البشر، أراد رد كيدهم فاتهموه بالعدوان..فغالبًا لا نصبح مثاليين إلا عندما نستسلم للذبح.!

***

شعر بدهشة بالغة عندما أوقف سيارته أسفل منزله ليلًا، ووجد "سلمى" تنتظر هناك في حالة هستيرية. تقدمت نحوه بمجرد أن لمحته يوقف سيارته:

- باحاول أكلمك من إمبارح إنت فين؟

ألقى مفتاح سيارته إلى عامل الجراج، الذي أقبل عليه مهرولًا وهو لا يعلم أنه يهرول لحتفه بلا ذنب اقترفه.اخترقت رصاصة ظهره، سقط على إثرها جسده أمام"حسام"، الذي أذهلته المفاجأة، إلا أنه حاول أن يتحرك سريعًا خلف سيارته، جاذبًا معه"سلمى" التي كانت قد وصلت إليه في تلك اللحظة من الاتجاه الآخر. هرول

رجال أمن البناية إلى حيث سيارة "حسام"، بينما أخرج هو سلاحه وأطلق الرصاص نحو الجسد الأسود الذي تحرك على الفور بين السيارات المرصوصة المقابلة للبناية في الاتجاه الآخر، قافزًا فوق دراجته النارية منطلقًا بها، مثيرا خلفه موجة غبار عالية. لم يستطع رجال أمن البناية أن يلحقوا به، فقد اختفى بعدها كمحترف.

عاد أفراد الأمن إلى "حسام" مرة أخرى،والذي كان يفحص جسد العامل الذي سُجي بين ذراعيه، راجيًا ألا يكون قد فارق الحياة. حمله ووضعه بسيارته، و"سلمى" مازالت مختبئة ترتجف رعبًا،وأغلق الباب واعتدل ليدور حول السيارة ، ولكن صوت رصاصة أخرى ألهبت الأجواء من جديد، وسقط جسدًا آخر على ركبتيه مضرجًا بدمائه.. جسد "حسام".

***

لم تتوقف دمعاتها لحظة واحدة وهي تقف خارج غرفة الجراحة تنتظره وقلبها يرتجف خوفًا عليه.اقترب "طارق" منها مندهشًا من حالتها تلك مع بساطة أصابة صديقه ومن تواجدها في الأصل وقال بشفقة:

- حاولي تهدي شوية .

قالت بألم:

- مش هاسامح نفسي لو حصل له حاجة.. أنا السبب.

أرسل "طارق" تنهيدة حارة وهو يقول:

- انتِ السبب إزاي بس هو انتِ اللي ضربتيه بالنار؟

ارتفع رنين هاتفها في تلك اللحظة، فأخرجته بتوتر من حقيبتها ورفعته على أذنها وهي تجيب باضطراب:

- أيوة يا "حبيبة"؟

استدرات مبتعدة عنه لتتحدث بأريحية أكثر، ولكن أذنه التقطت كلماتها قبل أن تبتعد. زادت حيرته وتعجبه أكثر من ذي قبل، لقد أخبره "حسام" أنه سيطلق زوجته، فلماذا تقف أختها تبكيه وترتجف قلقًا عليه، بل تقول لها ما سمعه منها للتو عبر الهاتف؟!

خروج الطبيب من غرفة الجراحة صرف عن ذهنه كل شيء سوى الاطمئنان على حالة "حسام"، بينما أغلقت "سلمى" الهاتف وعادت تهرول بمجرد رؤيتها للطبيب يتوجه نحو "طارق". وعندما اقتربت سمعته يطمئنه. ظلت بجواره ولم ترحل، و"طارق" يتخذ مقعدًا بجوار فراشه، يرقب حالته باهتمام. وعندما أصبح قادرًا على الكلام،التفت إلى "سلمى" بابتسامة شاكرة مرهقة، فتحركت نحوه بلهفة قائلة:

- الحمد لله إنك بخير.

كان أول ما قاله وهو مقطبًا جبينه بألم متسائلًا:

-"حبيبة" فين؟

عقدت حاجبيها وتصلبت مكانها، وصمتت هُنيهة قبل أن تقول بخفوت:

- مااعرفش.

أعاد سؤاله بطريقة مختلفة قائلًا:

- مااتصلتش تطمن عليا؟

قالت على الفور :

- تطمن عليك إزاي وهي ماتعرفش اللي حصلك أصلًا.

التفت إليها "طارق" بدهشة، ولكنها لم تلحظ التفاتته. لقد كانت مشغولة بابتسامة ظهرت بين جانبي شفتيه وهو يقول بوهن:

- أكيد هتحس.

حملت حقيبتها مثبتة إياها على كتفها بعصبية واضحة قائلة بجفاء:

- أستأذن أنا بقى.

غادرت متوترة، بعد أن أومأ لها بتفهم، وبمجرد أن أغلقت الباب خلفها استدار "طارق" إليه قائلًا بتعجب:

-"حبيبة" اتصلت بيها تسألها عليك.. أنا سمعتها بتكلمها.

التفت إليه "حسام" بتساؤل، فتابع "طارق" وقد تملكت منه الدهشة:

- افتكرت إنها مش عاوزة تقلق أختها عليك..لكن كان المفروض إنها تقولك على اتصالها، حتى على الأقل عشان تصلح بينكم.

أغمض عينيه مستسلمًا لخدر النوم الذي بدأ يغزو عقله من أثر الحقنة المسكنة للألم وهو يقول:

- ماتفرقش يا "طارق"..أنا كنت عاوز أعرف هي اتصلت ولا لأ مش أكتر.

أنهى كلماته وراح في سبات عميق، تاركًاخلفه صديقه يتخبط في حيرته، ويطرق عقله ألف سؤال وسؤال!.

الأخير

لأيامٍ أخرى ظل حبيسًا لفراشه، لم يتركه "طارق" إلا عندما ينتهي ميعاد الزيارة، ثم يعود في صباح اليوم التالي. أظهر "حسام" ملله الشديد وهو يحدث الطبيب مبديًا رغبته في مغادرة المشفى، وظل يلح عليه حتى استطاع أن ينتزع منه إذنا بالخروج في ظهر اليوم التالي، مع وعد منه بعدم بذل مجهود يضر بجرحه.

ساعده"طارق" في جمع أغراضه وهو يقول بسخط:

- نفسي أعرف ليه ماقُلتش لوكيل النيابة إنك بتتهم "سليم" و"راغب".. ؟

تناول هاتفه واضعًا إياه في حزامه وهو يقول بلا مبالاة ظاهرة:

- مش عاوز العداوة بيننا تكتر أكثر من كده..أنا أخدت حق "خالد" وخلاص، حقي أنا مايفرقش معايا، ماتنساش إني في كل الأحوال هاضطر أتعامل معاهم عشان خاطر"حنين" بنت"خالد"

***

عندما ولج إلى منزله المصمت في الظهيرة، وجدها تنتظره بغير الوجه الذي كان يتوقعه منها وقد خرج للتو من القضية التي تم التحقيق فيها معه بلا إدانة واحدة تدينه. فلسبب ما يعرفه هو جيدا، غيَّر العامل أقواله عندما وقف في مواجهة"راغب" أمام وكيل النيابة. أطرق برأسه خوفًاوهو يتذكر التهديد الذي وصله عن طريق أحد

السجناء معه بالحجز في الأسفل، إما هو وإما أبناؤه وزوجته، فقال "لا يا فندم مش هو ده اللي اتفق معايا".

ابتسم"راغب" بانتصار وهو يتقدم نحوها معاتبًا لها بفظاظة على برودة اللقاء، فكانت كلماته هي الدفعة التي أخرجت الجحيم المستعر بصدرها منذ أن قال "حسام" كلماته الأخيرة خارج غرفة التحقيق. واجهته بكل كلمة سمعتها من "حسام" وهي تصرخ بوجهه، مما جعله يخلع قناع البرود قاذفًا به بعيدًا، ثم قذفها معه إلى نفس الهوة وهو يمسك بذراعيها بقوة واقفًا في مواجهتها تمامًا هاتفًا:

- هو لما انتِ تفضلي كل يوم والتاني تتكلمي معايا في شرف أختك وخيانتها لجوزها منتظرة مني أعمل إيه.. أقدسها مثلًا؟

دفعها للخلف، قبل أن تخرج من ذهولها على إثر كلماته ونظرة احتقاره. خرج وهو يصفع الباب خلفه،فتحركت بخطوات مذهولة نحو باب الشقة الذي صفع لتوه بعنف جعل الإطار الزجاجي من خلفه يتصدع بتشققات عشوائية تركت انعكاس صورتها على سطحه يبدو مخيفًا. زاغت نظراتها وهي تدقق في ملامحها المبعثرة المهشمة، وتدحرجت دمعات خانتها منزلقة فوق وجنتيها..

نعم هو محق.. أنا السبب، أنا من خضت في عرضها ألوك سيرتها أمامه دومًا وهي أختي، فكيف أنتظر منه الوفاء لي. أنا مدينة لك يا"حبيبة" بالكثير، وها قد حان وقت رد الدين.

جذبت حقيبتها وفتحت الباب وقد عزمت على التوجه إلى المشفى الذي يرقد به"حسام" مصابًا. لا بد أن تصارحه بكل شيء.

صرخة احتبست بحلقها كانت تريد أن تصرخ بها أمامه لترتاح: "زوجتك كانت مجبرة، فعلت ما فعلت من أجلك أنت".

استقلت سيارة أجرة، وجليد الكره الذي دوما كان يحيط بقلبها نحو أختها بلا جريرة قد بدأ بالذوبان رويدًا رويدًا.

***

ألقت "سمر" الهاتف متفاجئة، عندما هتفت "هدى" من خلفها بخشونة:

-"سمر"!

التفتت إليها بفزع وهي تتابع تقدمها نحوها قائلة بارتباك:

- في إيه يا "هدى" خضيتيني؟

برقت عينا "هدى" بازدراء، وهي تحدق بها هاتفة بانفعال:

- إيه القرف اللي أنا سمعته ده؟ وماتكدبيش، أنا سمعت كل حاجة، معقولة، كنتي بتبصيله البصة دي وهو لسة جوزي!

أشاحت "سمر" بوجهها حنقًا وقالت:

- انتِ السبب!

ثم رفعت وجهها تنظر إلى عيني أختها المصدومة، وتابعت بجرأة:

- انتِ اللي كنتي بتحكيلي عنه كل حاجة. حتى علاقتكم الخاصة كنتي بتحكيلي عنها حاجات بتبهرني زي الأفلام..خلتيني أتمنى أبقى مكانك.

ازدردت "هدى" ريقها بصعوبة وهي تشعر بنار تضرم في أرجائها وهي تهتف:

- انتِ مش طبيعية أبدًا.. علشان كده كنتي بتملي دماغي وتقوميني عليه طول فترة جوازنا!.. وخليتيني أخبي عليه حملي!..انتِ بجد شيطانة!

حاولت "سمر" أن تدافع عن نفسها، أن تجد أي شيء تقوله يجعلها ليست وحدها من تأثر بجاذبيته وفعل المستحيل للوصول إليه، حتى ولو على حساب أشلاء أحبائه. تشنجت عضلات وجهها وهي تقول:

- غصب عني مش عارفة أنا عملت كده إزاي.فيه حاجة بتجذب أي واحدة ناحيته..حتى أخت "حبيبة" عملت المستحيل عشان تبعدها عنه لحد ما طلقها.

عقدت "هدى" حاجبيها وهي تتمتم بذهول متسائلة:

-"حسام" طلق "حبيبة"!

قبضت على رسغ "سمر" وهي تنظر في عينيها بقوة قائلة:

- انتِ إيه دورك في الحكاية دي؟.. اتكلمي؟

صاحت "سمر" بانفعال وهي تجذب رسغها من قبضة "هدى" وتوليها ظهرها صائحة:

- أنا ماليش دعوى..أنا بس حاولت أوقف جوازه منها وقلتله على خبر حملك وكنت بساعدها بالمعلومات بس.

وضعت "هدى" يدها فوق بطنها، وقد تجلى الألم على وجهها وهي تدور لتقف أمام "سمر" قائلة بوجع:

- أختها مين وإيه اللي حصل بالضبط؟

نظرت إليها "سمر" مشفقة عليها لبرهة،ثم اقتربت منها قائلة بضجر:

- هاحكيلك كل حاجة.

ارتدت حذاءها وسحبت مفاتيح سيارتها، بعد أن حاولت الاتصال به، ولكن هاتفه كان مغلقًا دومًا. توجهت نحو الباب، فحاولت "سمر" منعها، ولكنها أبت إلا أن تخبره بالحقيقة؛ فـ"حبيبة" الرقيقة تلك، التي أصبحت قريبة إلى قلبها والتي أرشدتها إلى طريق لم تكن تعلمه من قبل وجدت فيه راحتها النفسية، لا تستحق ما فعلوه بها، ولا بد من بيان الحقيقة له والآن.استقلت سيارتها متوجهه إلى المشفى، ولا زالت تحاول استيعاب حديث "سمر" غير مصدقة، ومعها كل الحق..

لماذا تأتي الطعنة دائما من المقربين؟ ربما لو كانوا أكثر بعدًا لأصابت طعنتهم مكانًا آخرأقل خطورة، أقل ألمًا، لا ينضح بالنبضات التي تدق لأجلهم!.

***

حمل "طارق" حقيبة الظهر الصغيرة استعدادًا للمغادرة، في الوقت الذي سمعا طرقات خفيفة على الباب. تحرك "طارق" وهو يقول بتأفف:

- طبعًا ممرضة تاني عاوزة الحلاوة.

فتح "طارق" الباب ونظرباستفهام إلى المرأة التي تقف بحرج بالغ تنتظر الإذن بالدخول ، أدار "طارق" رأسه إلى "حسام" متسائلاً:

- في واحدة عاوزاك

أومأ له "حسام" برأسه موافقاً فأشار لها "طارق" بالدخول ،ولجت المرأة للداخل بنظرة منكسرة.ارتفع حاجبا "حسام" دهشة لرؤيتها وهو ينظر إليها متمتمًا:

-"أمل"؟!

تقدمت نحوه بخطوات مرتبكة، حتى وقفت أمامه مطرقة بتهذيب يغلفه القلق. نظر إليها مليًا يرقبها، فمن الواضح أنها لم تأتِ للزيارة والاطمئنان فقط.. تلك الخطوط المتعرجة بين حاجبيها، والارتعاشة التي سيطرت على كفيها وهي تفركهما بتوتر بالغ، أنبآه بشيء واحد فقط، المرأة مُحملة بعاصفة هوجاء.

كان قهر فقرها وخسارة عملها يلوحان لها في الأفق، وقد جاءت لتزيل عن عقله ركام المؤامرة.

***

لم ينتظر كثيرًا، بل لم ينتظر أبدًا، فبمجرد أن انتهت "أمل" من حديثها، وبعد أن لملمت عن عقله خيوط الظلام وأنارت له طريق الحقيقة،تخطاها إلى الخارج غير عابئ بـ"طارق" وهتافاته.

انطلق في طريقه إلى الأسكندرية، ضاغطًا دواسة الوقود بكل قوة لتلتهم سيارته المسافة التي تفصله عن حبيبته.لفح الهواء وجهه وكأنه يصفعه.. يوبخه.. يعنف فيه سذاجته.. هز رأسه غير مصدق وهو يعبر بسيارته بجوار السيارات الأخرى التي تشق نفس الطريق مثيرًا بداخل قائديها سؤالًا واحدًا، هل هذا المجنون يسعى لحتفه بتلك السرعة العالية؟.

لا.. بل هو يسعى للاعتذار منها.. حبيبته، شِقه الضائع.. ليس لها ذنب، كانت ضحية مثله تمامًا، وممن؟! من أقرب الناس إلى قلبها. هل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟!.

أكان ذنبه أنه أرسلها للعلاج بالخارج على نفقته الخاصة، وتحمل مسؤليتها نيابة عن والدها الذي تخلى عنها؟! أم أن ذنبه أنه عاملها كأخته الصغرى، ولم يبخل عليها بنصيحة أو ابتسامة مجاملةً لها.

لكنه نسي أنها مراهقة، لا تستطيع أن تتحكم بمشاعرها. ليست ناضجة كفاية لتفسر معاملته بشيء آخر.. وقعت في غرامه دون أن تدري، فاستغلت ذكاءها لتقترب منه ولتبعده عن كل أُنثى تشعر بالقلق حيالها. منذ أن عادت من رحلة العلاج وعلمت بزواجه من "حبيبة" وهي تسعى للتفرقة بينهما.

في البداية أوعزت لـ"حبيبة" بأن عراكا ما دار بينه وبين "خالد" في ميدان التحرير، وأنه شوه صورتها لديه. وعندما وجدت حيلتها خاسرة وناقصة، ورأته من خلف الباب يحتضنها ويقبلها، أدركت أن أختها تحبه بشدة وأنه يستطيع أن يسيطر عليها مهما زرعت في عقلها من شكوك؛ فأدارت الدفة لاتجاه آخر، اتجاه تعلم جيدًا أنه في شوق لأموال "حسام" وميراثه.

أوهمت والدها بأن "حسام" في طريقه لأن يرد "هدى" إلى عصمته من أجل حملها، وأكدت على كلامها وهي تخبره بزيارات "حسام" لـ"هدى" وذهابه معها للطبيبة مرة بعد مرة، وتيقن أبوها من صدقها، حيث نقلت له الأعين التي ترصده تفاصيل ذهابه معها عيادة الطبيبة النسائية،يجلس بجوارها، وتهمس له ويضحك، في

نفس الوقت الذي نفر من ابنته ورغب في إبقائها في منزل والدها، وكأنه يعيد التفكير بشأن زواجه منها مجددًا.

ستأخذ "هدى" كل شيء هي وولدها القادم، فما المشكلة إذا من حيلة صغيرة تجعل "حبيبة" هي نفسها "حنين"، ليصب ميراثها في جيبه هو وحده.

والغريب، أن "سلمى" بعمرها الصغير استطاعت أن تتلاعب به وتعطيه كلمة سر "حبيبة" قائلة،"حبيبة بتحبه وبتخاف عليه وهتعمل أي حاجة لو حست انه هيتعرض للخطر".

لمعت عيناه بقوة وهو يرتب خيوط المؤامرة بذهنه.سيجبر "حبيبة" على أن توافق مشاركتهم في حيلتهم تلك دون أن تعلم أن "سلمى" هي المدبر، حتى تطمئن إليها وتجاريها في الخطوات اللاحقة. وعندما دلف إلى حجرة "حبيبة" وهي تمشط شعر ابنتها وتبتسم بهيام، كان يتوقع رفضها لما سيقول، ولقد كان لكلمة السر مفعولها السحري عندما قال بحسم وصرامة مخيفة" يا تبقي أخته يا تبقي أرملته.. اختاري".

وعندما لمعت عيناها بالدموع ولم تُجد تَوسُلاتها شيئًا، انصاعت لتهديداته مستسلمة خوفًا،وأدرك أن ابنته الصغرى قد تفوقه ذكاءً وتدميرًا. إلا أنه غاب عنه أنها في النهاية فتاة مراهقة تدمن الثرثرة والحكي، فقد كانت تصب ما لديها في جعبة"سمر" دائمًا، شريكتها في حبه دون أن تعلم!.

تلك الثرثرة التي جعلت "أمل" تلم بخططها، ولكن جبنها وخوفها على عملها ورزقها جعلها تصمت، حتى علمت بطلاق "حبيبة" وذهابها وحيدة إلى الإسكندرية لتعيش منعزلة هناك، ثم

محاولة قتل "حسام"، كل ذلك جعلها تنتفض من سباتها وهي تتذكر فضل "حبيبة" عليها وطيبتها التي كانت تغمرها بها دومًا.. هي لا تستحق ما يحدث لها، ولن تصمت بعد الآن، فإن كانت تخشى على رزقها فالرزق بيد الله وحده، وبالتأكيد "حسام" و"حبيبة" لن يتركاها وقد ضحت بعملها من أجلهما!

كادت أن تفارق الحياة لا أن تفقد وعيها فقط، عندما فتحت باب المنزل ووجدته أمامها تملأ عينيه نظرة مشتاقة. وقبل أن تفيق من صدمتها، جذبها بين ذراعيه وضمها بقوة،لولا الصدمة والشوق لآلمتها عظامها واحتجت بأنين خافت.اشتمت رائحته بذهول للحظات دون حراك، وكأنهما أصبحا صورة مجسمة بداخل إطار معبر لعاشقين فارقتهما الحياة في خضم اللقاء.

وفجأة، تكهرب الجو بينهما، حينما نفضت غبار الشوق عنها ودفعته متراجعة إلى الخلف هاتفة:

- إنت إيه اللي جابك هنا وإزاي تحضني كده؟

تقدم للداخل مغلقًا الباب خلفه بهدوء قائلًا:

- انتِ لسة مراتي أنا مطلقتكيش.

تلون وجهها، فأشاحت به وصاحت بارتباك وقلبها يخفق بجنون:

- هو بالعافية ؟

تقدم نحوها يلامس أطراف شعرها وبنظرة ضمتها قال:

- أنتِ أساسًا مينفعش معاكِ غير العافية.

ابتعدت عنه، فتفلَتت خصلات شعرها وهوت من بين أصابعه، في اللحظة التي أقبلت فيها "حنين" من الغرفة الأخرى بمجرد أن

سمعت صوته في المنزل، وارتمت نحوه فالتقطها ورفعها إلى الأعلى، وهو يدور بها مشتاقًا لها متناسيًا جرحه بينهما. ثم ضمها بقوة مشتمًا رائحتها، وهي تصرخ بفرحة وتنادي باسمه.

دقائق مرت ظلت محدقة بهما، وهي تراه ينازلها في حب ابنتها يكاد يغلبها،ثم حول وجهه نحوها قائلًا بعتاب:

- رغم إني زعلان منك علشان ماقلتليش الحقيقة بنفسك، لكن فرحان جدًا إنك خفتي عليا.

ابتعدت خطوة عفوية إلى الخلف وهي تقول بدهشة:

- مين اللي قالك؟

تلك الخطوة التي ابتعدتها جعلته يقترب منها خطوات، وكأنها تشده إليها دون قصد، وهو لا زال يحمل"حنين" فوق ذراعه، وبيده الأخرى مد أنامله نحو وجنتها قائلًا بحب وهو يتفحصها:

- عرفت وخلاص..المهم دلوقتي أنا هانقل مقر الشركة في إسكندرية.

ثم نظر إلى "حنين" قائلًا بابتسامة مشرقة:

- ونعيش هنا كلنا مع بعض ونسيب القاهرة خالص.

ثم التفتت إليها متابعًا:

- أنا عارف إنك بتحبي هنا أكثر.

أبعدت وجهها عن متناول يديه وهي تتمتم بتساؤل وحيرة:

- طب واللي بابا عمله، والمشاكل اللي ممكن تحصل؟ وبعدين أنا لازم أعرف مين اللي قالك وإيه اللي حصل بالظبط؟

أسكتها وهو يمرر إبهامه فوق شفتيها برقة:

- إنسي كل ده..إديني فرصة آخدك من كل حاجة، إدينى فرصة أثبتلك إن الكون كله بعد ما بقينا مع بعض هيبقى مختلف، متكامل.

هنعيش هنا وهنفتح فرع جديد للجمعية هنا وتبقي انتِ رئيسة مجلس إدارته.

حاولت أن تقاطع ملامسة إصبعه لشفتيها، فنظرت إليه ونادته معترضة بخفوت:

-"حسام"!

ابتسم بثبات واهٍ، قبل أن يقول برجاء:

- الله يخليكي حطي إسمي في جملة مفيدة،أنا أعصابي مش ناقصة، مش هاستحمل اسمي لوحده.

رغمًا عنها ابتسمت، ثم ضحكت وهي تبتعد. وقبل أن يمنعها،ارتفعت طرقات خفيفة على باب المنزل، فأوقفها "حسام" بإشارة منه ثم توجه هو نحو الباب وفتحه. هتفت "حبيبة" من خلفه بابتسامة:

- ندى!

نظرت إليه "ندى" مليًا، ثم إلى "حنين" الذي كان يحملها،وأقبلت "حبيبة" نحوها وهي تشير إليه قائلة بخجل:

-"حسام" جوزي.

اتسعت ابتسامته سعادة بكلماتها، بينما نظرت لها "ندى" وقد رفعت حاجبًا واحدًا قائلة بثقة:

- عشان تعرفي بس إن أنا عندي الحاسة السادسة!!

***

أصرت"حبيبة" على أن يتخذ شقة أخرى سكنًا له، وأن يمنحها فرصة كافية لتأخذ قرارها دون ضغوط منه. فعندما صارحها بما فعلته "سلمى"، سقطت في موجة من الاكتئاب والوحدة لم يستطع هو أن يخرجها منها، وإنما استطاع فقط أن يمنعها من العودة إلى القاهرة لمواجهة "سلمى"والجميع، وأقنعها أنه هو المسئول لأنه لم يضع حدًا بينه وبينها وقد غره فارق العمر بينهما أن يعاملها كأخته الصغرى دون تكلف أو حدود، مما جعلها تتعلق به وتحبه وترى فيه فارس أحلامها، وازدادت تعلقًا به منذ أن علمت أنه هو من تكفل بمصاريف علاجها بالخارج وأنقذ مستقبلها، فخططت بتلك الطريقة الشيطانية مستعينة بكل ما تعرفه للوصول إليه.

الزمن كفيل بأن يجعلها تعود إلى رشدها.. أقنعت"حبيبة" نفسها بذلك، ولكنها لم تستطع أن تنسى. ومن منا يستطيع نسيان خيانة أقرب الناس إليه؟!

***

دفعت عربة الصغيرة أمامها بقوة، عندما انغرست عجلاتها في رمال الشاطىء المبتلة، وأدارتها دورة كاملة لتصبح في مواجهة البحر لتنعكس خيوط الشروق الذهبية المحتضنة لمياه البحرالبكر، فتحولها إلى ذهب لامع، في مشهد عشق يأسرها ويجعلها ترغب لو تُلقي بنفسها بين الأمواج، لعلها تحتضنها هي الأخرى وتتشرب تلك الحميمية والاحتواء. شروق ساحر أرغمها على الوقوف أمامه بلا حراك. جمعت كل ذكرياتها الأليمة وقذفت بكل ما عانته فأغرقته بين

الأمواج.. كل ما كسرها وأضعفها، كل من خانها وتآمر عليها ومزق قلبها.أيقنت في تلك اللحظة أن الحياة لن تخلو ممن سيحاول كسرها، ولكن لن تستكين ثانية،ستحارب، ستقاوم،سترمم كسورها سريعًا قبل أن تصبح مضاعفة!.

أخرجت قطعة الكريستال المشطورة نصفين من حقيبتها، وفصلتها عن سلسلة مفاتيحها، ثم وضعتها بداخل راحتها وظلت تنظر إليها بتأمل، وكلمات "حسام" الأخيرة تدوي بعقلها: "إدينى فرصة أثبتلك إن الكون كله بعد ما بقينا مع بعض هيبقى مختلف، متكامل".

عجيب جدًا، رغم كل تلك الشروخات بالقطعة الصغيرة إلا أنها لم تعكس صورة ناقصة مشوهة لها كما كانت تفعل في الماضي! لقد عكست على سطحها خيوط الشمس المشرقة فقط.

تذكرت حديث الطبيبة معها في المشفى، وهي تقول لها: "الإيماچو دي ما هي إلا إنعكاس لصورتك الداخلية عن نفسك. النقص اللي حاسة بيه ومحتاجة تكمليه، شايفة نفسك ضعيفة هتبقي ضعيفة، شايفة نفسك قوية هتبقي قوية، اختاري يا "حبيبة" انتِ عاوزة تبقي إيه ؟".

ابتسمت وهي تحمل قطعة الكريستال بخفة بين أصابعها، وتعود بنظرها إلى مياة البحر، وبرضا كبير رفعت ذراعها، وبكل قوة امتلكتها قذفت بها بين الأمواج. لفحها هواء البحر بقوة وعبث بطرف حجابها، فاتسعت ابتسامتها بنشوة وطُمأنينة لم تشعر بهما من قبل، وكأن التحامًا ما حدث لروحها للتو، واكتملت بعد نقصان.

***

سعى هو إلى نقل جزء لابأس به من عمله إلى الإسكندرية، في الوقت الذي بدأ فرع الجمعية الجديد في العمل بنشاط ملحوظ تحت رعايتها، فلقد عادت بقوة إلى مجال عملها الخيري بعد انتخابها لتصبح رئيسة مجلس إدارة الفرع الجديد.

جلست خلف مكتبها، وقد كانت تعتقد أنه سيلاحقها، ولكنه لم يفعل. تركها تخوض مضمار العمل وحدها، وتستقل بذاتها بعيدة عنه.

إلا أنه لم يستطع الصمود كثيرًا.. دلفت إلى مكتبها في صباح يوم، ففوجئت به ينتظرها بالداخل.ابتسمت بثقة وكبرياء مضطرب،وهي تدورحول مكتبها وتجلس خلفه ولسان حالها يقول "كنت أعلم أنك ستأتي يومًا". نظرت إليه وهي تقول بغرور مصطنع:

- اتفضل حضرتك ورانا أشغال.

جلس أمامها وهو يشير بسبابته تجاهها قائلًا بتحذير مصطنع:

- ما تنسيش إن أنا الريس بتاعك؟

مالت برأسها يمينًا باستنكار وهي تضيق عينيها بتنمر، فابتسم وهو ينهض نحوها، ثم انحنى مقتربًا منها وهو يلامس وجنتها بأنامله هامسًا:

- مش كفاية بُعد بقى؟

أبعدت وجهها عنه، ونهضت بتوتر وتوجهت نحو باب الحجرة وفتحته على مصراعيه، مستندة إلى إطاره وهي تقول باضطراب، وقد اشتعلت النار بوجنتيها:

- إنت كده بتعطلني على فكرة؟

زفر عابسًا وهو يهمهم معترضًا على جفائها الذي لم يعد يتحمله، وتقدم نحوها وهو ينظر إليها باستكانة وضعف مصطنع، فابتسمت رغمًاعنها ولكنها قالت بعناد كبير:

- مش هتصعب عليا أنا حافظة حركاتك دي اتفضل بقى يالا.

أنهت عبارتها وهي تبتعد عن الباب عائدة للداخل لتسمح له بالمرور، فارتجف قلبها وشعرت بسخونة في أطرافها، عندما رأته ينحني تجاه موضع يدها على الإطار ويقبله وهو يغمض عينيه وقد استبد به الشوق. رفع عينيه إليها وهو يعلم جيدًا تأثير حركته تلك عليها، وابتسم بثقة وقذف لها قبلة في الهواء، قبل أن ينسحب مغادرًا ويغلق الباب خلفه بهدوء زائف.

أطلقت زفرة حارة لتخرج التوتر الذي صنعه وجوده بمكتبها، واستندت بظهرها للمقعد مغمضة العينين باسترخاء، بينما زحفت ابتسامة جذابة فوق شفتيها بنعومة، وهي تستنشق عبيره الذي ملأ الحجرة تاركًا تذكارًا خلفه يذكرها به لعلها ترحمه.

هي أيضًا تشتاق وستعود إليه، ولكن ليس الآن.. ليس قبل أن تتأكد أنها تختار دون ضغوط.. ليس قبل أن تتأكد من قراراها الذي ستصبح مسئولة عنه في المستقبل.. ليس قبل أن تتأكد أنها قد وجدت ذاتها التي كانت تفتش عنها طويلًا، حتى بدأ ضوؤها يلمع من بعيد ملوحًا لها بترحاب، وليس قبل أن توقن تمامًا أنها قد أصبحت امرأة أخرى .. امرأة غير قابلة للكسر.

تَمَّتْ بِحَمْدِ الله

إصدارات أخرى للدار

- كيغار .. منى سلامة
- الروحاني .. أحمد الملواني
- رحلة الـ 100 عبيط .. عمر عباس